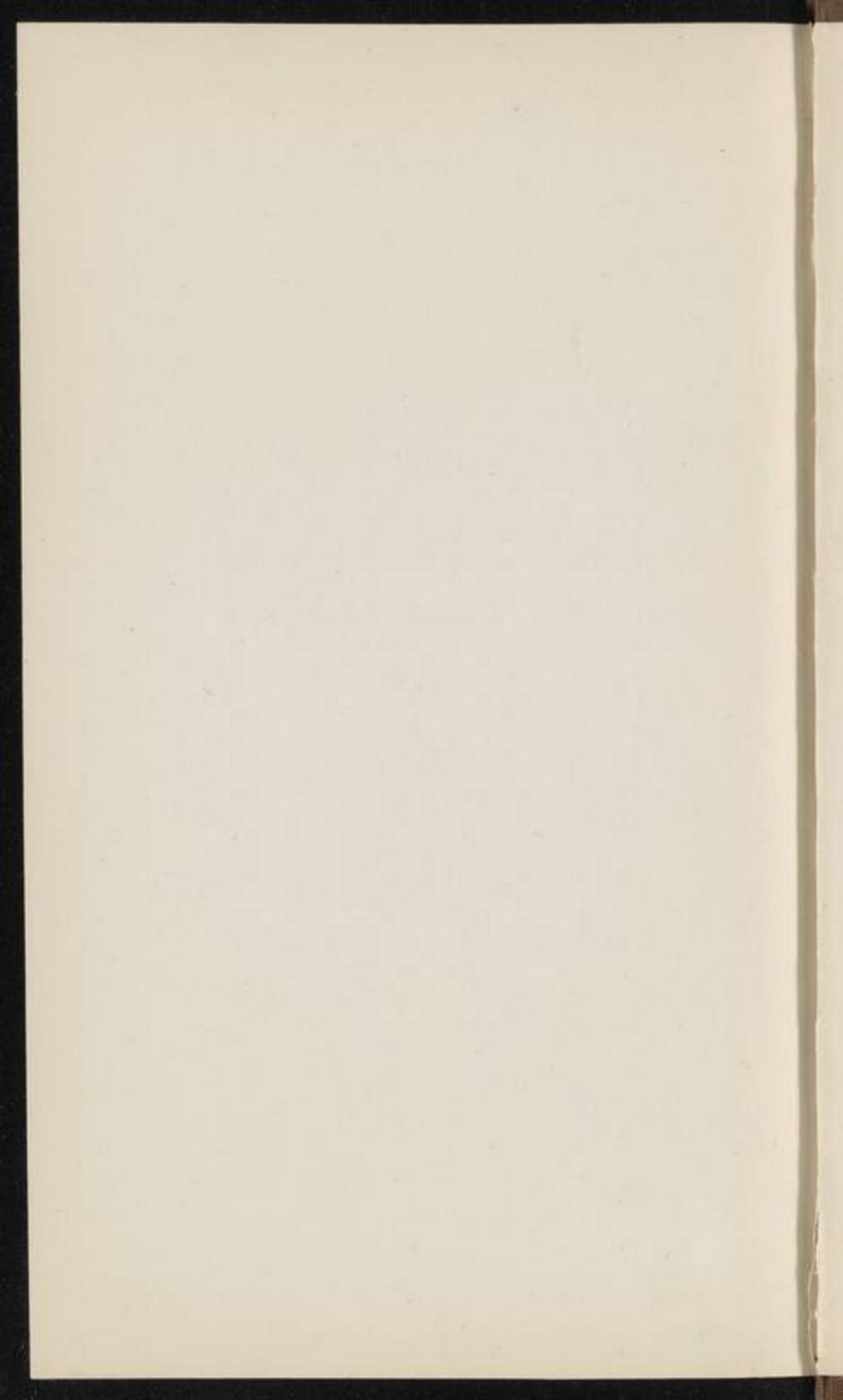
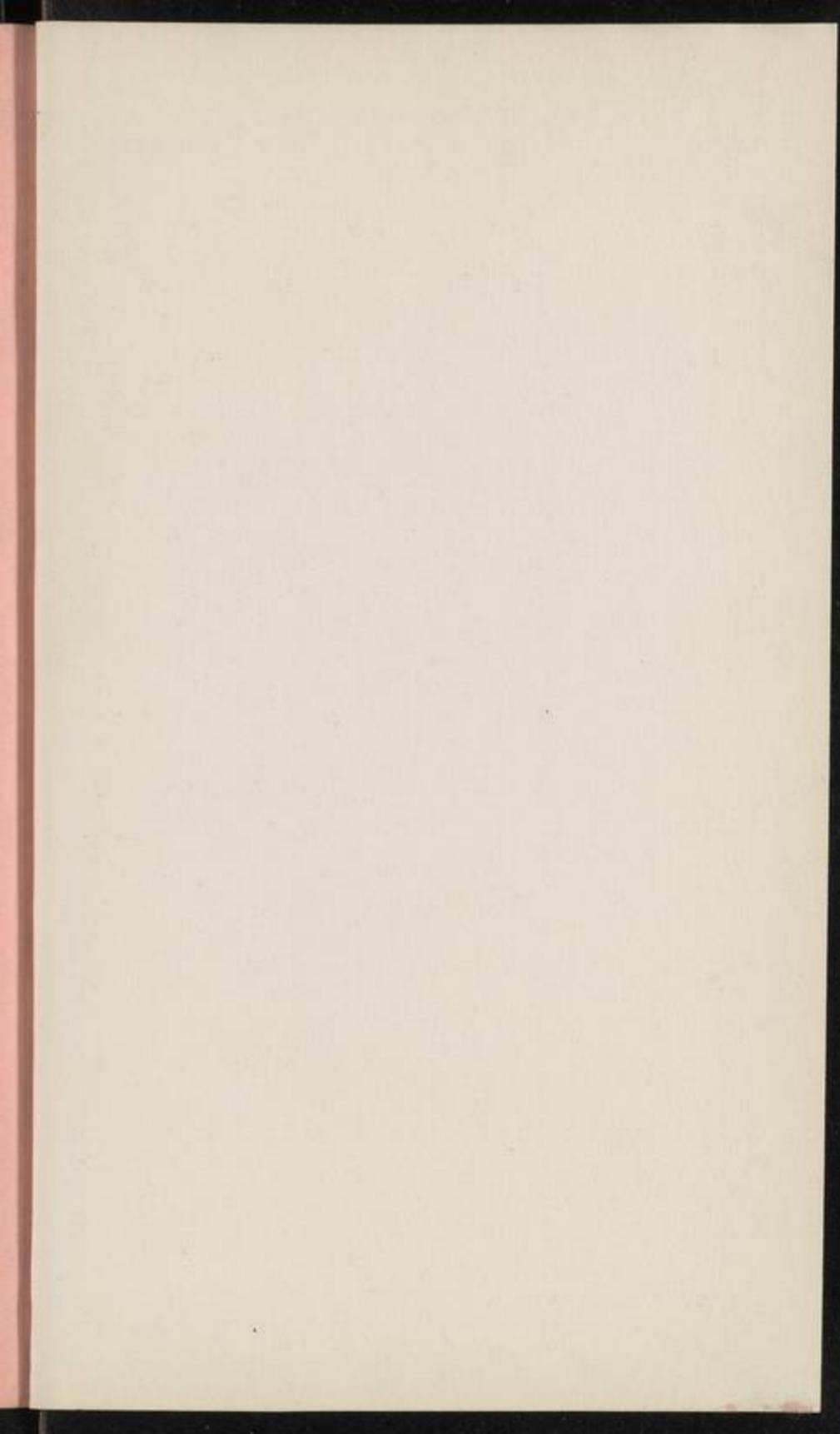


Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES







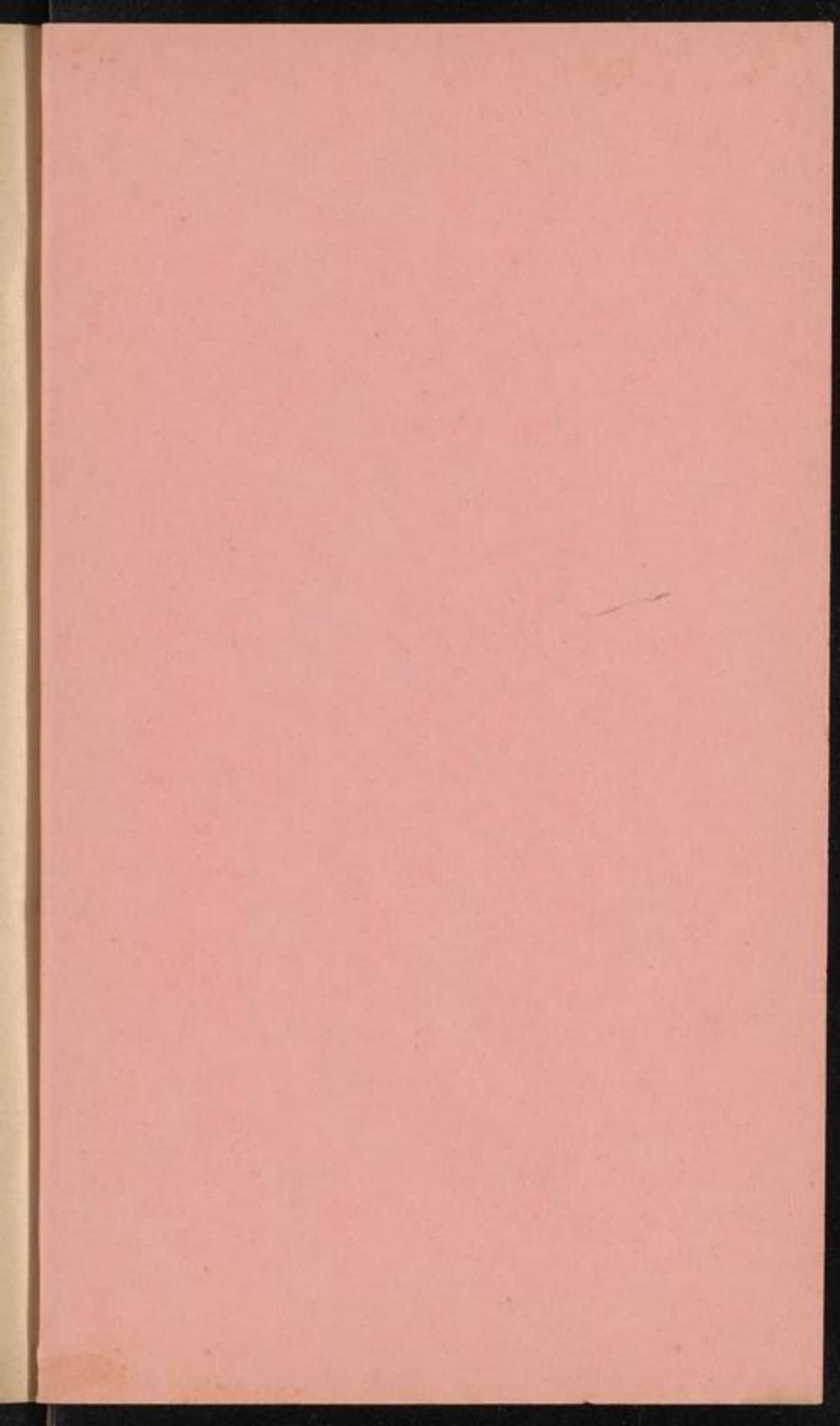
دكتور محمد كامل حسين

المدرس بكلية الآداب بجامعة ذياد الأول

أَدْبُ مِصْرِ الْإِسْلَامِيَّةِ
(عصر الولادة)

الناشر

دار الفكر العربي



دكتور محمد كامل حسين

بكلية الآداب — جامعة فؤاد الأول

أَدَبُ مِصْرِ الْإِسْلَامِيَّةِ
(عصر الولادة)

الناشر

دار الفكر العربي

893.79
H956

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

قد يكون موضوع هذا الكتاب جديدا ، فالكتاب والمورخون المحدثون لم يعنوا بدراسة الحياة الفكرية والأدبية بمصر الإسلامية عنايةتهم بدراسة الحياة الفكرية والأدبية في غير مصر من الأقطار الإسلامية ، مع أن القدماء وجوهوا إلى مصر عنابة خاصة ، فالوادى وأبو اسحق الأموي وغيرهما وضعوا كتابا في «فتح مصر» ، وزار المسعودى مصر وتحدث عنها في مروج الذهب ، ووضع الصولى كتابا في «شعراء مصر» ، وجعل الشعالي في بيته ببابا خاصا لشعراء مصر ، وهكذا كان القدماء أقرب بمصر من المحدثين ، ولا أدرى سبب تقصير الباحثين عن دراسة الحياة الفكرية والأدبية بمصر الإسلامية سوى وهمهم أن مصر الإسلامية لم تنتج أدبا يضارع أدب الشام أو العراق ، وما ضر هؤلاء لو بحثوا عن الأدب المصرى وأثبتو ما وهموه ، أما ازدواجهم عن البحث لفكرة اختبرت في أذهانهم فهو النقص بعينه ، فلا شك أن مصر كانت مركزا هاما من مراكز الفكر الإسلامي منذ دخولها العرب فاتحين ، واستقرروا بها ونشروا في مصر الدين الإسلامي ولللغة

العربية ، وامتزج العرب بالمصريين فتأثر العرب بمصر ، وتأثر المصريون بالعرب وكان نتيجة هذا المزج هو الشعب المصري الإسلامي تمثل فيه خصائص العرب والمصريين ، وخضع هذا الشعب لعوامل الشخصية المصرية والبيئة المصرية وظهر ذلك واضحاً في تفكيره وفي أدبه .

وقد كان لعلماء مصر أثر في غيرهم من العلماء ، فقد اعتمد كل المؤرخين في حديثهم عن مصر على ابن عبد الحكم و محمد بن زكريا الغلابي و عمار بن وسيمة المصري والسكندي و ابن زولاق وغيرهم من مؤرخي مصر ، وأخذ فقه الشافعى عن المصريين كما كان أجل أصحاب مالك وتلاميذه من أهل مصر ، وعن محدث مصر روى البخارى ومسلم والنمسانى وغيرهم ، وعن علماء مصر أخذ علماء الأندلس والمغرب العلوم الإسلامية والعربية ، فصر إذن كانت عظيمة الحظ من الحياة العقلية وساحتها الحياة الأدبية من شعر ونثر ، ولكن الحياة الأدبية في مصر استغرقت زمناً طويلاً حتى ازدهرت ولا غرابة في ذلك ، فاتصال مصر بعد الفتح الإسلامي وتطور الحياة فيها لم يأت دفعة واحدة ، فقد كانت مصر مسيحية الدين فأصبحت إسلامية ، وكانت يونانية وقبطية اللغة فأصبحت عربية ، وكل هذا احتاج إلى زمن طويل حتى استقر هذا التطور وتم امتزاج العرب بالمصريين ، ومع ذلك فقد ظهرت بوأكير الحياة الأدبية المصرية إبان هذا الاتصال والتطور مما بشر بازدهار حياة

أدية خصبة ابتداء من العصر الطولوني ، وبدأ النضوج الأدبي واستمر في العصر الفاطمي وما يليه .

وهذا الكتاب بحث من أبحاث أرجو أن أوفق إلى إتمامها وهي البحث في الأدب المصري الإسلامي منذ دخول العرب مصر إلى الآن ، فقد تحدثت في هذا الجزء عن تطور مصر في عصر الولادة أي من الفتح الإسلامي إلى دخول الفاطميين ، وهو عصر غامض أشد الغموض ، والمصادر التي بين أيدينا قليلة والنصوص متفرقة مبعثرة ، ومع ذلك فقد استطعنا استخلاص ما يمكن استخلاصه ، وتحدثنا عمما أمكننا الحصول عليه ، أما الجزء الثاني من هذا الكتاب فسيكون عن « أدب مصر الفاطمية » .

وسنرى كيف أصبحت إلى مصر الزعامة الأدبية والفكرية في العالم الإسلامي وكيف استطاعت مصر أن تنهض بهذه الزعامة منذ العصر الفاطمي إلى الآن .

وهذا البحث قديم فقد كتبته لأول مرة سنة ١٩٣٤ وتقدمت به إلى كلية الآداب بالجامعة المصرية — إذ ذاك — وحصلت به على درجة الماجستير في الآداب مع مرتبة الشرف ، ولما عد إلى بتدریس الأدب المصري بكلية الآداب قدمته للطباعة سنة ١٩٣٩ بعد تغيير بعض فصوله وبعض آرائه ، والآن أقدمه للطباعة مرة ثانية وقد أضفت إليه بعض آراء جديدة ليست في الطبعة الأولى .
(وبعد) فقد قدمت شكرى في الطبعة الأولى إلى أساتذتي الأجلاء الذين أعنوني في هذا البحث منذ بدأت كتابته ، وليس

لى الآن إلا أن أكرر لهم شكري الحالص ، فلا يزالون خير عون
لى في أبحاثي التي أكتتبها . وأخص بالشكر أستاذى الأكبر الدكتور
طه حسين بك ، الذى يوالىنى برعايته وتوجيهه ويشملنى بعطشه
وعنايته ، فهو أول من نادى بدراسة الأدب المصرى ، وعمل على
إنشاء كرسى الأدب المصرى بكلية الآداب ، وهو الذى دفعنى
ووجهنى إلى هذه الدراسات ، فالفضل كله منه وإليه ، ولست
أملك ما أوفيه حقه فالله تعالى نسأل أن يجزيه عن تلاميذه
أحسن الجزاء .

محمد طه حسين

فهرس الكتاب

الباب الأول : نظور الادب واللغة في مصر

صفحة

١	الآداب بمصر قبل الفتح الإسلامي
١٠	مكتبة الاسكندرية
١٢	قبائل العرب بمصر
٢٦	الصراع بين اللغات : اليونانية ، القبطية ، العربية

الباب الثاني : في الحياة العقلية

٣٥	الفصل الأول : المدارس الدينية
٣٧	الحديث
٣٨	عبد الله بن وهب والمدرسة المالكية
٤٥	البيت بن سعد
٥١	المدرسة الشافعية
٦١	المدرسة الحنفية
٦٤	التصوف في مصر
٦٨	الفصل الثاني : اللغة والتاريخ
٦٨	النحو واللغويون
٧٤	المؤرخون
٧٦	بني عبد الحكم
٨٨	ابن الديبة وكتاب المسكافاة

الباب الثالث : كتاب الرسائل والأشاء

٩٦	الفصل الأول : قبل الطولانيين
١٠١	الفصل الثاني : ديوان الأشاء في مصر الطولوني والأخيدى

الباب الرابع : في الشعر

صفحة

الفصل الأول : من الفتح الإسلامي إلى سقوط الدولة الأموية	١٢٥
الفصل الثاني : من قيام العباسيين إلى دخول ابن طولون	١٤٤
أثر الفتن في الشعر	١٤٩
فتنة المصيبة العربية	١٥٩
الفتن بين العرب والمصريين	١٦١
أثر حسنة خاق القرآن	١٦٢
بعض أغراض الشعر	١٧٠
الشعراء الواحدون	١٨٤
أبو نواس في مصر	١٨٦
شعراء مصريون راحلون	٢٠٠
ماني المؤوسس	٢٠٨
لحنة عن أشهر شعراء في ذلك العصر :	
سعید بن عفیر	٢١٠
المعلم الطافی	٢١٣
الجمل الأکبر	٢١٥
الفصل الثالث : الشعر في عهد الطولانيين والأخشيديين	٢١٢
أثر المأهول في الشعر	٢٣٧
الطبيعة في الشعر المصري	٢٤٧
أغراض أخرى للشعر	٢٥١
الشعراء الواحدون	٢٥٤
المتنبی في مصر	٢٥٤
الناشئان الأکبر والأصغر	٢٦١
كشاجم	٢٦٣
لحنة عن أشهر شعراء ذلك العصر :	
ابن جدار	٢٦٧
منصور الفقيه	٢٧٠
خاتمة	٢٧٦

الباب الأول

تطور الأدب واللغة في مصر

١ - الأدب بمصر في الفتح الإسلامي :

كان الحكم الروماني في مصر يتباين بالظلم والفساد ، وكانت الحياة في مصر حياة شعب مجرد من كل حقوقه ؛ فالمدينة المصرية العتيدة التي كانت إبان حكم الأسرات الفرعونية ، والتي انتقلت إلى أيدي البطالسة خاولوا البقاء عليها ؛ جاءت إلى أيدي الرومان فأضاعفوها في مصر ولم يعملا على إحياء مدينة أخرى .

هذا الفساد الذي لحق جميع مراقب الحياة في مصر ؛ امتد إلى مدرسة الإسكندرية التي حافظت على تراث الفلسفة والأداب اليونانية طوال عصر البطالسة ، وفيها نشأ عدد كبير من الفلاسفة والمفكرين والأدباء . ولكن إبان الحكم الروماني ضعف أمرها واضطحل شأنها ، وهجرها أكثر تلاميذها لما كان ينتابهم من ظلم الحاكمين ، ولا سيما بعد أن دخلت الديانة المسيحية مصر خسرت مدرسة الإسكندرية بعض عناصرها الأساسية . وبعد أن انتشر الدين المسيحي في مصر اشتد الجدل بين المسيحيين والوثنيين ، فكان كل فريق ينتصر لدينه ولو بحد السيف ، فكان نتيجة هذا الصراع الدامي العنيف خيراً على الأدب ، ذلك أن الوثنين هاجم سرعة انتشار المسيحية في مصر

فعملوا على تقوية منزلتهم الأدبية بتصنيع عدد كتبهم بالنسخ والتأليف ، وكانت خزان كتبهم بالاسكندرية تحوى مؤلفات اليونانيين والمصريين ، خصصوا طائفه من النسخ لكتابه ما يملئه المؤلفون ، وأخرى لنسخ ما أمكن العثور عليه من مخطوطات القدماء^(١) ولكن هذه النهاية لم تدم طويلا لأن الصراع بين الوثنيين واليسوعيين كان عنيفاً قاسياً فكثيراً ما هدمت دور العبادة وحرقت الكتب وخربت المدارس ، وأعدم العلامة ، حتى إذا كانت سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة للميلاد ، انقض المسيحيون بقيادة ثيوفيليس على السراي يوم ، حيث جامعة الاسكندرية ومكتبتها ، فخطموا كل شيء في طريقهم ، لأنهم كانوا يرون أن الجامعة وما بها من كتب مظهر من مظاهر الوثنية القديمة وأثر من آثارها ، ومنذ هذا التاريخ لم تنهض مدرسة الاسكندرية ولم تبلغ منزلتها القديمة . كانت مدرسة الاسكندرية في دورها الثانى قد اتجهت إلى العلوم العقلية ، فكانت مضماراً للابحاث الفلسفية والدينية ، فتأثرت الفلسفة بالدين وتأثير الدين بالفلسفة ، وساعد على نشاط هذه الابحاث هذا الجدال الذى كان بين الوثنيين واليسوعيين من ناحية ، ثم ما نشأ من خلاف بين المسيحيين أنفسهم عن طبيعة المسيح ، فاضطر المسيحيون إلى أن يستعينوا في جدالهم بالفلسفة والمنطق ، وفي الاسكندرية اختلطت الديانة اليهودية بالتعاليم اليونانية القديمة فأدى هذا المزج إلى ظهور نوع جديد من الفلسفة ازداد بانتشار المسيحية . هذا اللون الجديد

(١) تاريخ الأمة الفرعونية (طبعة مصر سنة ١٩٠٠) ص ٥٨ وما بعدها .

نلسه في مذهب الغnostية والأفلاطونية الحديثة ويهودية فيلون .
كادت هذه المذاهب الفلسفية الجديدة أن تأتي ثمرتها في خلق نهضة
فكيرية بالاسكندرية وغيرها من مدن الإمبراطورية الرومانية ، فقد
رحل علاؤها يدعون إلى هذه المذاهب ووفد إلى الاسكندرية عدد
كبير من طلبة العلوم الفلسفية حتى كانت الاسكندرية في هذا الوقت
أكبر موطن للفلاسفة والمفكرين^(١) ولكن هذه النهضة لم
تدام طويلا .

ومصر وإن كان زمامها يد الرومان ، فإننا نجد لغة العلم
والمتعلمين بها هي اللغة اليونانية ، فقد استطاعت هذه اللغة أن تحيي
بعصر وتحتفظ لنفسها بالمنزلة الأولى بجانب اللغة المصرية ، بل نرى
اللغة اليونانية تؤثر في اللغة المصرية تأثيراً قوياً ظهر في استعمال
المصريين للحروف اليونانية وفي هذه الألفاظ اليونانية الكثيرة التي
نجدوها في اللغة المصرية التي تعرف باللغة القبطية ، بل كانت اللغة
اليونانية هي اللغة الرسمية بمصر^(٢) وتذهب مدام يوتشر إلى أن الوالي
الروماني كان يصدر نشراته للمصريين يصف فيها حكمه للبلاد
وكانت هذه النشرات باللغة اليونانية ، وأن الولاة الرومانيين كانوا
يعتمدون أنفسهم بإضافة لقب يوناني إلى أسمائهم^(٣) ، معنى هذا كله
أن اللغة اللاتينية لغة الرومان لم تنتشر بين المصريين ، في حين أن
اللغة اليونانية والآداب اليونانية كانت قوية منتشرة ، وقد أدى ذلك

(١) تاريخ الأمة القبطية ص ٥٨ .

(٢) تاريخ الأمة القبطية ص ٤ ٢٣٤ .

Milne : A History of Egypt Under Roman Rule. (٣)
(London, 1913) P. 15

إلى أن بعض الولاة من الرومان اضطر إلى أن يصنع كتاباً يحذقون اللغة القبطية ، وكان بعض هؤلاء الكتاب مؤلفات باليونانية مثل لوسيانوس صاحب محاورات الموق (١) .

وكان بمصر شعراء أنشدوا شعرهم باليونانية ، ومنهم من حاول تقليد شعراء اليونان القدماء ، فبعضهم حاكي هوميروس ، وأنشد على نمط الإلياذة ، وكتب أخيليوس تاتيوس وهو من شعراء مصر في القرن الرابع للبلاد عدة روايات خيالية ممتعة (٢) وشاهد القرن الخامس الميلادي الشاعر سيروس الأخيمني ، صديق إيدوشيا زوجة الامبراطور ثيودوسيس الثاني والذى تقلب في مناصب الدولة حتى صار قائداً لجيش مصرى ، ثم اعتزل المناصب الحكومية ورحب في خدمة الدين المسيحى فعين أسقفاً لأحدى الكنائس ، كان هذا الرجل شغوفاً بالشعر وإن شاده و يعد من أكبر شعراء مصر في ذلك القرن (٣) وفي القرن السادس ظهر شاعر مصرى من طيبة هو كريستودورس ولا تزال قصائده تحفظ في الكتاب الخامس من منتخبات الأشعار اليونانية ، ويقال إن هذا الشاعر وجد صعوبات في تدوين أشعاره وترتيبها لقلة المتعلمين (٤) . ومن نبغوا في العلوم بمصر في ذلك الوقت عالم اسمه ديسقوريدس ألف كتاباً في علم النبات وحلاه بكثير من الصور والنقوش ، ولا يزال هذا الكتاب من نفائس مخطوطات مكتبة

(1) Quatremère : Recherches Sur la langue et la Litterature de l'Egypte (paris 1808) P. 5.

(2) Butcher : The Story of Egypt London 1867. v. I. P. 356.

(3) بوتوشري ج ٢ من ٩ .

(4) المرجع نفسه ج ٢ من ٧٩ .

فينا^(١). إذن نستطيع أن نقول إن الآداب بمصر قبيل الفتح كان أدبًا مصرًا، باللغة اليونانية، وإن اللغة الرسمية كانت اليونانية، وإن لغة الثقافة كانت اليونانية.

ولكن بجانب هذه الآداب اليونانية وجد بمصر آداب سريانية فقد كان لهؤلاء الفرس في القرن السابع الميلادي، وغزوهם للشام أثر في وجود هذه الآداب بمصر، ذلك أن كثيراً من علماء السريان وأدبائهم هاجروا إلى مصر خوفاً من الفرس، ونقلوا معهم كتبهم وآرائهم، ومن قبل هذه الهجرة كان بالاسكندرية بعض علماء من السريان يدرسون علوم الطب بالسريانية، فكثرت الآداب واللغة السريانية بمصر، ولا سيما في الأديرة التي هاجر إليها السريان. وفي القرن السابع قام بولس أسقف بلاط بترجمة نسخة الترجمة السبعينية من الكتاب المقدس إلى اللغة السريانية وظللت هذه الترجمة في وادي النطرون حوالي ألف عام وهي الآن بالمتحف البريطاني^(٢) وكتب أهern القس مقالاته الطبية التي يجمعها كتاب «كتناش في الطب باللغة السريانية» وترجم هذا الكتاب إلى العربية ماسر جوبيه بأمر الخليفة عمر بن عبد العزيز، فكان من المراجع الهامة للعرب في علوم الطب. ويحدثنا المؤرخون عن الطبيب سرجيوس من رجال القرن السادس الميلادي، أنه قد أتقن العلوم والأداب السريانية وغيرها من الأطباء^(٣) ومن الأطباء الذين شاهدوا الفتح الإسلامي

(١) ينشر ج ٢ ص ٥ .

(٢) تاريخ الأمة الفاطمية طبع مصر سنة ١٩٠٠ ص ٦٢ .

(٣) Butler : The Arab conquest of Egypt P. 93.

وعاش حتى أوائل الحكم العربي أرياسيوس، وله مصنفات في الطب
وكان يعرف بصاحب الكناش.

وبجانب ذلك كله نرى مصر أدبها القومي أو الشعبي الذي أنتجه الشعب المصري بلغتهم المصرية مثلاً فيما خلفه رجال الكنيسة باللغة القبطية، فقد صارت اللغة القبطية إذ ذاك لغة الدين في مصر، وأبطل المصريون استعمال اللغة اليونانية الدخيلة في الكنائس المصرية والمجتمعات، وحاول المصريون أن يرفعوا من شأن لغتهم، فترجموا إليها كثيراً من الكتب منها ترجمة العهد الجديد ترجم إلى اللهجات القبطية الثلاث، وترجموا جميع الطقوس الدينية، وكتبوا ترجم البطاركة والشهداء وألفوا كتاباً في التاريخ العام^(١) ولم يبق لنا من ذلك كله إلا النذر البسيط، ولعل أهم هذه الكتب كتاب في التاريخ وضعه يحيى (أو يوحنا) النقيوسي كتبه في أواخر القرن السابع الميلادي، وحضر الفتح العربي وتحدث عنه، ويعتبر كتابه من أقوى المصادر التاريخية عن الفتح، ولم يبق من هذا الكتاب إلا الترجمة الخبشية لجزء منه. ويقول بتار: «لاتستطيع اللغة القبطية أن تفخر بشعراء مجيدين أو مؤرخين ممتازين أو فلاسفة أو أحد من رجال العلم الفحول، بجل الآداب القبطية دينية لقلة ما كان لدى الأقباط من علم وفصاحة، مما سبب إهمال لغتهم وعدم انتشارها في العالم، مع أنه لا تكاد توجد لغة أقدم من لغتهم أو أغرب منها أو ذات تاريخ مجيد كتار يحيى»^(٢)، وهذا الرأي صحيح إلى حد ما ويخيل إلى أن

(١) يوتشرج ٢ ص ١٧ .

Butler : The Ancient Coptic Churches of Egypt. v. I. P. 247 (٢)

العقيدة الدينية كانت تجربى في عروق المصريين منذ القدم ، فأثار قدماء المصريين ما هي إلا مظاهر من مظاهر الديانة المصرية القديمة ، وكل ما كان بمصر القديمة من علم وفن كان من أجل الدين ، فمدينة قدماء المصريين مدينة فنية ولسكنها دينية قبل كل شيء ؛ بخلاف المدينة اليونانية التي كانت أدبية فلسفية . وفي مصر التفت الحضارات وامتنجتا ، وظل المصريون يميلون إلى الدين وما يتعاقب به وتركوا العلوم الفلسفية إلى من وفده على بلادهم ، ومع ذلك تأثر هؤلاء بعلم المصريين إلى الدين فظهرت الآراء الفلسفية الجديدة التي تحدثنا عنها . وقد يكون من أسباب قلة ظهور فلاسفة وأدباء في الأدب القبطي أن المذهب اليعقوبي بمصر لم يواجه من المعارضات الدينية ما واجهه المذهب النسطوري في آسيا مثلا ، لهذا نرى النساطرة ينقولون السكتب الفلسفية والعلمية والدينية إلى اللغة السريانية ، ولا نجد هذه الترجمة عند المصريين ، فلاغرابة إذا وجدنا المدرسة الفلسفية الوثنية بالاسكندرية تتفهقر في القرن الخامس الميلادي بينما تقوى المدرسة اللاهوتية .

فتح العرب مصر سنة ٢٠ هجرية (على خلاف في هذا التاريخ) فكان هذا الفتح إيداه بأضعف الأداب اليونانية واللغة اليونانية من مصر ثم محوها نهائيا ، وظللت الأداب القبطية واللغة القبطية . حتى إذا كان القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) نجد الأسقف سويرس ابن المفعع يقول في مقدمة كتابه سير الآباء البطاركة

، استعنت بن أعلم استحقاقهم من الأخوة المسيحيين وسألتهم نقل ما وجدناه منها (أى من سير الآباء المسيحيين) بالقلم القبطي

واليوناني إلى القلم العربي الذي هو الآن معروف عند أهل الزمان
يأقليم ديار مصر لعدم اللسان القبطي واليوناني من أكثرهم^(١).
أى أنه في القرن الرابع للهجرة كادت تمحى من مصر اللغتان اليونانية
والقبطية ، وإن كانت قد ظلتا بمصر مدة طويلة بعد الفتح ، وهذا ما يقوله
ابن النديم في حديثه عن خالد بن يزيد بن معاوية أنه أمر بإحضار
جامعة من فلاسفة اليونان من كان ينزل مدينة مصر ، وقد تفحص
بالعربية « وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة واللسان من اليوناني والقبطي
إلى العربي ، وهذا أول نقل كان في الإسلام من لغة إلى لغة »^(٢).
ويقول بتلر « إنه كان في كل كنيسة كتاب باللغة القبطية في حياة
الآباء يقرؤه القسس كل صباح ولا يسمح لأحد أن يقتنيه ، وقد
ترجم إلى العربية كثير من هذه الكتب والقصص التي في آخرها^(٣).
أما مدرسة اللاهوت بالإسكندرية فظللت بعد الفتح تستقبل
طلابها مصريين وأجانب . ففي سنة ثمانين وستمائة ميلادية رحل
إليها يعقوب الرثاهوى لاتمام دراسة الآداب اليونانية والسريانية ،
ويقول بتلر: «من الثابت أن الإسكندرية كانت مركز الثقافة والأدب
في العالم في زمن الفتح ، ومع أن أكثر العلوم بها كانت دينية فإنهاجد
 شيئاً من العناية بالأداب القديمة ، وعدة موضوعات عن الأخلاق
المسيحية المبنية على الأفلاطونية الحديثة »^(٤) ولكن هذه المدرسة

(١) سير الآباء البطاركة لابن المقفع (طبع بيروت) ص ٦.

(٢) الفهرست ص ٣٣٨ طبع المطبعة الرحمانية .

Butler : The Ancient Coptic Churches of Egypt P. 96. (٣)

Butler : The Arab Conquest of Egypt. P. 96. (٤)

أصابها ضعف بعد الفتح وتفوقت عليها مدارس أنطاكية وحران وجندى سابور وغيرها ، ولست أدرى كيف يقول ابن أبي أصيبيعة : « وظلت مدرسة الأسكندرية مركز التدريس في الشرق إلى أواخر القرن الأول حتى نقله عمر بن عبد العزيز إلى مدرسة أنطاكية »^(١) ذلك أن مدرسة الأسكندرية ظلت بعد الفتح العربي واتصل بها المسلمين في العهد الأموي فاصطفن الأسكندراني يترجم كتاباً للخالد ابن يزيد وابن أبي جابر الطبيب الأسكندرى يعتمد عليه عمر بن عبد العزيز في صناعة الطب ، وابن أبي جابر هذا كان يتولى التدريس بالإسكندرية وأسلم على يد عمر بن عبد العزيز ، وكذلك اتصل العباسيون بمدرسة الأسكندرية فقد مررت جارية الرشيد ، فأرسل في طلب الطبيب المصرى بليطان بطريق الأسكندرية ، وفي أيام أحمد بن طولون كان سعيد بن توفيق يطبه ، وهكذا كما كان لمدرسة الأسكندرية أثر في الثقافة الإسلامية ، ولا سيما في علم الطب الذي ظهر عند المسلمين مشبعاً بتعاليم الأسكندريين ، فمؤلفات بولس الإيجي ، وكان في الإسكندرية في أوائل أيام الفتح مما اعتمد عليها أطباء المسلمين .

كذلك كانت مدرسة الأسكندرية النواة التي استمد منها العرب علم الكيمياء أو علم الصنعة كـ سماه كتاب العرب ، فكل من تحدث عن هذا العلم يذكر مصر وآثارها على سائر من اشتغل به ، جاء في الفهرست : « والكتب المؤلفة في هذا الشأن (أى الصنعة) أكثر وأعظم من أن تخصى لأن المؤلفين لها تتحولون عنها ، ولأهل مصر

(١) عيون الأنبياء ج ١ ص ١١٦ .

في هذا الأمر مصنفون وعلماء، وأصل الكلام في الصنعة من ثم أخذوها^(١) وقد ظل هذا العلم بمصر طويلاً بعد الفتح وشغف به كثير من المصريين، وقد رأينا كيف اعتمد خالد بن يزيد على بعض المصريين ليترجموا له كتب الصنعة، ومن أشهر علماء مصر في هذا الفن روشم فقد ألف كتاباً تنافس المسلمين في الظفر بها، وقيل إن ذا النون المصري كان له أثر في الصنعة، وإنه ألف كتاب الثقة في الصنعة^(٢) ولا ندرى مبلغ هذا القول من الصحة.

ومع ذلك كله نقول إن مدرسة الإسكندرية ضعف أمرها أيام العرب وأخذت الآداب والعلوم اليونانية والقبطية تضمحل حتى زالت وحل محلها الآداب العربية.

٢ - مكتبة الإسكندرية :

ذكر بعض المؤرخين أمثال عبد اللطيف البغدادي في كتاب الإفادة والاعتبار^(٣) والقسطنطي في أخبار العلماء بأخبار الحكماء وابن العبرى وجورجى زيدان فى تاريخهما؛ أن عمرو بن العاص أحرق مكتبة الإسكندرية العتيدة التي أنشأها بطليموس الثاني، وقد نقش هذا الخبر كثير من المستشرقين والمؤرخين.

فالمؤرخ جييون نقش هذه المسألة يأبهاز شديد وقد فصّلها، وقال الأستاذ رينوادو Renaudat «إن بالقصة عنصراً من عناصر الوضع».

(١) المهرست من ٥٠٢ . ومواب العبارة فيها يظهر «وأهل الكلام لخ» .

(٢) نفس المصدر من ٥٠٤ .

(٣) نفس المصدر ٢٨ .

كأرفتها الأستاذ جوستاف لو بون في كتابه الحضارة العربية ،
وتحدى الأستاذ بتلر في كتابه « فتح العرب لمصر » حديثاً طويلاً
تلخصه فيما يأتي :

- ١ - أن هذه القصة - قصة إحرار العرب لمكتبة الإسكندرية -
لم تظهر إلا بعد نيف وخمسين عام ، فلم يذكرها المؤرخون الذين
سبقوها البغدادي والقطناني وأبا الفرج الملطي .
- ٢ - أن يحيى النحوي الذي تذكر القصة أنه العامل الأكبر
فيها توف قبل الفتح العربي .
- ٣ - أن مكتبة الإسكندرية الكبرى حرقـت في عهد يوليوس
قيصر وأن المكتبة الصغرى التي كانت بالسرابيوم نقلـت أو أتلفـت
قبل سنة ٣٩١ ق . م فـلم تـوجـد مـكتـبة بـالـعـنىـ الصـحـيـحـ أثناء
الفـتحـ العـربـيـ .
- ٤ - لو صـحـ أنـ العـربـ أـحرـقـواـ مـكتـبةـ الإـسكنـدرـيـةـ ،ـ لـماـ غـفـلـ
عن ذـكـرـ ذـلـكـ المؤـرـخـ حـنـاـ الـنيـقـوـسـيـ .ـ وـ خـتـمـ بـحـثـهـ بـأنـ مـارـوـاهـ أـبـوـ الفـرجـ
الـملـطـيـ لـايـعـدـوـ أـنـ يـكـونـ قـصـةـ خـراـفـيـةـ لـيـسـ هـاـ أـسـاسـ تـارـيـخـيـ .ـ
وـ ذـهـبـ الأـسـتـادـ سـيـديـوـ Sédillotـ إـلـىـ أـنـ هـذـهـ قـصـةـ وـضـعـهاـ
كتـابـ مـعـادـونـ لـلـعـربـ وـلـلـاسـلـامـ إـبـانـ الـحـرـوبـ الـصـلـيـبيةـ ،ـ وـ لـكـنـهـ لـمـ
يـحـدـثـناـ عـنـ كـاتـبـ بـعـيـنهـ .ـ

وكذلك نشر الأستاذ جريفي بحثاً طويلاً باللغة العربية في جريدة
الأهرام بعد ٢١ يناير سنة ١٩٢٤ ختمه بقوله: إن جميع المستشرقين

الذين بحثوا حريق مكتبة الأسكندرية خرجوا بآبحاثهم إلى أن هذه القصة خرافة من خرافات القرون الوسطى .

وقد يكون سبب هذه الخرافة هو خلط علماء المسلمين بين حنا النحوى وحنا التخوى (أو النيقوسى) فالأول حنا النحوى أو الجرامatic أو الفيلوبونى وجد بالأسكندرية وله مؤلفات سردها مؤرخو العرب ، وكان يعلم الناس بالأسكندرية في حدود سنة ٤٨٠ م وعمر حتى أوائل القرن السادس الميلادى وله عدة كتب منها شرح على الأنطولوجيا لارسطو وكتاب النفس وشرح كتاب الحيوان لارسطو وكتاب الرد على نيقو ما خوس في الأخلاق وهذه الكتب كلها عرفها العرب ونسبوها إلى يحيى النحوى (ترجمة للجرامatic) وأخطأ مؤرخو العرب في قصة مقابلته لعمرو بن العاص لأنه توفي قبلبعثة النبي ، وجاء هذا الخطأ من أنه كان في مصر في وقت الفتح مؤرخ عالم كانت له ثقافة يوانانية واسعة هو يحيى أو حنا التخوى أسقف نيقوس ، وثبت أن هذا الرجل قابل عمرو بن العاص وأنه كان ذا مذهب خاص اضطهد بسببه ، وهو صاحب تاريخ مصر الذي أشرنا إليه قبل ذلك ، فتشابه رسم الحروف (النحوى والتخوى) هو الذى جعل علماء المسلمين يقولون إن الأول هو الذى قابل عمرو بن العاص .

٣ - فتاوى العرب بمصر :

لا نغالى إذا قلنا إن مصر اتصلت ببلاد العرب منذ عهد بعيد جداً، بل ذهب علماء الجيولوجيا إلى أن صحراء مصر الشرقية من

وادي النيل حتى البحر الأحمر تعتبر جزءاً من بلاد العرب وذهبوا إلى أنه في العصور الجيولوجية القديمة كان الجزء الجنوبي الغربي من بلاد العرب يتصل بأفريقيا وكان البحر الأحمر عبارة عن بحيرة ، ويقول الأستاذ دى مورجان : « كانت صحراء مصر الشرقية جزءاً من بلاد العرب ، والآن تمنع منطقة سينا هذه الصحراء الشرقية من أن تنفصل نهائياً عن العرب » (١) .

وفي عصور التاريخ اتصلت مصر ببلاد العرب عن طريقين أو لها : طريق النيل إذ كانت السفن تسير في النيل إلى موضع فقط الحالية ، ثم تسير القوافل في طريق وادي الحمامات حيث المناجم والمحاجر التي اكتشفها قدماء المصريين وينتهي هذا الطريق بالقرب من عيذاب والقصير ثم استخدم المصريون البحر الأحمر للإتصال بالموانئ العربية وأول دليل قاطع لما قام به المصريون في البحر الأحمر كان في الأسرة الخامسة حين قام الملك ساہور حوالي سنة ٢٧٤٣ ق . م برحلته إلى شواطئ البحر الأحمر وترك صوراً لأسطوله وتقريراً عن أعماله على أسوار معبده ، وفي وادي الحمامات عدد كبير من النقوش يتحدث عن رحلات المصريين في البحر الأحمر ويقول المؤرخون إن الملاحة في البحر الأحمر لعبت دوراً هاماً في التجارة ، ولا سيما تجارة البخور التي كان يطلبها المصريون من العرب لاستخدامها في التحنيط وفي الشعائر الدينية ، والقدماء حتى عصر هيرودوت قالوا : إن جزيرة العرب وحدها هي التي تنبت العطور ، وقد

(١) كتاب الشرق قبل التاريخ الفصل الثالث

حدثنا الأستاذ نلينو : أن قدماء المصريين كانوا على اتصال دائم بجنوب بلاد العرب التي تعد أكثراً البلاد إنتاجاً للبخور ،^(١).

أما الطريق الثاف الذي اتصلت مصر عن طريقه ببلاد العرب فهو طريق سينا وهو طريق قديم جداً وإذا تصفحنا تاريخ مصر نجد أن المحور الأساسي الذي كانت تدور عليه سياسة الأسرة الثامنة عشر هو تأمين البلاد من محاولة غزو القبائل السامية ويدلنا على ذلك غزو سوريا أيام منحتب الأول ، وأن تختتمس الأولى أعلنا أن الفرات هو حدود مصر الشرقية ، وكان غزو البلاد الشمالية عن طريقين طريق البحر الأبيض وطريق سينا البري ، وكان طريق سينا معروفاً لدى المصريين في عهد الأسرة الأولى بسبب وجود معدن النحاس ، وفي عهد الأسرة الثالثة زار زoser سينا وعمل على إخراج النحاس وأحجار الزمرد ونقشت زيارته في وادي المنارة شمال مدينة الطور الحالية ، وفي الأسرة الرابعة غزا سفرو شبه الجزيرة ونقش أخبار حملته على الأحجار ، وبني حصوناً ليلاجأ إليها عمال المناجم من هجمات قبائل العرب .

وفي الطرف الشرقي لشبه جزيرة سينا نجد تل القلعة أو شربة الخادم — ولا أدرى لم سميت كذلك — وفي قمة هذا التل نجد معبداً مصرياً لها تور وبه عدة نقوش يرجع تاريخها إلى الأسرة الحادية عشرة وقد وسع المعبد في أيام الأسرة الثامنة عشرة ، وبالقرب منه في وادي نصب وجد المصريون مناجم أخرى للنحاس وبني المصريون هناك

(١) محاضرات الأستاذ نلينو عن تاريخ جنوب بلاد العرب

معابد للعال كا عثر على كثير من النقوش المصرية شرق شبه جزيرة سينا ، وأكثر هذه النقوش أقامها موظفو المناجم الذين أرادوا أن تسجل أسماؤهم وأعمالهم ، وذهب بعض المؤرخين إلى أن الهاكسوس من قبائل عربية . وضرب بعض المصريين في الصحراء الغربية حتى ذهب بعض المؤرخين إلى أن المصريين أسسوا مستعمرة مصرية في بلاد العرب مكان يثرب أى المدينة المنورة .

إذن كانت الصلة بين مصر وببلاد العرب قديمة فرضتها طبيعة الجوار بين البلدين فنشأت هذه الصلات بينهما .

وبجانب هذه الصلة التجارية ، كانت هناك صلة علية فالأستاذ M. Matter^(١) يحكي أن تاجرًا من تجارت الـ "سكندرية" في القرن السادس الميلادي يدعى قزمان كان محبًا للأسفار جريأً على المخاطرة بمحبًا للإطلاع على أحوال البلدان المجاورة قام بعدة رحلات علية إلى بلاد العرب والهند ووضع عدة مؤلفات عن هذه البلاد ولكن مؤلفاته فقدت ولم يبق منها إلا مقتطفات قليلة متفرقة . ومؤرخو الكنيسة المسيحية يقولون إن الرهبة نقلت من مصر إلى بلاد العرب والشام ، ويذكرون بين الرهبان الذين كان لهم أثر واضح في نشر المسيحية ببلاد العرب الزاهي هيلاريون وهو أحد تلاميذ مدرسة الـ "سكندرية" ، وسافر إلى غزة ودعا إلى الرهبة فأجابه نحو ثلاثة آلاف رجل فرقيهم في فلسطين وسوريا وببلاد العرب وتوفي سنة ٣٥٦ م و كذلك يتحدث مؤرخو المسيحية عن الناسك موسى المصري الذي عين أسقفًا لمسيحيي العرب

(١) في كتابه Histoire de l'école d'Alexandrie

سنة ٣٧٢ م وذهب بعضهم إلى أن نسطور صاحب المذهب النسطوري
نفاه الأمبراطور ثيودوسيس الثاني إلى بتراء عاصمة بلاد النبط ثم نقله
إلى مصر ، ولكن استطاع أن يهرب في صحراء طيبة ومنها إلى بلاد
العرب سنة ٤٤٠ م وقيل إن مذهبة انتشر في مصر وببلاد العرب ،
ولا سيما بعد الاضطهاد الذي لحق بأتباعه .

وفي سيرة ابن هشام أن قريشاً حين بنت الكعبة قبل الرسالة
بخمس سنين استعاناً برجل قبطي نجار كان بمكة ، وشرح السيرة
يقولون إن اسمه باقوم ، وجاء في كتب الطبقات أن جبر بن عبد الله
القبطي كان أحد الصحابة الذين أخذوا عن النبي دينه ويقول السيوطي
إن قبط مصر يفخرون بأن منهم من صحاب النبي .

وكذا ذهب مصريون إلى بلاد العرب جاء عرب إلى مصر فيحدثنا
صاحب الأغاني أن بعض بطون خزانة خرجوا في الجاهلية إلى
مصر والشام لأن بلادهم أجدبت . وفي أوائل القرن السابع الميلادي
أى حوالي سنة ٦١٦ م غزا الفرس مصر ويقول الأستاذ شارب : إن
الجنود الذين فتح بهم كسرى مصر كان بعضهم من أهل الشام وبعضهم
من العرب ^(١) ، وذهبت مسر بو تشر ^(٢) والأستاذ ميلن في كتابه ^(٣)
إلى أن جيش الفرس كان مستمدًا من الشام وببلاد العرب ، فلم
يلقو امشقة في حكم مصر ، إذ لعل الأغنياء في مصر كان بينهم
كثير من العرب فرحو بأقربائهم ، ولا أدرى ما الذي

(1) History of Egypt. chapter 21.

(2) Story of The church of Egypt V. I. P. 347.

(3) Egypt under Rom : Rule, P. 114.

بقصده ميلن بهذه العبارة ، ولا من أين أخذها . وهى إن صحت تدلنا على شدة الصلة بين المصريين والعرب .

وفي عهد الخليفة عمر بن الخطاب بعد أن تم له فتح الشام وقبل أن يفتح العرب مصر انتقلت بعض متصرة غسان برئاسة أبي ثور بن عامر بن صعصعة إلى مصر ، وأقطعهم حاكم مصر منطقة تنيس ، وقال المسعودي إن عددهم عشرون ألف رجل ، ولكن بتلر في كتابه فتح العرب لمصر أنقص عددهم إلى ألفين . وروى ابن سحق الأموي في كتابه فتوح مصر أن رئيس الغساسنة ابن عم جبلة ابن الأيم آخر ملوك الغساسنة ، وأنه هرب بماله وأهله بعد أن تم للعرب فتح الشام .

ولما بعث النبي صلى الله عليه وسلم ، أرسل من قبله حاطب بن أبي بلعة رسولاً إلى المقوص عظيم القبط في مصر يدعوه إلى الإسلام فأكرم المقوص الرسول وأرسل معه هدية إلى النبي عليه الصلاة والسلام تقبلاً شاكراً ، وأوصى بالقطط خيراً . وروى عنه أنه قال : « استوصوا بالقطط خيراً ، فإن لهم ذمة ورحماً » قال ابن كثير والمراد بالرحم أنهم أخوا إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام ، أمها هاجر القبطية وهو والد عرب الحجاز الذين منهم النبي عليه الصلاة والسلام وأخوا إبراهيم ابن رسول الله وأمه مارية القبطية من سنا كورة انصنا ^(١) . وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : « أهل مصر أكرم الأعجم كلها ، وأسمحهم يداً ، وأفضلهم عنصراً ، وأقربهم رحماً بالعرب »

(١) النجوم الظاهرة : ج ١ ص ٢٩ (طبعة دار الكتب المصرية)

عامة وبقريش خاصة^(١) وكان بين الأقباط من صحاب رسول الله (صلعم) كجبر بن عبد الله القبطي ، وروى السيوطي عن سعيد بن عفیر أنه قال : « والقبط تفخر بأن منهم من صح النبي (صلعم)^(٢) » ، وجاء ذكر مصر في القرآن الكريم صراحة أو كنایة في أكثر من عشرين موضعاً ، ولم يذكر غير مصر من البلدان بمثل هذا العدد ، فلا غرو إذن أن نرى العرب يعرفون شيئاً عن مصر ، فراحوا يتحدثون عنها ، ويختارون الأحاديث الكثيرة عن عجائبها كما طمع العرب في ثروة مصر ، لهذا بعد أن تم لهم فتح الشام ، جاء عمرو بن العاص إلى مصر ومعه عرب من قبائل مختلفة ، يقال إن أكثرهم من عك ولخم ، ويقال أيضاً إن عددهم لم يزد على أربعة آلاف نفس ، ثم أتبعه الزبير بن العوام بمدد قدر باثني عشر ألفاً ، فلما تم لهم فتح مصر وبني مسجد الفسطاط أمر عمرو جنوده أن يختطوا حول المسجد الجامع كل بحسب قبيلته ، فمن القبائل التي اختطت بالفسطاط وأقامت بها : مهرة وتحبيب ولخم وغسان وغافق^(٣) ومن بني غافق بطن يعرفون بالقرافة سكنوا سفح المقطم ثم تركوا أماكنهم وتفرقوا في البلاد المصرية ، وصار مكانهم مقبرة المسلمين فسميت المقبرة في مصر بالقرافة نسبة إلى هؤلاء القوم^(٤) .
وكان مع عمرو جماعة العتقاء ، وهم جماع من القبائل اعرفوا

(١) التجوم الراهنرة : ج ١ ص ٢٩ :

(٢) حسن الخاضرة للسيوطى : ج ١ ص ١٠٥ .

(٣) خطاط المقربى : ج ٢ ص ٧٦ وما بعدها .

(٤) ابن خالكأن : ج ١ ص ٣٣٨ .

بالصالك ، كانوا يقطعون الطريق أيام النبي صلى الله عليه وسلم فيبعث
في طلبهم وأقى بهم أسرى ، فأعتقهم . وكان بينهم كثير من طوائف
الأزد وفهم ^(١) .

كذلك شهد فتح مصر واحتللت الفسطاط قوم من الفرس هم أبناء
جندبادان عامل كسرى على اليمن قبل الإسلام ، وأسلوا ورغبو في
الجهاد ، ففروا مع عمرو بن العاص إلى مصر ^(٢) كما كان في جيش
الفتح جماعة من الشام عرفوا في مصر بالحراء ، لنزوء الروم بينهم ،
ولكنهم عرب من بَلَى ^(قضاء) وفهم وعدوان وبعض الأزد ،
وكأنوا يسكنون قيسارية وما حولها ، ورغبو في الإسلام قبل واقعة
اليرموك وساروا مع عمرو إلى مصر ، وسموا بالحراء لأن العرب
اعتادوا أن يسموا الموالي من الروم بهذا الاسم ^(٣) .

واشترك في الفتح أيضاً عدد من قبائل مختلفة ، من قريش
والأنصار وخزاعة ومزينة وأشجع وجهينة وثقيف ودوس وليث ،
عرفوا في مصر باسم أهل الرأمة ، ونسبت الخطة إليهم ، لأنهم جماعة
لم يكن لكل بطن منهم من العدد ما ينفرد من الديوان ^(٤) .

أما همدان فلم يقلوا أن يسكنوا الفسطاط ، واختاروا الجيزة
 لهم مقرًا ، وحاول عمرو أن يرجعهم إلى الفسطاط فلم يستطع ،
 فاضطر إلى أن يخاطب الخليفة في شأنهم ، فكتب الخليفة إليه : «كيف

(١) خطط المقربى : ج ٢ ص ٨٨ .

(٢) خطط المقربى : ج ٢ ص ٧٨ .

(٣) خطط المقربى : ج ٢ ص ٧٩ .

(٤) خطط المقربى : ج ٢ ص ٧٦ .

رضيت أن تفرق أصحابك ، ولم يكن ينبغي لك أن ترضى لأحد من أصحابك أن يكون بينك وبينهم بحر لا تدرى ما يفاجئهم ، فلعلك لا تقدر على غيائهم حين ينزل بهم ماتذكره ، فاجتمعهم إليك ، فان أبوا إليك وأعجمتهم موضعهم ، فابن عليه من في المسلمين حسناً ، فبني لهم عمرو بن العاص الحصن بالجizza ، وسكن مع همدان نافع وذو أصبح وطائفة من الحجر ، وبرزوا إلى أرض الحرث والزرع^(١) .

وبعد أن تم فتح مصر رأينا الخليفة عمر يكتب إلى عامل الشام أن يسيّر ثلث من بالشام من قضاة إلى مصر ، فنظر الوالي فإذا بليه تعادل ثلث قضاة فسيرهم إليها ، فانتشروا في البلاد ولا سيما حول أخميم وما يليها ، وتفرقوا على أرض مصر ثم اتفقت هي وجهينة فصار لها من الشرق من عقبة قاو الخراب إلى عيذاب (بالقرب من القصرين)^(٢) .

وكان عمر بن الخطاب يبعث كل عام غازية من أهل المدينة ترابط بالاسكندرية ، وقسم عمرو بن العاص من معه ، فكان يرسل ربع الناس يقيمون ستة أشهر في رباط الاسكندرية ، والربع في السواحل والنصف يقيمون معه ، ولم يختلط العرب بالاسكندرية كما اختلطوا في الفسطاط ، بل كان بها أخاذه ، من أخذ منزلًا نزل فيه هو وبنو أبيه^(٣) . فلما استقامت لهم البلاد قطع عمرو بن العاص من أصحابه

(١) حسن المعاشرة للسيوطى : ج ١ من ٨١ .

(٢) البيان والإعراب المقريزى : ص ٣٧ ، ٣٨ .

(٣) خلط المقريزى ، ج ١ ، ص ٢٦٩ .

لرباط الاسكندرية ربع الناس ، وكانت لثم أعز من في ناحية الاسكندرية .

أخذ العرب يفدون على مصر أثواجًا حتى غصت بهم البلاد ، وكان بين القبائل فضاء من القبيل إلى القبيل ، فلما كثرت الأنداد في زمان عثمان بن عفان وما بعد ، وكثير الناس وسع كل قوم لبني أبيهم حتى كثر البناء والتآم ^(١) ولما ولى معاوية بن أبي سفيان زياد بن أبيه على البصرة ، غرب جماعة من الأزد إلى مصر عام ثلات وخمسين هجرية ^(٢) فنزل منهم نحو مائة وثلاثين . كما كتب معاوية إلى علقة المقطيف عامل الاسكندرية « إني قد أمدتك بعشرة آلاف من أهل الشام وبخمسة آلاف من أهل المدينة » فكان في الاسكندرية سبعة وعشرون ألفاً ^(٣) كما كان بمصر في خلافة معاوية أربعون ألفاً ^(٤) وفي إماراة الوليد بن رفاعة على مصر عام تسع ومائة ^(٥) نزل بنو سليم (وهم من قيس) ولم يكن بأرض مصر أحد من قيس قبل ذلك إلا من كان من عدوان الذين أنزلهم عبد الله بن الحجاج والى الخراج في خلافة هشام بن عبد الملك . — وكان عدد بنو سليم ثلاثة آلاف رجل ، فأنزلهم الحوف الشرقي وأمرهم بالزرع فاشتروا إيلاء و كانوا يحملون الطعام إلى القلزم فأثروا ، ولما بلغ ذلك عامه قوهم تحمل إليهم خمسمائة أهل بيت من الباذية ، فأقاموا سنة فأناهم ألف

(١) ذخوه مصر لابن عبد الحكم : من ١٢٨ .

(٢) خطط المقربى : ج ٢ من ٧٨ .

(٣) حـنـ الـحـاضـرـةـ : ج ١ من ٩٨ .

(٤) خطط المقربى : ج ١ من ١٥١ .

(٥) البيان والاعراب : من ٣١ .

وخمسة بيت من قيس ، حتى إذا كان زمن مروان بن محمد صار بمصر ثلاثة آلاف أهل بيت ، ثم زيدوا إلى خمسة آلاف ومائتين ، ولكرة القيسية بمصر وتجمعهم في الحوف وثراهم العظيم كانوا مصدر فتن وفلاقل ، وكثيراً ما حاربوا الولاة . وكان يحاورهم في الحوف جماعة من صلاح وطارق وهم من جذام ، ولذلك قامت الحروب الكثيرة بين القيسية والبينية ؛ شأنهما في ذلك شأن هاتين الطائفتين في كل الأقطار الإسلامية .

وسكن بنو عقبة وهم ن جذام أيضاً ما بين أيلة وحوف مصر^(١) كما ذهب قوم من جذام ولخ إلى الإسكندرية^(٢) ، وكانت لهم هناك أيام معلومة وقائع مشهورة ولا سيما فتنة ابن الجروي . وكان كل أمير يتولى مصر يأتى اليها و معه عدد من الجنديين العرب كي يتقوى بهم ويقمع بهم الفتنة التي تنجوم في البلاد ، فقد قيل إن حورة الباهرى سار إلى مصر في آلاف من العرب^(٣) ولا أدري تماماً من أي القبائل كان هؤلاء القوم ، وأكبر الضن أنهم من القيسية عشيرة الوالى . وبصعيد مصر أولاد الكنز ، أصلهم من ربيعة وكانوا ينزلون العيامة فقدموا أرض مصر في خلافة المتوكل عام نيف وأربعين ومائتين في عدد كثير ، وانتشروا في البلاد ، فنزلت طائفة منهم بأعلى الصعيد وسكنوا بيوت الشعر في باريها الجنوبية وأوديتها ، وكانت قبائل البجة تشن الغارات على القرى الشرقية

(١) البيان والاعراب المقربى : من ٣١ .

(٢) البيان والاعراب المقربى من ٣٥ .

(٣) خطط المقربى : ج ١ من ٢١١ .

في كل حين ، وخربوا كثيراً من أملاك الأهالي ، فقام الرباعيون
يمنعهم حتى كفوهم ، ولم يلتبشو أن تزوجوا منهم وصارت لهم
مرافق في بلاد البجة واستولوا على مناجم الذهب بها فكثرت بذلك
أموالهم ^(١) . وانتقلت بطنون من قريش إلى الأشمونين وكان بينهم
بني جعفر بن أبي طالب المعروف بالطيار ، وبنو مسلمة بن عبد الملك
ابن مروان وتحالفوا جميعاً وعاشوا سالمين ، والجعافرة اليوم
ينسبون إلى جعفر هذا .

ويقول المقريزى : « وجئنة أكثر عرب مصر ^(٢) ، وهؤلاء كانوا
يسكنون حول أسيوط وما بعدها ، ووقع بينهم وبين بطنون بلي
من الخطوب ما خطب أدى إلى دوام الفتنة بينهما . وفي الفيوم
نزل بنو كلاب ^(٣) ومن منه غرب إلى زفتا سكن سعود جذام ،
وأكثرهم مشياخ البلاد وخفراؤها ولم مزارع وفسادهم كثير ^(٤) .
وانتقلت طوائف من فزاروة إلى الغرية وقليوب ^(٥) . وفي
الدقهلية سكن عرب ينتسبون إلى قريش ^(٦) . وسكن حول تنيس
وردياط قوم ينتسبون إلى نصر بن معاوية وهم من هوازن ، وكان
لهم شوكة شديدة بارض مصر ، وكثروا حتى ملأوا أسفل الأرض
وغلبوا عليها ، قويت إلى أن عليهم قبيلة من البربر تعرف بلواته ، تزعم

(١) البيان والأعراب للمقريزى : من ٤٨ .

(٢) البيان والأعراب للمقريزى : من ٣٨ .

(٣) البيان والأعراب للمقريزى : من ٣٦ .

(٤) البيان والأعراب للمقريزى : من ٣١ .

(٥) البيان والأعراب للمقريزى : من ٦٢ .

(٦) البيان والأعراب للمقريزى : من ٦٢ .

أنها من قيس فأجلت بنى نصر وأسكنتها الجدار ، فصاروا أهل قرى في مكان عرف بهم وسط النيل وهو جزيرة بنى نصر ^(١) . ثم تعاقب على مصر طوائف من العرب في العصور التي تلت عصرنا الذي ذورخه ، ولعل أكثرها كان في القرن الخامس الهجري ، إذ أرسل الوزير الناصر الياذوري عام اثنين وأربعين وأربعين فاستدعي سبئس من فلسطين وأقطعهم البحيرة التي كانت منازل بنى قرة ، فعظم أمرهم أيام الفاطميين ، ولكنهم تفرقوا في الغربية وذلوا بعد واقعة ديروط عام إحدى وخمسين وستمائة أيام عن الدين التركان ، وكان يجاورهم فرقة من كنانة بن خزيمة وفرقة من بنى عدى بن كعب رهط عمر بن الخطاب ، ونزل العمريون في البرلس والكنايون بقرب دمياط .

ما تقدم نستطيع أن نقول إن أكثر عرب مصر من اليهود قد اختطوا دورهم في الفسطاط وغيرها ، ورابط بعضهم في المدن الكبيرة التي هي ثغور مصر والتي كان يخشى عليها من مهاجمة الأعداء . وكان بمصر عدة من الثغور المعدة للرباط في سبيل الله تعالى ، وهي البرلس ورشيد والاسكندرية وذات الحمام والبحيرة واخنا ودمياط وشطا وتنيس والاشتوم والفرما والواردة والعريش وأسوان وقوص والواحات ، فيغزى من هذه الثغور الروم والفرنج والبربر والنوبة والحبشة والسودان ^(٢) . كما كان لبعض العرب إقطاعات بمصر ، كالذى قيل إن عمر بن الخطاب أقطع ابن سند منية الأصبع ، فجاز

(١) خطاط المقربى : ج ١ ص ٣٦٥ .

(٢) خطاط المقربى : ج ١ ص ٤٣ .

منها لنفسه ألف فدان ، فلم تزل له حتى مات ، فاشترتها الأصبع بن عبد العزيز بن مروان^(١) فسميت باسمه .

وكانت للعرب أيام خاصة في الرياح ينتقلون فيها من رباطهم يجوسون خلال قرى الريف ، فقد جاء في خطبة عمرو بن العاص : « فيك لكم على بركة الله إلى ريفكم ، فنالوا من خيره ولبنه وخرافه وصيده ، وأربعوا خيلكم وأسمنوها وصونوها وأكرموها ، فإنها جُستكم من عدوكم وبها معانكم وأنفالكم ، واستوصوا بن جاور تموا من القبط خيرا ... إلى أن قال : فتمتعوا في ريفكم ما طاب لكم ، فإذا يبس العود ، وسخن العمود ، وكثر الذباب ، ومحض اللبن وانقطع الورد من الشجر في إلى فسطاطكم على بركة الله^(٢) » .

فإن صحت نسبة هذا القول إلى عمرو ، فأناتبين أن العرب كانوا يخرجون من رباطهم ، ويصلون بالمصريين في قراهم ومدنهم ، ويتحدثون إليهم ويتناولون ، فمن المصريين من أعجب بالعرب ودينهم فاعتنقه ، ومنهم من دفع إلى اعتناقه اضطراراً لعجزه عن أداء الجزية ، أو لأغراض أخرى . وكان عمرو يعين القرى التي تذهب إليها كل قبيلة ، فكان يكتب لكل قوم بريعيهم ولبنهم إلى حيث أحبو^(٣) . إذن في ابتداء الفتح كانت إقامة العرب في الفسطاط والشغور ، ولم يكن لهم مقام بالقرى ، وكان القبط متذمرين في بلادهم لا يتدخل في شؤونهم عربي . على أن المسلمين في المائة الثانية انتشروا

(١) خطط المقريزي : ج ١ ص ١٥٥ .

(٢) النجوم الزاهرة : ج ١ ص ٢٢ .

(٣) الخطط : ج ٤ ص ٢٨ .

في قرى مصر ونواحيها ، وما برح القبط يثورون على المسلمين ، إلى أن جاء المأمون سنة سبع عشرة ومائتين فأسرف في تأدبهم حتى أخضهم له ، وغلب العرب على أماكن المصريين في القرى ، وحولوا بعض الكنائس إلى مساجد ، فاضطر المصريون إلى أن يتعلموا اللغة الفاتحين ، وإلى أن يعتنق أكثرهم دين الإسلام .

ولما كثر عدد العرب بمصر طمعوا في ازدياد ثروتهم ، فعمدوا إلى الزراعة والتجارة ، حتى إذا كان أيام المعتصم أمر بإسقاط جميع العرب من الديوان ، فاضطر عرب مصر إلى أن يجتهدوا في جمع المال ، وصاروا كالصريين سواء بسواء ، وزاد اختلاط العرب بالمصريين وتزوج العرب من نساء مصربيات ، فلم يمض إلا زمان قليل حتى رأينا في مصر شعراً إسلامياً عريباً^(١) ، وقد دفعهم تعصيمهم للإسلام إلى الثورة لبناء كنيسة ، فقد قيل إنه في سنة ست وعشرين وثلاثمائة هدمت قطعة من كنيسة أبي شنودة ببذل النصارى للاخسید مالاً ليطلق عمارتها ، فلم يقبل إلا بعد استفتاء الفقهاء ، فأفقي أحددهم وهو محمد بن علي بأن لهم أن يرموها ويعمروها ، وعرف ذلك عنه فحملت الرعية إلى داره النار وأرادوا قتلها فاستر وندم على فنياه^(٢) .

٣- التمраع بين اللغات : اليونانية - القبطية - العربية

انتشرت اللغة اليونانية في مصر منذ أيام البطالسة ، فكانت الدروس تلقى بها في المدارس^(٣) ولكن الشعب المصري كان منصرفاً

Lane Poole : History of Egypt in the Middle Ages p. 15. (١)

(٢) المغرب لابن سعيد : ص ٣٢ .

Quatremère : Recherches sur la Langue et Litterature de (٣)
l'Egypte P. 5.

بعض الشيء عن هذه الدروس اليونانية ، وأحجم كثير من المصريين ولا سوا سكان الوجه القبلي عن تلقى هذه اللغة الأجنبية ، فلم تنتشر اليونانية في الصعيد أوفي القرى المصرية بمقدار انتشارها في الوجه البحري أو المدن الكبرى . وفي عبدالروماني استمرت اللغة اليونانية اللغة الرسمية في مصر . وقد ذكرنا كيف كان الوالي الروماني يصدر نشرات المصريين باللغة اليونانية يصف فيها حكمه للبلاد ، وكيف كان الولاية يفخمون ويعظمون بلقب يوناني يضاف إلى أسمائهم^(١) وكانت اللغة اليونانية هي لغة الثقافة والحكم ، بينما احتفظت اللغة المصرية بمنزلتها بين الشعب فلم تتغلب اليونانية عليها حتى أن القس أورجانوس Origen قال : «إذا أراد يوناني أن يعلم المصريين شيئاً من القانون ، فخير له أن يتعلم لغة المصريين حتى يستطيع أن يتتفاهم معهم ، أما إذا خاطبهم باليونانية فلا فائدة من حديثه» ، مما يدل على أن اللغة اليونانية لم تتمكن من تشرة بين جميع المصريين . فيما كان القديس بولس يجيد اللغتين اليونانية والمصرية كان القديس أنطونيوس لا يعرف غير اللغة المصرية وبها كتب كل أبحاثه الدينية . ولما وفد أفرام (فم الذهب) إلى مصر لزيارة الأنبا بشوا Anba Bishoi لم يستطع الرجال أن يتتفاهموا إلا بمساعدة مترجم لأن كلاماً منهم لم يعرف إلا لغة بلاده^(٢) .

ونجد المختين اليونانية والمصرية منقوشتين على بعض الأحجار ومكتوبتين على أوراق البردى ، ويرجع تاريخ هذه الأحجار وتلك الأوراق إلى العصر الروماني مما يثبت أن اللغة اليونانية كانت تسير مع

(١) تاريخ الأمة القبطية : ص ١٢٤ .

Butler : The Ancient Coptic Churches of Egypt V. 2. p. 251. (٢)

اللغة المصرية ، وعما يؤيد ذلك أيضاً أن التعاليم الدينية التي كانت تلقى في الكنائس أو تنشر بين الناس كانت تقرأ أولاً باللغة اليونانية ثم تشرح باللغة المصرية ، وأهل الصعيد أنفسهم الذين كانوا بعيدين عن مصدر اللغة اليونانية كانوا يرثون صلواتهم باللغة اليونانية بينما كانوا يتحدثون المصرية .

من ذلك كله نستطيع أن نقول إن اللغة اليونانية كان لها أثرها في مصر ، ونلح أثر هذه اللغة في اللغة المصرية نفسها التي تعرف باللغة القبطية فالحروف القبطية هي نفس الحروف اليونانية تقريباً ، ونجد كثيراً من الألفاظ اليونانية دخلة في اللغة القبطية .

أما اللغة القبطية فلم تسكن لهجة واحدة بل اختلفت لهجاتها باختلاف الأقاليم المصرية . نقل كاتمير عن اثنان طريق قوله : « تعلم أن اللغة القبطية مقسمة إلى ثلاثة أقلام منها القبطي المصري الذي هو الصعيدي ومنها القبطي البحيري المعروف بالبحيرة والقطبي الشمالي المستعمل ببلاد الأشمونيين – كما تعلم – وإنما المستعمل الآن القبطي البحيري والقطبي الصعيدي والأصل فيها لغة واحدة ^(١) » . نلح من هذه الجملة أن اللهجة الصعيدية هي أقل اللهجات القبطية تأثيراً باللغة اليونانية بعدها عن مراكز اللغة اليونانية وأنها أقرب اللهجات إلى اللغة المصرية القديمة حتى عبر عنها بالقطبي المصري ، أما اللهجة البحيرية فهي اللهجة الوجه البحري وهي أكثر اللهجات تأثيراً باليونانية لقربها من بلاد اليونان ومن الإسكندرية حيث الجامعة ومقر الحكم ولا ندرى شيئاً عن اللهجة الشمونية .

ولما شعر المصريون بالاضطهاد الديني اشتد كره المصريين لكل ماهو أجنبي ، ونظروا الى الآجانب نظرتهم إلى عنصر من عناصر الوثنية فنعوا المصريون اللغة اليونانية من السكنايس واستبدلواها باللغة القبطية^(١) وكان ذلك في القرن السادس الميلادي ، ولكن اللغة اليونانية ظلت مستعملة متداولة في الكنيسة الملكانية ، أما الكنيسة اليعقوبية المصرية فقد أمرت بتحريم اللغة اليونانية بعض الشيء .

وبينما كانت الكنيسة اليعقوبية في خصام عنيف مع الكنيسة الملكانية تغير نظام العالم السياسي جأة ، وأصاب مصر ما أصاب كثيراً من البلدان الأخرى ، فقد خرج العرب من بلادهم لغزو فارس والشام ومصر ، فوقفت الطائفة اليعقوبية تساعد المسلمين وتؤازرهم ضد الرومان وقد أراد المصريون بمساعدة العرب أن يتخلصوا من أعدائهم الرومانيين ، وأن يمحوا من البلاد الكنيسة الرومانية، فقدم المصريون كنائس خصومهم ، وحاولوا منع استعمال اللغة اليونانية بمصر ، ولكنهم لم يلغو مرادهم .

شعر المصريون في أوائل الحكم العربي بشيء من الحرية التي طالما تمنوها وعملوا من أجلها ، وظهرت هذه الحرية في استخدامهم في الأعمال الحكومية التي كانوا بعيدين عنها .

وهنا أرى أن أشير إلى موضوع تحدث عنه مؤرخو العرب القدماء والحدثون ، تلك هي مسألة نقل الدوافين من اللغات الأجنبية إلى العربية ، فجميع من تحدثوا عن هذا الموضوع ذكروا أن

(١) تاريخ الأمة القبطية : ج ٢ ص ٨٨ .

الدواوين كانت تكتب في مصر باللغة القبطية وفي الشام باليونانية ، من ذلك مقالة السكندي : « حتى إذا كانت ولاية عبدالله بن عبد الملك ابن مروان ، فأمر بالدواوين فنسخت بالعربية وكانت قبل ذلك تكتب بالقبطية ، وصرف عبد الله أشناس عن الدواوين ، وجعل عليها ابن يربوع الفزارى من أهل حمص وذلك في سنة سبع وثمانين هجرية »^(١) فالنص صريح هنا أن اللغة القبطية كانت لغة الدواوين ، وهذا يخالف ما ذكرناه سابقاً من أن اللغة اليونانية كانت اللغة الرسمية ؛ ثم إن المؤرخين قد اتفقوا على أن لغة الدواوين في الشام كانت اليونانية ، ومصر والشام كانتا من أملاك الامبراطورية البيزنطية فكيف تكون اللغة الرسمية في الشام تختلف عن اللغة الرسمية في مصر ؟ وقد حفظت لنا أوراق من البردي يرجع تاريخها إلى عهد الوليد بن عبد الملك كتبت باليونانية والعربية وهي وثائق صدرت من الوالي نفسه ، ونجد بعض الوثائق المحفوظة بدار الكتب المصرية قد كتبت باللغة اليونانية فقط ولا نجد بينها وثائق كتبت باللغة العربية والقبطية أو القبطية فقط^(٢) مما يدل على أن لغة الدواوين في مصر والشام كانت اليونانية وليس القبطية كا وهم مؤرخو العرب ، وقد يكون منشؤ هذا الوهم أن بعض موظفي الدواوين كان من الأقباط فظن المؤرخون أن اللغة القبطية كانت اللغة الرسمية في البلاد .

ومهما يكن من شيء فإن اللغة القبطية كانت لغة تألف بها

(١) الولادة لـ السكندي : ص ٥٨ .

(٢) أوراق البردي للأستاذ جروهان عليع دار الكتب المصرية في مواضع متفرقة .

الكتب، فالمؤرخ يوحنا النيقوسي كتب تاريخه في أيام ولاية عبدالعزيز ابن مروان؛ بعضه باللغة اليونانية وبعضه الآخر بالقبطية^(١)

بعد الفتح العربي كانت اللغة العربية في أول الأمر في حيز محدود في مصر يتكلمها العرب ومن جاورهم من المصريين الذين اضطروا بحكم الجوار إلى أن يختلطوا بالفاطحين وأن يعرفوا لغتهم، ثم أدخلت بعض الاصطلاحات العربية في الدوائر، فاضطر المصريون إلى أن يعرفوا اللغة العربية تقرباً إليهم وتحقيقاً لصالحهم، فنرى القسيس بن يامي قد أجاد اللغة العربية حتى أنه شرح الانجيل بالعربية للأصمعي بن عبدالعزيز بن مروان^(٢) كما كان لا تشار الدين الإسلامي في مصر أثر كبير في نشر اللغة العربية بين المصريين إذ اضطر من أسلم منهم إلى أن يتعلم اللغة العربية حتى يستطيع أن يقرأ القرآن الكريم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وإلى أن يفهم دروس الفقه.

وقد ذكرنا أن العرب كانوا يخرجون من رباطهم في الربع ويتصلون بالمصريين في الريف فكان ذلك من أسباب انتشار اللغة العربية بين الشعب، حتى جاء الوقت الذي ترك فيه المصريون اللغة القبطية وأهلوا شأنها حتى في مسائلهم الشخصية، واتبعوا المسلمين في كل شيء. وهذا هي أوراق البردي التي حفظت في دار الكتب المصرية غيرها من المكتبات والمتاحف تؤيد ذلك؛ فثلا نجد — في القطعة

(١) تاريخ الأمة القبطية : ج ٢ ص ١٦٧ .

(٢) Quatremère : p. 23.

رقم ١١ التي ذكرها الأستاذ جروهمان في كتابه — عقد يع بين مصرية و مسلم كتب باللغة العربية و وجد فيه ثلاثة أسطر باللغة القبطية هي شهادة بعض المصريين على هذا العقد؛ أن الكاتب استعمل بعض اصطلاحات مصرية خالصة ، فالمصريون هم الذين يحدون الجهات بالبحري والقبلي^(١) مما يدل على تأثر اللغة العربية بالاصطلاحات المصرية . ثم مما يدلنا على ضعف اللغة القبطية و سيرها في طريق الاضمحلال؛ أن القديس شنوده كتب مؤلفاته باللغة القبطية والملجأ الصعيدية — ثم اضطر إلى أن يكتبها مرة أخرى باللغة العربية حتى يتسع للأقباط أن يقرأوها ، وبعد أن كانت مراسيم الكنيسة تقرأ باليونانية و تشرح بالقبطية صارت تقرأ بالقبطية و تشرح بالعربية وفي القرن العاشر الميلادي كان المصري المثقف يفخر بأنه يعرف اللغة القبطية^(٢) و حدث أنه في القرنين التاسع والعشر الميلاديين ظهر نشاط غريب بين الأقباط إذ أرادوا أن يعتزوا بقوميتهم و يحافظوا على لغتهم فجمعوا الكتب القبطية في دير مكاريوس St. Macarius ولكن حرکتهم هذه فشلت في القرن الحادى عشر لأن اللغة القبطية كانت تتعذر أمام اللغة العربية ، و ازداد إلحاح الناس على ترجمة الكتب الدينية من اللغة القبطية إلى اللغة العربية^(٣) . وبعد القرن

(١) يقول المقريزى في خططه : ج ١ ص ٢٣ : إلا أن أهل مصر يستعملون في تحديدهم بدلاً من الجهة الجنوبيّة لفظة القبليّة فيقولون الحد القبلي ينتهي إلى كذا ، ولا يقولون الجنوبي وكذلك يقولون الحد البحري ويريدون بالحد البحري الحد الشمالي .

Quatremère : p. 39. (٢)

Hugh : The Monasteries of Wadi'n Natrûn (New Yourk) (٣)
V. I. p. 26.

العاشر الميلادي كان رجال الدين المسيحي يقرأون صلواتهم باللغة القبطية بينما كانت كتبهم الدينية باللغة العربية ، وفي زيارة المسعودي لمصر سأل كثيراً من المصريين عن معنى كلمة فرعون في لغتهم فلم يظفر بجواب . ومع ذلك كله فإننا نجد اللغة القبطية كانت معروفة في مصر إلى عهد قريب فالمقريزى ذكر في خططه ودرنكة أهلها من النصارى يعرفون اللغة القبطية فيتحدثون صغيرهم وكبيرهم بها ويفسرونها بالعربية^(١) ، وقال في موضع آخر «ودير مواس خارج أسيوط من قليها بنى على اسم توما الرسول والأغلب على نصارى هذه الأديرة معرفة القبطية البحيرية ونساء نصارى الصعيد وأولادهم لا يكادون يتكلمون إلا بالقبطية الصعيدية»^(٢) ،

ونستطيع أن نقول إن كثيراً من العرب عرفوا اللغة القبطية وتحاطبوا بها فقد قيل إن الطريق يوسف عندما حكم سنة ٨٥٠ م خاطب رعيته باللغة القبطية بحضور عدد كبير من العرب ، وفهم العرب كل مقالاته وحدثوا به القاضى^(٣) وذكر ابن حجر في أخبار القاضى خير بن نعيم «وكان يسمع كلام القبط بلغتهم ويخاطبهم بها وكذلك شهادة الشهود منهم ويحكم بشهادتهم»^(٤) وقال الكندي في خبر خروج العلوين بالفسطاط سنة ١٤٥ هـ إن ابن حديج وقف على الباب الذى ناحية بيت المال فكلم خالد بن سعيد وهو فوق ظهر المسجد كلبة قبطية^(٥) فهذا كله يدلنا على أن بعض العرب بمصر تعلموا اللغة القبطية وتحاطبوا بها .

(١) المقريزى ج ، ٤ ، ٤ ، من ٤٣٦ (٢) المقريزى ، ٤٢ ، من ٤١٧

(٣) كاتب ميد من ٣٤ ، وبهار في كتابه تاريخ الكنيسة القبطية من ٢٥١

(٤) رفع الإصر عن قضاعة مصر نسخة خطبة بدار السكتب المصرية .

(٥) الولاية والقضاعة من ١١٣

والآن إذا فحصنا اللغة التي يتحدث بها المصريون فانا نجد بها
كثيراً من الألفاظ القبطية فلظ «كان مانف»، و«شونة»، و«أرض
شراق»، و«أردب»، وغيرها هذه كلها ليست عربية بل هي مصرية
وكان القدماء يستعملون كلمة «القباطي»، وهو نوع من النسيج كان
يرسل من مصر إلى بلاد العرب، واستعمل السكندي كلية مواحيز
معنى أماكن فقال «كانت مواحيز مصر يعمرها أهل الديوان»^(١)
واستعمل ابن الداية لفظ «تليس» معنى الحقيقة الكبيرة^(٢) ولا يزال
المصريون يستعملون هذه الكلمة بنفس المعنى القديم. واستعمل
المؤرخون العرب كلية برابي ويسمى المصريون إلى الآن الرباح
الجنوبية برباح المريض و«إمريس» بالقبطية معناها جهة الجنوب.
وكلمة طوبية معنى الحجارة أصلها قبطي وشجرة اللبخ إلى غير ذلك

ونجد اختلافاً في اللهجات المصرية فلهجة الصعيد تختلف عن
لهجة أهل القاهرة، ولهجة أهل مديرية الشرقية غير لهجة أهل رشيد
أو أهل الإسكندرية، وقد علل الدكتور جورجي بك صبحي ذلك
بأن اختلاف اللهجات الآن في جهات مصر المختلفة كان بتأثير هذه
الجهات باللهجة المصرية القديمة^(٣)؛ وقد يكون هذا السبب صحيحًا
وأضيف إلى ذلك أسباباً أخرى منها اختلاف اللهجات العربية التي
أقي بها العرب، ثم تأثر المصريين في عصورهم المختلفة بالأمم الأوروبية
الأمر الذي جعل لهجات البلاد تختلف اختلافاً واضحاً.

(١) الولاية والقضاء من ٤١٨ (٢) المكافأة لابن الداية من ٨٢

(٣) محاضرة الدكتور جورجي بك صبحي عن النقاوة القبطية بقاعة بورت

البَابُ الْثَانِي

في الحياة العقلية

الفصل الأول

المدارس الدينية

، أصبحت مصر منذ دخول العرب إليها مركزاً علياً في المملكة الإسلامية كما هي مركز سياسى ،^(١) وقد ذكرنا كيف كان العرب الذين وفدوا على مصر في شبه معزل عن المصريين وعلوهم ولذلك لم يتم عرب مصر في القرن الأول إلا بالدين الإسلامي ، فاتخذوا من جامع الفسطاط مكاناً للدروس والمناقشات الدينية ، ولسنا في معرض الحديث عن هذه العلوم التي كانت تلقى في مسجد الفسطاط ، ولكننا مضطرون إلى الإلام بها لأن دراسة الآداب اضطررنا إلى تتبع تطور الحياة العقلية ، ورقى النثر الفنى لا يتأتى إلا من هذه الدراسات العميقه ، والمناقشات العلمية العنيفة ، التي تقوم على جهد في الفكر وذخيرة من العلم ، كما أن ألوان الحياة العقلية وأنواع العلوم التي كانت تدرس تعيننا على معرفة نوع هذه

(١) نهر الإسلام للأستاذ أحمد أمين من ٢٢٨ (الطبعة الأولى)

الكتابات المختلفة وفنون الشعر وتطورها جيلاً بعد جيل .

علم الفراءات :

ففي مسجد الفسطاط ، نرى أول مدرس به كانت علوم الدين من تفسير للقرآن الكريم ، ورواية قراماته ، ورواية الحديث الشريف ، وكان للصحابي الذي شهدوا فتح مصر أثر بارز في هذه العلوم الدينية ، إذ هم الذين تولوا أمر التدريس في المسجد الجامع . وأول من قرأ القرآن بمصر هو أبو أمية عبيد بن خمر المغافري^(١) وكل القراءات بمصر رواية عن نافع ، نقلها عنه إلى مصر عثمان بن سعيد المصري المعروف بورش وكان مصر يا صنها فهو عثمان بن سعيد ابن عدى بن غزوان بن داود بن سابق ، كان أصل أجداده من الأقباط ، ثم اعتنقا الدين الإسلامي . ولدورش بمصر سنة ٥١١هـ واشتغل بقراءة القرآن وتعلم العربية ، ورحل إلى المدينة فقرأ بها على نافع سنة ١٥٥هـ^(٢) .

ثم عاد إلى مصر ، وإليه انتهت رياضة القراء فيها وتوفي سنة ١٩٧هـ^(٣) وساعدته في نقل رواية نافع زميل له معاصر ، هو سقلاط بن شنبة أبو سعيد المصري^(٤) ولكن المقريزي قال إن أبو ميسرة عبد الرحمن بن ميسرة مولى الملامس الحضرمي كان أول الناس إقرأ بمصر بحرف نافع قبل الحسينين ومائة من الهجرة ، وتوفي سنة ثمان وثمانين ومائة من الهجرة ، ولكن المعروف أن أثر ورش في القراءة

(١) خطط المقريزي ، ج ٤ ، ص ١٤٣ (٢) معجم الأدباء ، ج ٥ ، ص ٣٣

(٣) حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٢٧٧ (٤) شرحه

أقوى من أثر أى مقرئ آخر . ويحدثنا السيوطي أن عمر بن عبد العزizin أرسل نافعاً إلى مصر ليعلم المصريين ، فأقام نافع بمصر مدة طويلة^(١) ومهما يكن من شيء فإن مدرسة نافع قد قوى أمرها في مصر ، وتعدد تلاميذ ورش ، فنهم أبو يعقوب الأزرق بن عمرو بن يسار المصري الذي لزم ورشا مدة طويلة ، وأنفق عنه الأداء ، وخلفه في القراء ، ولكنه انفرد عن ورش بتغليظ اللام وترقيق الراء ، وكان له أثر كبير في مصر والمغرب ، حتى أن المصريين والبربر ما كانوا يعرفون إذ ذاك غير ورش وأبي يعقوب هذا^(٢) وقد توفي أبو يعقوب حوالي سنة أربعين وما تسعين من الهجرة

وأخذ الأنجلسيون قراءة نافع عن عبد الصمد بن عبد الرحمن بن القاسم المصري المتوفى سنة إحدى وثلاثين وما تسعين هجرية^(٣) من ذلك كله نستطيع أن ندرك أن المصريين كان لهم أثر واضح في القراءات ، وعن المصريين أخذ القراء في الأندلس والمغرب ، كما كان للصغاريين رأى خاص مختلف بعض الشيء عن قراءة نافع ، كالذي ذكرناه عن قراءة أبي يعقوب المصري في تغليظ اللامات وترقيق الراءات .

المحيط :

وفي الحديث نجد الصحابة الذين وفدو على مصر يكثرون من روایته ، وكان عبد الله بن عمرو بن العاص أكثر الصحابة روایة

(١) حسن المخاضرة ، ج ١ ، ص ١٦٢

(٢) حسن المخاضرة ، ج ١ ، ص ٤٠٤

(٣) درجة ٢٧٨

لل الحديث ، فقد كان من نجفاء الصحابة ، ومن المكثرين لروايته^(١) ولأهل مصر عنه أكثر من مائة حديث^(٢) ، فقد كان عند الله يعرف الكتابة ، وكان يكتب كل ما سمعه من رسول الله صلى الله عليه ، فاستطاع بذلك أن يحفظ عدداً من الأحاديث كما سمعها من الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكثيراً ما كان يرجع إلى أوراقه عندما يسأل في أمر لا يستطيع أن يجيب عنه . روى ابن عبد الحكم أن عبد الله قال (كنا عند رسول الله ﷺ ، نكتب ما يقول لا أو نعم)^(٣) كما كان لغيره من الصحابة أثر بارز في رواية الحديث وقد أفرد ابن عبد الحكم في آخر كتابه (فتوح مصر) فصلاً خاصاً بالأحاديث النبوية التي رواها المصريون ، وكذلك نجد في كتاب السيوطي (در السحابة في من دخل مصر من الصحابة) ذكر هؤلاء الصحابة وما رواوه من الأحاديث ، واعتمد أصحاب الكتب الستة في الأحاديث على رواية كثير من المصريين ؛ فسعيد ابن عفيف وحيي بن بکير وعبد الله بن صالح ، وغيرهم كانوا من شيوخ البخاري وكان أحمد بن يونس وحيي التميمي وغيرهما من شيوخ مسلم وأبي داود ولا داعي للإفاضة هنا عن كل المحدثين المصريين

عمر الله بن وهب والمدرسة المالكية :

ولكن لا بد أن نقف عند رجل مصرى يعد من أوائل جامعي

(١) حسن المخاغرة ، ج ١ ، ص ١٢٤

(٢) فتوح مصر لابن عبد الحكم . (٣) النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ١٧١

ال الحديث ، ذلك هو عبد الله بن وهب المصرى صاحب كتاب (الجامع في الحديث) . وقد عثر على معظم هذا الكتاب حديثاً في مدينة ادفو ، ويعد من أقدم المخطوطات العربية في جميع مكاتب ومتاحف العالم ، إن لم يكن أقدمها جائعاً ، وهذه النسخة مكتوبة على ورق البردى الذي عرفت به مصر منذ القدم ، ويرجع تاريخ كتابتها إلى القرن الثالث الهجرى . أما مؤلفه ، فهو أبو محمد عبد الله ابن وهب بن مسلم القرشى بالولام^(١) . وقد شهد ابن وهب هذا العصر الذى ابتدأ فيه تدوين الحديث والفقه والتفسير ، فقد كان العلماء قبل ذلك العصر يتكلمون عما حفظوه ، وقد يدونون ما سمعوه في صحف مبعثرة متفرقة ولم تكن لهم كتابات مرتبة . ولكن جاء بعض الأئمة والمحتمدين ودونوا ما رأوه وما رأوه فكتب مالك كتابه الموطأ بالمدينة وكتب الأوزاعي مذهبه بالشام ، وصنف ابن إسحاق في المغازى ، وكتب ابن وهب في مصر كتابه (الجامع في الحديث) فهو بذلك من أول الذين جمعوا الحديث ، والغريب أن هذا الرجل على ما هو عليه من فضل وعلم ليس معروفاً عند كثير من المؤرخين والكتاب وذلك في أغلب الفتن لأن (جامعه) كان مفقوداً ، وقد يكون هذا الكتاب هو الآخر الوحيد الذي يدلنا على فضل هذا الرجل ، ولعل رأى العلماء والمؤرخين في هذا الحديث يتغير بعد أن كشف عن جزء من كتابه ، كما نرجو أن تعمل الميلادات العلمية على طبع هذا الكتاب .

ولد بن وهب بمصر في ذى القعدة من سنة أربعين أو خمس وعشرين ومائة من الهجرة، وكان كغيره من متعلمي هذا العصر، يرحل في طلب العلم إلى الحجاز والعراق، فوقد على المدينة سنة ثمان وأربعين ومائة هـ، وهناك أخذ عن مالك، وما زال مقرباً معه حيناً ويفرق حيناً آخر، إلى أن توفي مالك سنة ١٩٧ هـ، ويقول ابن خلkan إن مالكا كان يكتب إلى ابن وهب «إلى عبد الله بن وهب المفتى ولم يكن يفعل هذا مع غيره»^(١)، فهذا يدل على أن مالكا كان يعترف بفضل ابن وهب ومنزلته فلقبه بالمفتي، وروى ابن خلkan أيضاً قصة عنه فيقول «كتب الخليفة جعفر المنصور إلى عبد الله بن وهب في قضاء مصر، فجاءه نفسه، ولزم بيته، فاطلع عليه سعد بن سعد وهو يتوضأ في صحن داره، فقال له «ألا تخرج إلى الناس تقضي بكتاب الله وسنة رسوله» فرفع له رأسه، وقال «إلى هنا انتهى عقلك! أما علمت أن العلماء يحشرون مع الأنبياء، وأن القضاة يحشرون مع السلاطين»^(٢) فإن صحت هذه الرواية فهي تحدثنا عن عقيدة ابن وهب وشدة تقواه وقيل إن سبب موته أنه قرئ عليه كتاب الأهوال من «جامعه»، فأخذته شيء كالغشى، فحمل إلى داره، فلم يزل كذلك إلى أن قضى نحبه، في شعبان سنة سبع وتسعين ومائة من الهجرة^(٣).

أخذ ابن وهب أكثر مادة كتابه عن مصادرin هما : مالك ابن أنس وعبد الله بن هليعة المصري ، وليس لنا أن نتحدث عن

(١) ابن خلkan ، ج ١ ، ص ٢٤٩ (٢) شرحه

(٣) ابن خلkan ج ١ ص ٢٤٩

مالك لأنهم يكن مصر يأفي شيء ، وإن كان مذهبه قد دخل مصر وكثر تلاميذه الذين كانوا يدرسون مذهبة في المسجد الجامع ، وكان ابن وهب من أجل تلاميذه في مصر ، واعنه أخذ كثير من المصريين ، حتى أن السيوطى حين عقد فصلاً عنْ كان مصر من الفقهاء المالكية ، كان يذكر ابن وهب كأستاذ لمعظم هؤلاء الفقهاء ، مثل عبد الحكم بن عبد الله الذى كان أكبر أولاد ابن عبد الحكم وأفقيهم وأجل أصحاب ابن وهب^(١) ، ولم يكن ابن وهب وحده هو أستاذ المدرسة المالكية في مصر ، بل نجد كثيراً غيره ، أمثال : أشباب ابن عبدالعزيز العامرى فقيه ديار مصر ، وكانت إليه الرياسة بها ، وبلغ من العلم درجة كبيرة ، حتى قال الشافعى « ما أخرجت مصر أفقه من أشبب لو لا طيش فيه »^(٢) وكان ثقة في روايته ، حتى قيل إن أشبب ما كان يزيد في سماعه حرفاً واحداً^(٣) وكان أساس المدرسة المالكية هو روایة الموطأ وهذا الكتاب كغيره من الكتب الإسلامية التي ألفت في هذا العصر يقوم على الروایة ، ولكن ابن وهب لم يشاً أن يقبل الروایات كاً هي في الموطأ ، بل كان يدقق في اختيار الأحاديث ، ولعل هذا هو السبب الذي جعل المحدثين جميعاً يشكون به .

أما المصدر الثاني الذي أخذ عنه ابن وهب أكثر مادة كتابه فهو عبد الله بن هبطة الحضرى الغافقى^(٤) ولد سنة ست

(١) حسن الحاضرة ج ١ ، ص ٢٥٤ (٢) حسن الحاضرة ، ج ١ ،

١٦٦ (٣) النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ١٧٥

(٤) أنظر التبووى ، ج ١ ، ص ٣٦٤ والسعانى ، ص ٤٠٥

وتسعين هجرية من أصل عربى ، وكان والده لبيعة من مشاهير التابعين الذين رروا الحديث ^(١) ، ونشأ ابنه عبدالله بحباً للحديث ، جاماً له ، فكان يرحل في طلبه ^(٢) ، وكان ابن لبيعة يكنى أباخرطة وذلك أنه كانت له خريطة معلقة في عنقه ، فكان يدور مصر ، فكما قدم قوم كان يدور عليهم ، فإذا رأى شيخاً سأله من لقيت وعمن كتبت؟ ^(٣) وابن لبيعة هذا تلميذ يزيد بن أبي حبيب ، الذي وصفه الليث بن سعد بقوله « هو ميدنا وعالمنا » ^(٤) ، وقيل إن يزيد هذا أول من أظهر العلم بمصر والمسائل في الحرام والحلال ، وقبل ذلك كانوا يتحدثون في الترغيب واللامح والفتنه ^(٥) ، لهذا كان يزيد بن أبي حبيب أحد الثلاثة الذين جعل عمر بن عبد العزيز إليهم الفتيا في مصر ، وهم جعفر بن ربيعة وهو عربى ، وعبد الله بن أبي جعفر ، ويزيد بن أبي حبيب ، وهما من الموالى ، ولكن العرب أنفوا أن تكون الفتيا إلى الموالى فأجابهم عمر بقوله « ما ذنبي إن كانت الموالى تسمو بأنفسها صدعا وأتم لا تسمون » ^(٦) ، ولا تقف شهرة يزيد بن أبي حبيب عند الفقه أو الحديث ، بل نراه من الذين اعتمد عليهم عبد الرحمن بن عبد الحكم في كتابه فتوح مصر ، والسكنى في كتابيه الولاة والقضاة ، والطبرى في تاريخه وغيرهم وذلك لكثره عليه بالفتنه والمحروbes ، وخاصة ما يتعلق منها بمصر وشئونها وحكامها ،

(١) حسن المخاضرة ، ج ١ ، ص ١٤٥ (٢) تاريخ الاسلام للذهبي

(٣) النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ١٧٥ (٤) حسن المخاضرة ، ج ١ ،

ص ١٦٣ (٥) النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٣٠٨

(٦) خطاط المغريزي ، ج ٤ ، ص ١٤٣

كان يزيد أستاذ ابن هبطة وأستاذ عالم مصرى آخر هو الليث بن سعد ، ولكن ابن هبطة اختلف عن أستاذه ابن أبي حبيب ، وعن قرينه الليث ، فلم يكن حذرا في قبول الروايات السκثيرة التي كانت تصل إليه ، ولم يحتط في إسناد الأحاديث والأخبار إلى الثقة ، لهذا قل من يثق بأحاديثه وأخباره ، مع كثرة ما نقل عنه ، يقول ابن خلakan : إن ابن هبطة كان مكثراً من الحديث والأخبار والرواية ، وكان يقرأ عليه ما ليس من حديثه فيسكت ، فقيل له في ذلك فقال ما ذنبني إنما يحييوني بكتاب يقرؤه على ويقومون ، ولو سألوه لاخبرتهم أنه ليس من حديثي^(١) وأظن أن هذا هو السبب الذي جعل ابن سعد يقول عنه : « إنه كان ضعيفاً »^(٢) ومن يدرى لعل هذا الرجل كان سبباً في اختراع هذه الأخبار السκثيرة التي رواها ابن عبد الحكم والكندي وغيرهما ، وأخذها عنهم غيرهما من المؤرخين ، إذ أن أكثر ما ورد عن مصر مروي عن طريقه .

وروى ابن وهب كثيراً عن ابن هبطة ، ولست أدري كيف يأخذ ابن وهب عنه ، وهو الذي يدقق في كل رواية . فقد قيل إن ابن وهب روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة ألف حديث ماجرح في حديث واحد^(٣)

أما زملاء ابن وهب في نشر مذهب مالك بمصر فنستطيع أن نقول

(١) ابن خلakan ، ج ١ ، ص ٢٤٩

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ، ص ٢٠٤ ، طبعة لبنان سنة ١٣٣٨

(٣) السكون في ترتيب الزيارة لابن الزيات ، ص ٤٥ (مطبعة بولاق سنة ١٩٠٧)

إن خاصية أصحاب مالك كانوا مصرىين كابن القاسم وأشبب وعبد الله ابن عبدالحكم.

أما ابن القاسم فهو أبو القاسم عبد الرحمن بن القاسم العتqi ينسب إلى جماعة العتقاء الذين وفدو على مصر منذ الفتح، واحتظوا بالفسطاط كما ذكرنا، ولد سنة ١٢٨ هـ وصحب مالكا وروى عنه مسائله كلها، وكان يقول: رجلان اقتدى بهما في ديني مالك بن أنس في العلم وسليمان في الورع^(١) وكان يرفع على أصول مذهب مالك وصارت إليه رئاسة المالكية بمصر إلى أن توفي سنة ١٩١ هـ، وخلفه منافسه وزميله أشبب بن عبد العزيز بن داود القيسي، تلقى العلم عن مالك والليث بن سعد والفضل بن عياض^(٢) وكان من أكثر الناس علياً وجلاة، وقد وصفه ابن وهب بقوله: كان أشبب فقيها في علوم شتى، مائل عن شيء إلا أجاب^(٣)، وقال الشافعى: ما رأيت أفقه من أشبب لولا طيش فيه^(٤)، وكان ينافس ابن القاسم في رئاسة المالكية، حتى انتهت إليه بعد وفاة ابن القاسم، وقد انتصر لأشبب بعض المصريين أمثال محمد بن عبد الله بن عبد الحكم الذى كان يفضل أشبب على ابن القاسم وتوفي أشبب على ابن القاسم وتوفي أشبب سنة ٤٢٠ من الهجرة^(٥).

ويروى السيوطي أن أول من أدخل مذهب مالك في مصر هو عثمان بن الحكم الجذامي المتوفى سنة ١٦٣ هـ.

(١) الكواكب السيارة، ص ٣٩

(٢) الديبايج لابن فردون، ص ٩٨ (طبعة السعادة سنة ١٢٩٣)

(٣) الكواكب السيارة، ص ٣٧ (٤) ابن خلkan، ج ١، ص ٧٨

(٥) حسن الحاضرة، ج ١، ص ١٦٦

الليث بن سعد :

وما دمنا نتحدث عن هؤلام العلماء والفقهاء الذين كان لهم أثر في مصر ، لا بد لنا من وقفة قصيرة عند عالم مصرى شهد له بالعلم والفقه ، حتى قيل عنه إنه إمام أهل مصر في الفقه والحديث ، ذلك هو الليث بن سعد بن عبد الرحمن ، لم يكن عريباً أصيلاً في عروبه ، ولم يكن مصرياً عريقاً في مصريته ، بل كان فارسياً من أصحابه ، وكان مولى عبد الرحمن بن خالد بن مسافر الفهمى ، ولد الليث في قرية من قرى مصر هي قلقشنه ، ويقول الليث إن بعض أهله حدثوه أنه ولد سنة اثنين وتسعين للهجرة ، ويوقن هو أن ولادته كانت سنة أربع وتسعين للهجرة ، ولكن السمعانى يقول إنه ولد سنة أربع وعشرين ومائة ، ويقول السيوطي إنه ولد سنة أربع وتسعين (١) ويقول غيره إنه ولد سنة ثلاثة وثلاثين (٢) نشأ بمصر وترتفع على علمائها أمثال يزيد بن أبي حبيب ، وجعفر بن ربيعة وخير بن نعيم وغيرهم ثم لم يقنع بهذا كله ، فتراه يطوف ببعض البلدان طلباً للعلم ، فذهب إلى مكة للحج سنة ثلاثة عشرة ومائة ، وهناك أخذ عن نافع مولى عبد الله بن عمر وعطاء بن أبي رياح وهشام بن عروة وقادة وغيرهم وزار بيت المقدس سنة تسع وثلاثين ومائة هـ ، وزار بغداد سنة تسع وخمسين ومائة (٣) ففي هذه الزيارات كلها قبل عدداً كبيراً من التابعين

(١) حسن الحاضرة ، ج ١ ، ص ١٦٤

(٢) ابن خلكان ، ج ١ ، ص ١٣٨

(٣) يراجع ما كتبه الأستاذ Guest في مقدمة كتاب الولاية كندي عن الليث

وأخذ عنهم الحديث ورووا عنه ، وزرى له شأننا آخر من الناحية الفقهية فقد كان الليث فقيهً أمبرزاً ، حتى أن الشافعى كان يقول «الليث ابن سعد أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به»^(١) فهذا حكم إمام من أئمة الفقه للبيت بن سعد ، كذلك نجد ابن خلkan يروى أن ابن وهب كان يقرأ عليه مسائل المايمىت ابن سعد فترت به مسألة ، فقال رجل من الغرباء : أحسن والله الليث كأنه كان يسمع مالكا يجيب فيجيب هو فقال ابن وهب للرجل : بل كان مالكا يسمع الليث يجيب فيجيب هو ، والله الذى لا إله إلا هو ، مارأينا أحداً قط أفقه من الليث^(٢) . ويروى السيوطي أن ابن بكر قال مارأيت أحداً أكمل من الليث ، كان فقيه النفس ، عرب اللسان ، يحسن القرآن وال نحو ، ويحفظ الحديث^(٣) والشعر ، حسن المذاكرة^(٤) وقال سعيد بن أبيوب لو أن مالكا والليث اجتمعوا كان مالك عند الليث شبه أبكم ول Bauer الليث مالكا فيمن يزيد^(٥) وكان مالك يقول : «حدثني من أرضى من أهل العلم» يزيد به الليث^(٦) ومن تلاميذ الليث عبد الله بن المبارك وأبو النضر هاشم بن القاسم ويونس بن محمد المؤدب وعبد الله بن وهب وأشبب وأكثر هؤلاء من شيوخ ابن حنبل . وسعيد بن عفیر وعبد الله بن صالح كاتب الليث وعبد الله بن يونس التيسى وقد روى البخارى عن أكثرهم ، كما أخذ عنه قبيحة بن سعد

(١) ابن خلkan ، ج ١ ، ص ٤٢٨ (٢) شرحه

(٣) في الكواكب السبارة في ترتيب الزيارة (يمحسن القرآن والفقه والنحو والطب والشعر) (٤) حسن الماضرة ، ج ١ ، ص ١٦٤

(٥) كتاب الرحمة الغوثية للمسقلاني ص ٦ (طبع بولاق سنة ١٣٠١ هـ)

(٦) شرحه ص ٨

من هذا كله نستطيع أن نعرف مكانة الليث بن سعد في نفوس المصريين المعاصرين له ، حتى قيل إن القاضي والوالى كانوا من تحت أمره ومشورته ، لا يقطعان أمرا إلا بعد أن يرى هو فيه رأيه^(١) ، واضطر أحد الشعراء من خصوم الليث إلى أن يرسل إلى الخليفة أبي جعفر المنصور يقول :

لعبد الله عبد الله عندي نصائح حكتها في السر وحدى
أمير المؤمنين تلاف مصراء فإن أميرها ليث بن سعد
وكان الليث ثرياً كريماً ، ومع فقهه وتدينه كان يأخذ بنصيبيه في
الحياة الدنيا التي لم يحررها الله ، وقد كتب مالك إليه يقول «بلغني أنك
تأكل الرفاق ، وتلبس الرفاق ، وتمشي في الأسواق ، فأجابه الليث
ابن سعد «قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطبيات من الرزق
الخ الآية^(٢) » وقيل إن مالكا أهدى إليه صينية فيها تمر ، فأعادها معلومة
ذهباً ... كما كان يتخد لاصحابه الفالوذج ويعمل فيها الدنانير فلن
أكل أكثر من صاحبه ناله دنانير أكثر^(٣)

كان الليث على حظ كبير من المال ، وقسط وافر من العلم ، وكان
يساجل مالكا بالمراسلة ، ويأخذ عليه أموراً لا يراها هو ، وقد عثرنا
على إحدى هذه الخطابات التي أرسلها الليث إلى مالك مدونة في كتاب
«أعلام الموقعين» لابن قيم الجوزية ، وفي هذه الرسالة نرى بعض
المسائل الفقهية التي لاتعنينا في بحثنا هذا ، ولكننا نستطيع أن نتخد
هذه الرسالة مثلاً للكتابة الدينية في هذا العصر .

(١) النجوم الظاهرة ، ج ٢ ، ص ٨٢ (٢) شرحه

(٣) ابن خلkan ، ج ١ ، ص ٤٣٨

تدلنا الرسالة على أن لغة التأليف التي كانت عربية ساذجة قد دخلها شيء من الصعوبة والتعقيد ، ليس معنى هذا أن اللغة أصاها الفساد . بل خرجت عن سهولتها الأولى ، وصارت لغة تأليف على بعد أن كانت لغة مخاطبة وحديث ، واللغة لا بد لها من تغيير حتى تحتمل هذا التجديد الذي طرأ على العقایة العربية ، من ذلك كله نجد شيئاً من الغرابة في هذه الكتب العلمية والدينية ، ونجد ضعفاً في تأليفها ، ولكن عريتها صحيحة في الغالب ، فلم يبق إلا أن المؤلفين لم يتمكنوا من تأدية المعنى الذي قصدوا إليه في قالب عربي صحيح إلا بمشقة وجهد ، وهذا لا تستطيع أن تفهم هذه المتون الدينية التي كتبها المؤلفون في هذا العصر وما بعده إلا بعد شرح وإطالة نظر لم يشا الليل في رسالته هذه أن ينمّي كتاباته أو يزخرفها بالزينة اللغوية ، لأن هذه الألوان من الزينة لم تكن قد انتشرت بعد ، لهذا استعمل الأسلوب العربي القديم الذي نراه في كتب الحديث وغيرها والذي نجده في رسائل صدر الإسلام . فهو يبدأ بالسلام وحمد الله على طريقة المتقدمين ثم يدعوه للمخاطب ولنفسه وبعد هذا كله يعرض موضوع الرسالة .

«سلام عليك ، فإنني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو (بعد) عافانا الله وإياك وأحسن لنا العاقبة في الدنيا والآخرة ، قد بلغني كتابك تذكر فيه من صلاح حالم الذي يسرني ، فأدّام الله ذلك بك وأنتي بالعون على شكره ، والزيادة من إحسانه ، وذُكرت نظرك في الكتب التي بعثت بها إليك ، وإقامتك إياها ، وختّمت عليها بخاتمك ، وقد أتنا

بجزاك الله عما قدمت منها خيراً، فإنها كتب انتهت إلينا عنك، فأحببت أن أبلغ حقيقتها بنظرك فيها، وذكرت أنه قد أنشطك ما كتبت إليك فيه من تقويم ما أتاف عنك إلى ابتدأ بالنصيحة، ورجوت أن يكون لها عندي موضع وأنه لم يمنعك من ذلك فيما خلا إلا أن يكون رأيك فينا جميلاً، إلا أنني لم أذاكرك مثل هذا، وأنه بذلك أتفى بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندكم، وإنني بحق على الخوف على نفسي، لاعتمادمن قبل على ما أفتتهم به، وأن الناس تبع لأهل المدينة التي إليها كانت الهجرة، وبها نزل القرآن، وقد أصبحت بالذى كتبت به من ذلك إن شاء الله تعالى، ووقع مني بالموقع الذى تحب، وما أجد أحداً ينسب إليه العلم أكره لشواذ الفتيا، ولا أشد تفضيلاً لعلماء أهل المدينة الذين مضوا، ولا آخذ لفتياهم فيما اتفقا عليه مني، والحمد لله رب العالمين لاشريك له».

ثم زراه بعد ذلك يحدثه في أمور فقهية خاصة، ويقى له فيها ومن هذا الخطاب يظهر لنا أثر ثقافة الليث، فهي ثقافة عربية خاصة، وثقافة دينية إسلامية تمثلها هذه المسائل الفقهية التي يتحدث عنها، ثم إننا لا نجد أثراً لهذه الجمل المسجوعة، ولا التكرار والخشو، ولا ذلك الإطناب الذي زراه في الرسائل التي تكلف أصحابها الزينة البدعية، فهذا خطاب ديني كتب بأسلوب على، هو هذا الأسلوب الذي زراه في كتب الفقه. ثم زراه يختتم خطابه بالدعاء لمالك، والسؤال عنه وعن آله وحاله، وأنا أحب توفيق الله إليك، وطول بقائك، لما أرجو لناس في ذلك من المنفعة، وما أخاف من الضيضة إذا ذهب مثلك، مع استثنائي بمكانك، وإن نأت الدار، بهذه منزلتك

عندى ورأى فيك فاستيقنه ، ولا تترك الكتاب إلى بمحبرك ، وحالك ،
وحال ولدك وأهلك ، وحاجة إن كانت لك ، أو لاحد يصل لك ،
فإن أسر بذلك . كتب إليك ونحن صالحون معاذون ، والحمد لله ،
نسأل الله أن يرزقنا وإياكم شكر ما أولانا ، و تمام ما أنعم به علينا
والسلام عليكم ورحمة الله ،^(١).

هذا هو إمام مصر الذي أسف الشافعى على فوات لقيه^(٢) ،
ولو كان تلاميذ هذا الإمام عنوا بعلمه وفقهه لكن له شأن آخر غير
هذا الشأن ، ولما أهمله الفقهاء وعلماء المسلمين لاسيما هؤلاء المصريين
الذين كان لهم أن يفخروا بعلمهم ، ويحتفظوا بعلمه ، ولكن كانت
المالكية مستأثرة بنفوس المصريين أو كما قال الليث « إن الناس تبع
لأهل المدينة التي إليها كانت الهجرة » ثم إن الليث لم يصنف من
الكتب كغيره من الفقهاء ، ولم يدون أصحابه المسائل عنه وهذا قال
الشافعى ضييع أصحابه^(٣) .

ومن أكبر تلاميذ الليث بن سعد ، إسحق بن الفرات صاحب
مالك وقاضى مصر والذى قال الشافعى عنه « ما رأيت بمصر أعلم
باختلاف الناس »^(٤) وقال ابن علية « ما رأيت بيلدكم أحداً يحسن
العلم إلا ابن الفرات »^(٥) وتوفي سنة ٤٢٠ھ . وكذلك إسحق بن
بكر بن مصرى المصرى وكان يجلس فى حلقة الليث ويفتى بقوله وتوفي

(١) نص هذا الخطاب فى كتاب اعلام المؤمنين لابن قيم الجوزية ، ج ٣ ، من ٢

(٢) طبع فرج الله ذكرى سنة ١٣٢٥ھ .

(٣) ابن خلkan ، ج ١ ، ص ٤٣٨ . (٤) الرحة الغوثية للمسقطانى ص

(٥) حسن المهاجرة ، ص ١٦٦ . (٦) السكنى ، ص ٣٩٣

سنة ٢١٨ هـ (١) وأحمد بن يونس بن عبد الأعلى الصدق وكان وكيل الليث ومحدثاً عنه (٢). ونستطيع أن نقول إن أكثر فقهاء مصر الذين عاصروا الليث أمثال عبد الله بن وهب وعبد الله بن عبد الحكم وأولاده قد تفتقروا بالليث بن سعد ولكنهم كانوا يؤثرون مذهب مالك على مذهبة.

المدرسة الشافعية :

قويت المدرسة المالكية في مصر كارأينا ، ولكن وفدا الشافعية على مصر وأقام بها ، فاجتمع له المصريون ، ومنهم كثير من أنصار مالك مثل محمد بن عبد الله بن عبد الحكم وغيره ، فانقسم المصريون بعد أن كادوا يجتمعون على آراء مالك ، فلما وجد بعض وجوه المصريين اختلاف التعاليم الشافعية عن المالكية رموا الشافعى بأشياء كثيرة ، من ذلك ما يرويه ابن خلkan عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم أنه قال « كنت أتردد إلى الشافعى ، فاجتمع قوم من أصحابنا إلى أبي - وكان على مذهب الإمام مالك - فقالوا له يا أبا محمد ، إن محمدآ ينقطع إلى هذا الرجل ، ويتردد إليه ، فيرى الناس أن هذا رغبة عن مذهب أصحابه ، فجعل يلاطفهم ، ويقول هو حدث ، ويحب النظر في اختلاف أقوایل الناس ومعرفة ذلك ، ويقول لي في السر يابني إلزم هذا الرجل » (٣).

ويحدثنا الكندي أن عيسى بن المنكدر - الذي تولى قضاء مصر

(١) حسن المعاشرة ، ص ١٦٧ . (٢) السكواكب السيارة ، ص ٨٣

(٣) ابن خلkan ، ج ١ ، ص ٤٥٦

من سنة ٢١٢ إلى سنة ٢١٤ هـ — كان يصبح بالشافعى ويقول له : يا كذا دخلت هذه البلدة وأمرنا واحد ، ورأينا واحد ، ففرقنا بيننا وألقيت بيننا الشر ! فرق الله بين روحك وجسمك ،^(١) .

وبحديثنا ياقوت أن رجالاً من أتباع مالك يسمى فتيان كار يناظرون الشافعى كثيراً فيظهر الشافعى عليه ، فضاق فتيان بذلك ، وشتم الشافعى شيئاً فشيئاً ، فلم يرد عليه الشافعى ، وتعصب قوم لفتيان ، فقصدوا حلقة الشافعى حتى خلت من أصحابه ، وبقى وحده ، فهمموا عليه وضربوه ضرباً مبرحاً ، فحمل إلى منزله ولم يزل فيه عليل حتى مات^(٢) .

وهكذا انقسم المصريون بين فقه المالكية والشافعية : واشتد النزاع بين المدرستين ، حتى أدى الأمر إلى وقوع مناقشات عنيفة بل إلى قتال أحياناً ، فقد جاء في كتاب المغرب « وفي سنة ٣٢٦ هـ عاد أصحاب مالك والشافعى إلى القتال في المسجد الجامع العتيق ، وكان في الجامع للمالكين خمس عشرة حلقه ، وللشافعية مثلها ، ولاصحاب أبي حنيفة ثلاثة حلق ، فلما زاد قتالهم أرسل الأخشيد وزع حصرهم ومساندهم وأغلق الجامع ، وكان يفتح في أوقات الصلوات ، ثم مثل الأخشيد فيهم فردهم ،^(٣) .

من ذلك نستطيع أن نقول إن المدرسة الشافعية استطاعت أن تتفادى المدرسة المالكية بمصر ، وقد هيأت الشافعية جواً جديداً في العلم لم تتعهد به مصر من قبل ، إذ استطاعت أن تناقش المذاهب الأخرى

(١) السكندي ، ص ٤٣٨ (٢) معجم الأدباء ، ج ٦ ، ص ٣٩٥

(٣) المغرب في أخبار المغرب ، ج ٤ ، ص ٢٤

وأن تناظرها ، فابتدأت أذهان المصريين تتبه هذه المجادلات العنيفة والمناظرات العلمية . ونحن إذا قرأنا كتاب الرسالة الذى بين أيدينا وهو كذا يقول المؤرخون مكتوب في مصر ، نجد الشافعى يستعمل فيه أحيانا طريقة المنازلة ، فيتخيل شخصاً يعارضه في تفسير نص أو فتوى ، فيجيبه ويفند آراءه حتى يلزمـه الحاجة ، ويقنـعـه برأـيه ، وطريقة المنازلة هذه لم تعرف قبلـه في مصر ، ولم نجد لها أثراً قبلـ الشافعى ، بل هي من آثار دراسة الشافعى في العراق والمحاجـانـ، حيثـ كثـرـ المتكلـمونـ وأصحابـ المذاهـبـ ، وتشـبـعتـ الآراءـ ، وـكـثـرـ الجـدلـ بينـ الطـوـائفـ الإـسـلـامـيـةـ وـغـيـرـهـاـ منـ المـذاـهـبـ الـدـيـنـيـةـ الـأـخـرـىـ ، كـمـناـظـرةـ الشـافـعـىـ وـمـحـمـدـ بـنـ الـحـسـنـ الشـيـبـانـىـ ، وـالـشـافـعـىـ وـابـنـ عـلـيـهـ ، وـنـجـدـ الـخـلـفـاءـ الـعـبـاسـيـنـ وـوزـارـاهـمـ يـحـضـرونـ هـذـهـ الـمـنـاظـرـاتـ وـيـقـيمـونـهـاـ عـنـهـمـ ، أـمـاـ فـمـصـرـ فـقـدـ رـأـيـناـ كـيـفـ كـادـ الـمـصـرـيـوـنـ يـعـتـقـونـ مـذـهـبـاـ واحدـاـ ، وـلـمـ تـكـنـ بـمـصـرـ مـنـاظـرـاتـ كـثـيرـةـ تـشـغـلـ الـعـلـمـاءـ وـرـجـالـ الدـوـلـةـ كـاـكـاـنـ فـالـعـرـاقـ ، وـنـرـىـ بـعـضـ أـمـرـاءـ مـصـرـ لـاـ يـجـبـونـ أـنـ تـقـامـ مـنـاظـرـاتـ بـيـنـ الـعـلـمـاءـ أـمـامـهـمـ ، فـقـدـ قـيلـ إـنـهـ تـنـازـعـ أـبـوـ بـكـرـ بـنـ الـحـدـادـ الـفـقـيـهـ وـبـكـرـ بـنـ مـحـمـدـ الـقـاضـىـ الـمـالـكـىـ وـعـبـدـ اللهـ بـنـ الـوـلـيدـ ، وـجـرـىـ لـيـنـهـمـ لـغـطـ كـثـيرـ فـيـ حـضـرـةـ الـأـخـشـيدـ ، فـلـمـ اـنـصـرـ فـوـاـ قـالـ «ـيـجـرـىـ هـذـاـ فـيـ جـلـسـىـ كـدـتـ وـالـهـ أـنـ آـمـرـ بـأـخـذـ عـمـائـهـمـ »^(١) ، وـمـهـماـ يـكـنـ مـنـ شـيـءـ فـالـشـافـعـىـ هـوـ الـذـىـ شـجـعـ رـوـحـ الـمـنـاظـرـ الـعـلـمـيـةـ فـيـ مـصـرـ ، فـكـانـ مـنـاظـرـ بـعـضـ الـمـصـرـيـنـ لـيـسـتـقـيدـ مـنـ عـلـمـهـ ، كـاـلـذـىـ يـرـوـيـهـ السـيـوطـىـ

أن الشافعى كان يقول للريبع بن سليمان ياربيع أدع لى سرجا —
يريد سرج الغول وهو رجل من أهل مصر عالم باللغة ولا يقول
أحد شيئاً من الشعر إلا عرضه عليه — فيأتي به ، فيذاكره ويناظره ،
ثم يقوم سرج الغول فيقول الشافعى ياربيع ، نحتاج أن نستأنف
طلب العلم^(١) . كما كان يناظر مخالفيه من الفقهاء ، كالذى يرويه
صاحب تاريخ بغداد أن صالح بن أبي صالح كاتب الليث بن سعد
قال : كنا مع الشافعى في مجلسه فجعل يتكلم في ثبيت خبر الواحد
عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فكتبناه وذهبنا به إلى إبراهيم بن إسماعيل
المعروف بابن علية — وكان أحد المتكلمين ومن يقول بخلق القرآن
وكانت له مع الشافعى مناظرات في بغداد ، وكان مجلسه بمصر عند
باب الضوال — فلما قرأنا عليه جعل يحتاج لإبطاله فكتبنا ما قال
ابن علية ، وذهبنا به إلى الشافعى فنقضه الشافعى ، ثم كتبنا ما قال
الشافعى ، وذهبنا به إلى ابن علية ، فجعل يحتاج بإبطال ما قال الشافعى
فكتبناه ، ثم جتنا به إلى الشافعى فقال إن ابن علية ضال قدجلس عند
باب الضوال يصل الناس^(٢) . وكان من أثر مناظرات الشافعى مع
ابن علية أن وضع ابن علية وعيسى بن أبان كتاباً عن الشافعى
والرد عليه ، ورد عليهما داود بن على الأصبهانى^(٣) . وهكذا أخذ
المصريون يؤلفون كتاباً في المذاهب والدفاع عنها ، وأخذوا عن
الشافعى طريقته في الكتابة العلمية إذ كان يأتي بالآية أو الحديث
ويشرحه ، ثم يستبط منه ما ينتهي إليه رأيه ، وكان يختار من

(١) بني الوعاء ، ص ٢٥٢ (٢) تاريخ بغداد ، ج ٦ ، ص ٢٠

(٣) شرحه ، ج ٦ ، ص ٢٢

الآلفاظ الجياد الدقيقة ماتلأتم المعنى ، وجاء تلاميذ الشافعى خفولوا
العبارة إلى نصوص علبية ، مخدوفة السند ، كالمى زراها فى مختصر
المزفى، مثلاً ، فقد أخذ كلام الشافعى وفهمه وكتبه على طريقة أستاده
دون أن يأتى بالأسانيد ، فوجدت بذلك روح الكتابة عند المؤلفين
المصريين .

وكان كتاب « الأم » مثالاً يحتذى به رجال المدرسة الشافعية فى
كتاباتهم ، وهذا الكتاب ليس كتاباً واحداً ، بل هو مقسم إلى عدة
كتب ، وفي كل كتاب موضوع خاص . وكما قلت كان يأتى بالآلية
أو الحديث فيفسره ، ويعلق عليه بجمل قصيرة متينة التركيب
والأسلوب ، وفي مقدمة الرسالة نجد الشافعى يبدأ قوله بالحمد ، ويكرر
في ذلك ، وهذه الطريقة ليست مصرية ، بل هي طريقة عبد الحميد
الكاتب ، واستعملها كتاب العراق فى رسائلهم المطولة ثم زراه بعد
ذلك يستطرد فى الموضوع الواحد ، فبينما هو يحمد الله يذكر آية أو
نصأ ويفسرها ، ثم يعود إلى الحمد مرة أخرى ، ويكرزه بالعاطف ،
وقد أكثر من الاستطراد وأطال ، ثم يصلى ويسلم على النبي فى
الديباجة ، وهذه الصلاة وذلك التسليم لم يوجدا فى الرسائل والكتب ،
حتى جاء الرشيد فاستعمل ذلك فى رسائله ، حتى عدت من مناقب
الرشيد وقد اتبعها الكتاب بعده .

والشافعى كان فصيحاً فى تعبيراته وألفاظه ، فكان لذلك أثره فى
تلاميذه الذين أخذوا ما كتب ورووا عنه ما قال حتى اختلف

الكتاب أخيراً في كتاب « الأم »، فهو للشافعى أم للبوسطى
تلميذ الشافعى^(١).

والذى أراه أن تلاميذ الشافعى رروا ما في الأم عنه ، وجمع
البوسطى مارواه عن الشافعى ، وسماه الأم ، فالشافعى نفسه — في
أغلب الزمن — لم يسم كتابه الأم ، بل كان يعلى على تلاميذه دروساً
مقسمة إلى السكتب أو النصوص التي يتكون منها الأم فسماها البوسطى
الأم . كذلك كان الأمر في كتاب الأصول لآبى حنيفة ، فإن آبا
الحسن الشيدانى هو الذى جمع ما في الأصول وسماه بهذا الاسم ،
ولكنا نلاحظ أن الشافعى كتب بعض فصول الأم بنفسه ، وروى
الربع بعضها عنه وإنما فالشافعى هو صاحب الكتاب وتلاميذه هم
الذين جمعوه ورتبوه حتى أخذ مظهره الحالى .

وكما أثر الشافعى في المصريين تأثيراً حسوساً ، كذلك زراه يتأثر
بالحياة المصرية نفسها ، فالشافعى كان من مدرسة الحديث أولى من
تلاميذ مالك ، وقد هاجم مدرسة الرأى — آبى مذهب آبى حنيفة —
أثناء زيارته للعراق ، ولكنا نجده في مصر يهاجم مدرسة الحديث
ممثلة في مذهب مالك ، ويكتون مذهبة الجديد في مصر . كذلك زراه
قد كتب الرسالة مرتين ، كتبها أولاً في العراق ، ثم أعاد كتابتها في
مصر بعد أن غير فيها بعض التغيرات التي تلائم الحياة المصرية ،
وكذلك نقول عن مذهبة فهد كتبه مرتين ، كتب في العراق مذهب
القديم ، وكتب في مصر مذهبة الجديد ، ويستطيع رجال الفقه أن
يفرقوا بين المذهبين لو قدر للمذهب القديم البقاء .

(١) راجع بحث الدكتور زكي مبارك عن كتاب الأم (مطبعة جهازى عصر
سنة ١٩٣٤).

أما تلاميذ الشافعى الذين كان لهم الفضل في حفظ مذهبهم ونشره فقد عدم الحافظ السلفي في قصيدة نظمها هي (١) :

فعليك يامن رام دين محمد بالشافعى وما تلاه وقالا
أعني محمداً بن إدريس الذى فاق البرية رتبة وكالا
وأجب كذا عن صحبه وأحبهم وأجلهم لله جل جلالا
فأجلهم شيخ الأئمة أحمد (٢) فيما رواه من الحديث وقالا
والأخىنى (٣) ويونس الصدقى (٤) والـ

حزفى (٥) آخر من إليه مala

(١) السكواكب السيارة في ترتيب الزيارة لابن الزيات ، من ١٥١

(٢) يقصد الإمام أحمد بن حنبل صاحب المذهب المعروف .

(٣) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الكرم بن أبي عبيدة بن ليث ولد سنة اثنين وعشرين ومائة وتوفي سنة ٢٦٨ سمع من ابن وهب وأشهر ثم صحب الشافعى وتفقه به وحمل في محنة خلق القرآن إلى القاضى بن أبي داؤد ببغداد ثم رد إلى مصر وانتهت إليه رياضة المالكية بعد وفاة أبيه والشافعى وله كتاب السنن على مذهب الشافعى .

(٤) يونس بن عبد الأعلى بن موسى الصدقى المصرى روى عن ابن عيينة وتفقه على الشافعى وقرأ على ورش وتصدر الأفراء والفقه ولد سنة ١٧٠ ومات سنة ٢٦٤ وروى عنه مسلم والنسائى وابن ماجة وكان الشافعى يقول عنه مارأيت ينصر أعلم من يونس بن عبد الأعلى (ابن خلkan ، ج ٢ ، ص ٤١٨) .

(٥) أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل بن عمرو بن إمسح المزني يعتبر إمام الشافعيين وأعترفهم بطرق الشافعى وفتاويمه صنف كثيرة في مذهب الشافعى منها الجامع الكبير والصغرى والختنصر وختنصر الخنزير والمتنور والسائل المعتبر وغيرها وكتابه الخنزير أصل الكتب المعتبرة في مذهب الشافعى وعلى مثاله كتب المؤلفون أو فسروا ما فيه (ابن خلkan ، ج ١ ، ص ٧١ وال فهوست ، ص ٢٩٨ — ٢٩٩) ويقول السيوطى إن الشافعى قال في المزني إنه أو ناظر الشيطان لقلبه (حسن الحاضرة ، ج ١ ، من ١٦٨) ولد سنة ٩٧٥ وتوفي سنة ٢٦٤ .

وكذا حرملة ^(١) بن يحيى و
بوطي ^(٢) الذي قد أبغز الإشكالا
واذكر أبو ثور ^(٣) فقيه عراقه
وفريدها والحارث القalla
ثم الريغان ^(٤) اللذان تفتنا
في فقهه وتحمله الانقالا

(١) حرملة بن يحيى بن عبد الله التنجي أبو حفص المصري كان له مذهب
لنفسه وصنف المبسوط والختنصر وروى عن مسلم وأبي ماجة ولد سنة ١٦٠ ومات
سنة ٢٤٣ (حسن الحاضرة، ج ١، ص ١٦٨).

(٢) أبو يعقوب يوسف بن يحيى المصري البوطي سمع من عبد الله بن وهب
والشافعى وسمع منه كثيرون منهم أبو إسماعيل الترمذى وإبراهيم بن إسحاق الحرسى
وفي تاريخ بغداد أن الشافعى لما مرض مرضه الذى مات فيه جاء محمد بن عبد الحكيم
ينازع البوطي فى مجلس الشافعى فاحتكم إلى أبي بكر الحيدرى فقال لها إنه سمع الشافعى
يقول ليس أحد أحق بخطبى من يوسف بن يحيى (يعنى البوطي) وليس أحد
من أصحابى أعلم منه ، وجلس البوطي فى مجلس الشافعى (ابن خلـكان، ج ٢،
ص ٣٤٦) وكان ابن أبي الليث الحنفى قاضى مصر يمحشه ، فسعى به إلى الواقع
بانه أيام محنـة خلق القرآن فأمر بحمله إلى بغداد ، فلولا مقيدا وأربـد منه القول
بذلك فامتنع فحبس فى بغداد إلى أن مات فى القيد والسجن يوم الجمعة من رجب
سنة احادى وثلاثين ومائتين (حسن الحاضرة، ج ١، ص ١٦٧) والبوطي
كتاب الختنصر الكبير والصغير وكتاب الفرائض (ابن النديم، ص ٢٩٨).

(٣) أبو ثور ابراهيم بن خالد بن أبي اليمان السکلى الفقيه الغدادى صاحب
الاماـم الشافعى ونافـل الأقوال القدـيمة عنه له الكتب المصـفة فى الأحكـام جـمـع فـيهـا بينـ
الـحدـيـث والـقـوـةـ وـكـانـ أـوـلـ اـشـتـقـالـهـ يـذـهـبـ أـهـلـ الرـأـىـ حـتـىـ قـدـمـ الشـافـعـىـ الـعـرـاقـ
فـاخـتـلـفـ إـلـيـهـ وـاـبـعـهـ وـلـيـكـهـ خـالـفـهـ فـأـشـيـاءـ وـأـحـدـتـ لـنـفـسـهـ مـذـهـبـاـ اـشـتـقـهـ مـنـ
مـذاـهـ الشـافـعـىـ وـلـهـ مـبـسوـطـ عـلـىـ تـرـيـبـ كـتـبـ الشـافـعـىـ وـأـكـثـرـ أـهـلـ أـذـرـيـجـانـ
وـأـوـبـيـنـيـ يـتـفـقـهـوـنـ عـلـىـ مـذـهـبـهـ (الفـهـرـسـ مـ ٢٩٧ـ) وـتـوـقـ سـنـةـ ٢٤٠ـ

(٤) هـاـ الرـيـغـمـ بـنـ سـلـيـمـانـ الـمـارـادـىـ وـالـرـيـغـمـ بـنـ سـلـيـمـانـ بـنـ دـاـوـدـ الـأـزـدـىـ الـجـيـزـىـ =

والزغفرانى (١) الصدوق ورهطه

في كل قطر وأعرف الأبطالا

وأول قاض شافعى ولى مصر هو أبو زرعة محمد بن عثمان بن ابراهيم الثقفى وللى القضاة سنة ٢٨٤ هـ ولما عزل رجع إلى دمشق ، وكان الغالب على أهلها قول الأوزاعى ، فأبو زرعة هو الذى دخل مذهب الشافعى دمشق ، وتبعد من بعده كثير من القضاة (٢) ، وقيل إن أبا زرعة شرط لمن يحفظ مختصر المزف مائة دينار يهبها له (٣) .

— أما الريبع المرادى فهو أبو محمد الريبع بن سليمان بن عبد الجبار بن كامل المرادى المؤذن المصرى وهو الذى روى أكثر كتب الشافعى وقال الشافعى في حفظه « الريبع راوبى » (ابن خلسان ، ج ١ ، ١٨٤ من ١٨٤) وكان الريبع المرادى أقدم أصحاب الشافعى ينصر صحبة وأشهرهم محبة له (السكواكب السيارة من ١٢٢) روى عنه أصحاب السنن الأربع والطحاوى وأبو زرعة وغيرهم وكان على الحديث عباقر ابن طولون وهو أول من أملى به وتوفي سنة ٢٧٠ (حسن المخاضرة ، ج ١ ، ١٩٦ من ١٩٦) .

أما الريبع الجيزى فهو أبو محمد الريبع بن سليمان بن داود بن الأءرج الأزدى الجيزى ساحب الإمام الشافعى ولما كان قليل الرواية عنه وأكثر روايته عن عبد الله بن عبد الحكم وروى عنه أبو داود والنسائى وغيرهما وتوفي سنة ٢٥٦ بالجيزه وهو الذى ينسب إليه جمع الأم وتربيته بعد البوسطى ونلاحظ أن أم الريبع تكرر كثيراً في كتاب الأم فبنسب الأمر على القارئ من من الربيعين هو المقتصود وقد وفق الأستاذ زكي مبارك إلى التفرقة بين الريبع المرادى والريبع الجيزى في بحثه عن كتاب الأم من ٧٣

(١) أبو عبد الله الحسن بن محمد بن الصباح روى المبسوط عن الشافعى على ترتيب ما رواه الريبع وخالق فى شئونه يسير ولذا لا يعتمد عليه الفقهاء بل يعتمدون على ما رواه الريبع وقد صانع أكثر كتب الزغفرانى وتوفي سنة ٢٦٠ هـ (الهرست من ٢٩٢) .

(٢) الكلدى : القضاة والولاة من ٥٢٣ ورفع الإصر عن قضاه مصر لأن حجر نسخة خطية بدار الكتب المصرية .

(٣) تاريخ الإسلام للذهبي نسخة خطية بدار الكتب المصرية .

وهناك قاض آخر كان له أثره في الأدب والفقه هو أبو عبيد
علي بن الحسين بن حرب المعروف بمحربويه وهو من أهل بغداد
ودخل مصر في شعبان سنة ثالث وتسعين ومائتين من الهجرة وظل
فاعنياً على مصر إلى أن عزل سنة إحدى عشرة وتلثمانة نخرج من
مصر إلى بغداد حيث توفي سنة تسعة عشرة وتلثمانة من الهجرة .
حدث عن النسافي ، وتفقه على أبي ثور صاحب الشافعى ، وحدث
في زمن ولاته ، فلما صرف أملى على المصريين وكتبوا عنه مجالس ،
وروى عنه أبو جعفر الطحاوى وأبو بشر الدوابى ، وكان له مركز
قيم في مصر حتى أنهم أخذوا أقواله أمثالاً كقوله « إن البغاث بأرضكم
يستنصر » ، قال الطحاوى كنت أذكر عنده ابن أبي عمران الخنفى
فقال لي « إلى كم تقول ابن أبي عمران ، قدرأيت هذا الرجل بالعراق ،
« إن البغاث بأرضكم يستنصر » ، قال فصارت هذه الكلمة بمصر مثلاً^(١) .
وقال الطحاوى أيضاً كان أبو عبيد إذا كرني بالمسائل ، فأجبته يوماً
في مسألة ، فقال لي ما هذا قول أبي حنيفة ، فقلت له أنها القاضى أو كلما
قاله أبو حنيفة أقول ، قال : ما اظنتك إلا مقلداً ، فقلت له : وهل
يقلد إلا عصبي فقال لي أو غبي ، فطارت هذه الكلمة بمصر حتى
صارت مثلاً^(٢) . وكانت توقيعات أبي عبيد تخرج معرونة مختومة
وكتبت بمصر ألفاظه ، وجمعت توقيعاته وكانت محشوة فهماً وبلاهة^(٣)
ولكن فقدت كل هذه التوقيعات ولم يبق منها شيء .

(١) السكندي ص ٥٢٩ (٢) السكندي ص ٥٢٨

(٣) رفع الامر عن قضاة مصر لابن حجر .

المدرسة الحنفية :

وضع الإمام أبو حنيفة النعمان مذهبه متأثراً بما كان في العراق من مذاهب المتكلمين وأهل الرأى ، وقد رأينا المصريين لا يقبلون من المذاهب والآراء إلا ما كان صادراً من المدينة أو مكة ، فلابد أن المصريين اهتموا كثيراً بمذهب أبي حنيفة في أول الأمر ، إنما نقل المذهب إلى مصر القضاة الذين كانوا يعينون من العراق ، ولعل أول قاض تولى مصر من دان بمذهب أبي حنيفة هو اسماعيل بن اليسع السكندي (١) الذي ولى سنة ١٦٤ هـ ، وقد كرمه المصريون لأنهم كان يذهب بمذهب أبي حنيفة ، ولم يكن أهل مصر يعرفون هذا المذهب (٢) حتى أن الليث بن سعد كتب إلى الخليفة يطلب عزل هذا القاضي ، ويقول « إنك وليتنا رجلاً يكيد سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بين أظهرنا ، مع إنا ما علمناه في الدينار والدرهم إلا خيراً ، فاضطر الخليفة إلى عزل القاضي (٣) ».

وأشهر قعناء مصر الحنفيين في ذلك الوقت ، هو القاضي بكار ابن قتيبة بن عبيد الله بن أبي برذعة من نسل ابن أبي بكرة الثقفي مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه . ولد بكار بمدينة البصرة وأخذ الفقه عن هلال بن يحيى ، وعيسي بن أبان وغيرهما من مشايخ البصرة ، وروى عنه أبو داؤد السجستاني ، وابن خزيمة ، وأبو عوانة وأكثر عنه الإمام الطحاوي فقيه الحنفية بمصر وغيرهم.

(١) ذكر في حسن المخاضرة ، ج ١ ، ص ٢٦٣ اسماعيل بن سبيع .

(٢) السكندي ، ص ٥٧١ (٣) تاريخ الاسلام للذهبي

ولى قضاء مصر من قبل الم وكل ، فدخلها سنت ست وأربعين و ماتين من الهجرة ، وكان يحدث في المسجد الجامع ، وكثيراً ما كان أَحْمَدْ ابن طولون أمير مصر يجيء إلى بكار وهو على الحديث فما يشعر به بكار إلا وهو جالس إلى جنبه ^(١) . ويدرك ابن حجر عن ابن زولاق أنه كان لبكار اتساع في العلم والمناظرة ، ولما رأى مختصر المزني ، وما فيه من الرد على أبي حنيفة شرع هو في الرد على الشافعى ، فقال لشاهدين من شهوده إذهبوا إلى المزني فقولا له سمعت الشافعى يقول مافي هذا الكتاب ، فضلاً وسمعاً المختصر كله من المزني ، وسألاه عما إذا كان هذا كلام الشافعى ، فرد بالإيجاب ، فعادا إلى بكار فأخبراه بذلك ، فقال : الآن استقام لنا أن نقول قال الشافعى ثم صنف الرد المذكور ^(٢) .

وكان بكار يشتهى أن يسمع كلام المزني ، فاجتمعا يوماً في جنازة ، فأشار بكار إلى أبي جعفر التل — وكان حنفيأً أيضاً — أن يسأل المزني عن مسألة ، فقال التل : ما رأيت أَعْجَبَ من أصحابنا الشافعيين ، لهم أحاديث في تحريم قليل النيء ، ولنا أحاديث في تحليله فلن جعلهم أولى بأحاديثهم منا بأحاديثنا ؟ فقال المزني : ليس يخلو أن يكون أحاديثكم قبل أحاديثنا أو بعدها ، فإن كانت قبلها فهكذا نقول إنها كانت محللة ثم حرمـت ، فما تحتاج إلى أحاديثكم ، وإن كانت أحاديثكم بعد أحاديثنا فهذا لا يقول أحد أنها كانت حلالاً ثم صارت حرمة ثم حللت ! فأشجب بكار بقول المزني ، وقال سبحان الله أن

(١) شرحه .

(٢) رفع الإصر .

يكون كلام أدق من الشعر فهو هذا^(١) وكان بكار يخالف أصحابه في تخليل قليل النبأ ويدعوه إلى تحريره.

ظل بكار قاضياً على مصر، ويحدث المصريين بمذهب أبي حنيفة حتى دعاه ابن طولون إلى خلع الموقق ولعنه، فرفض بكار خبره ابن طولون، ولما طال حبسه طلب أصحاب الحديث إلى الأمير أن يأذن لهم في الساع منه، فأذن لهم، فكان بكار يحدّثهم من طاق في السجن إلى أن توفي سنة ٢٧٠ هـ.

أما الطحاوي فهو يعد إمام المصريين، في مذهب الحنفية لكثرته تلاميذه وخصب تاجه، ولد سنة ثمان وثلاثين وما تئن من الهجرة، وصاحب المزني الشافعى وتفقه به ثم ترك مذهب الشافعى وصار حنفياً، وكان كتاباً للقاضى بكار، وسمع الحديث منه ومن خلق من المصريين، ومن الغرباء القادمين، وتوفي سنة ٥٣٢ هـ، بعد أن ترك عدة كتب في الفقه، أولئك الناس بها لاسيما كتابه «المختصر في الفقه»، الذى وضع له الفقهاء شرحاً عدداً.

واشتهد تناقض المذاهب فى مصر فإذا قلد قاض شافعى كاد لاصحاب المذاهب الأخرى، كالقاضى اسماعيل بن عبد الواحد المقدسى الذى ولى سنة ٣٢١ فقد تحدث مع الأمير تكين ببعث صاحب الشرطة فأقام من كان بالجامع الكبير من المالكين والحنفيين^(٢). ويروى ابن حجر عن ابن زولاق أن الأخشيدية كلها كانت تكره ابن الحداد الفقيه لكره اهتمامه فى الشافعية^(٣). وأمر

(١) السكندي ص ٥١١ (٢) السكندي ص ٥٤٤

(٣) رفع الإمبر ، والسكندي ص ٥٥٥

القاضي الحارث بن مسکین ياخراج أصحاب أبي حنيفة من المسجد وأصحاب الشافعى وأمر بنزع حصرهم^(١). وروى скندى أن القاضى ابن أبي الليث اتهز مخنة خلق القرآن فأوقع بأصحاب مالك والشافعى ومنع فقهاءهم من الجلوس في المسجد ومدحه الشاعر الحسين الجل الأكبر بذلك^(٢).

النحو في مصادر :

مضى القرن الأول من الهجرة ولم نعرف أنه كان بمصر نزعة صوفية لها شعائرها وتقاليدها الخاصة المعروفة حتى كان أواخر القرن الثاني ظهر ذو النون المصرى أبو الفيض ثوبان بن ابراهيم ، كان من إخheim من أسرة نوبية ، ولا ندرى عنم أخذ هذا اللون من التبعيد فقد قيل إن أستاذه شقران العابد وقيل عن فاطمة النيسابورية وقيل إنه كان يتصل بالرهبان في الأديرة فأخذ عنهم الرهد والنقطاع عن ملاد الحياة والإقبال على العبادة والتلقاف في الحب الإلهي ، وأنه أخذ عن هؤلاء الرهبان شيئاً من العلوم الفلسفية التي خلفتها الغنوسية والأفلاطونية الحديثة فأدخل ذلك كله في تعبيراته عن جبه الإلهي والمعرفة ، وقيل إن بعض الرهبان الذين اتصل بهم كانوا يقرأون النقوش المصرية القديمة ، وأطلعوا ذا النون عليها ، وعلموه أسرارها فكان يذهب إلى البراد ويحاول فك طلامسها ورموزها ، وكان ذو النون صاحب خيال رائع فليس بعيد أن يستفيد ذو النون من هذه الرموز بما يغذى خياله ويوحي إليه بما

(١) скндى س ٤٦٩ (٢) скндى س ٤٥٠

زاه في أقواله وأفعاله وأشعاره من تفان في الذات الإلهية ، كل هذه خلافات حول المنبع الذي استقى منه ذو النون . ولا نستطيع أن نرجح إحداها لغموض شخصية ذى النون نفسه ولأن ما بقى لنا من آثاره لا تكفي لأن نحكم عليه حكما صحيحا أو قريبا الصحيح ، ومهما يكن من شيء فإن ذا النون روى الموطأ عن مالك ولكنه قام يدعوا إلى طريقته في الخصم وتبعه حلق كثير ، ولكنه رمى بالزنقة لأنه ابتدع في مصر الإسلامية ما لم يكن معروفا من قبل ، ورفع علماء الخصم أمره إلى والي مصر الذي حاكمه أمام عبد الله بن عبد الحكم زعيم المدرسة المالكية بمصر ، ومن الطبيعي أن تختلف نزعة ذى النون عن نزعة الفقيه عبد الله بن عبد الحكم ، وتاريخ الإسلام مليء بالنزاع بين الصوفية والفقهاء ذلك أن الفقهاء يميلون دائما إلى ظاهر القرآن والسنن النبوية والعناية باستخراج الأحكام منها حسب ما تؤديه اللغة والاستدلال المنطق ثم يراغون دائما أن يقسموا الأعمال إلى أركان وفرض وأعمال ؛ أما الصوفية فلا يفرقون بين واجب ومسنون وإن الأعمال الظاهرة ليست بذات قيمة بجانب الباطن ، ولكل فرض من فرائض الدين أسرار ولكل شعار من شعائر الدين رموز ويفضلون الطهارة القلبية قبل كل شيء ولتضارب النزاعتين سمي الفقهاء أنفسهم رجال الشريعة وسمى الصوفية أنفسهم رجال الحقيقة ، ولما كانت الصوفية جديدة في الحياة الإسلامية المصرية في القرن الثاني والثالث من الهجرة وكانت الصوفية مضطهدة في كل بقاع العالم الإسلامي ويكتفى أن نذكر قصة الحالج والمحاسبي مع أحمد بن حنبل وغيرها وكان ذو النون أول صوفي اضطهد في مصر

بسبب نزعته ، فترك مصر ورحل إلى بلاد عديدة كبلاد المغرب والخجاز واليمن ، وبعد أن هدأت الحالة عاد إلى مصر بعد أن توفي عبد الله بن عبد الحكم ، ولكن ثار الفقهاء ضده من جديد وكان قاضي مصر إِذ ذاك محمد بن أبي الليث الذي امتحن المصريين بخلق القرآن ، فأراد ذو النون أن يهرب من مصر مرة أخرى ولكنَّه لم يفعل ، فقبض عليه وأُرسَل إلى بغداد فقييد وسيق إلى المطبق والناس يكرون حوله وهو يقول هذا من مواهب الله تعالى ومن عطياته وكل فعاله عنده حسن طيب وأنشد .

لَكْ مِنْ قَلْبِي الْمَكَانُ الْمَصْوُنُ
كُلُّ يَوْمٍ عَلَى فِيكَ يَهُونُ
لَكْ عَزْمٌ بِأَنْ أَكُونْ قَتِيلًا
فِيكَ وَالصَّبْرُ عَنْكَ مَا لَا يَكُونُ
وَكَانَ بَعْضُ رِجَالِ حَاشِيَةِ الْمَتَوَكِلِ اعْتَقَ الصَّوْفِيَّةَ ، فَسَعَى فِي
إِطْلَاقِ سَرَاحِهِ ، فَأَحْضَرَهُ الْمَتَوَكِلُ وَتَأَثَّرَ بِوَعْظِهِ وَرَأَى أَنَّهُ لَيْسَ بِذِي
النُّونِ مَظَاهِرُهُ الْخَوْفُ عَلَى الدُّولَةِ أَوِ الدِّينِ ، فَأَطْلَقَ سَرَاحِهِ
وَبِذَلِكَ نَصَرَ الْمَتَوَكِلَ الصَّوْفِيَّةَ عَلَى الْفَقَهَاءِ مَتَأْثِرًا بِشَخْصِيَّةِ ذِي النُّونِ
وَتَوَفَّ ذِي النُّونَ بِمِصْرِ سَنَةَ ٢٤٨ .

وَكَانَ ذِي النُّونَ مِنْ أَوَّلِ الصَّوْفِيَّةِ الَّذِينَ اسْتَعْمَلُوا كَلْمَةَ الْحُبِّ
وَتَوَسَّعَ فِي مَعْنَى الْحُبِّ الإِلَهِيِّ وَفَسَرَةَ تَفْسِيرِ الْأَيَّازِ الْأَسَاسِ مِنْ أَسْسِ
الصَّوْفِيَّةِ إِلَى الْيَوْمِ . كَما قِيلَ أَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ تَكَلَّمَ فِي الْأَحْوَالِ وَالْمَقَامَاتِ
وَيُنَسِّبُونَ إِلَيْهِ أَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ وَسَعَ الْكَلَامَ عَنِ الْوَلَايَةِ وَبَحْثَ مِنْ أَيْمَانِهِ
أَفْضَلُ النَّبِيِّ أَمِ الْوَلِيِّ . وَكَذَلِكَ يُنَسِّبُونَ إِلَيْهِ كَلْمَةَ الْاِبْدَالِ وَأَنَّهُ
أَوَّلُ مَنْ فَصَلَ مَسَأَلَةَ الْمَعْرِفَةِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الآرَاءِ الصَّوْفِيَّةِ الَّتِي
نَرَاهَا الْيَوْمَ .

ولأول مرة في تاريخ مصر الإسلامية نجد شيئاً إسمه الصوفية
لهم كيان وتدخل في أمر البلاد ، ويقول الكندي^(١) وابن حجر :
كانت بمصر جماعة من الصوفية يأمرون بالمعروف وينهون عن
المنكر وكان عيسى بن المنكدر منهم ، فلما ولى القضاء كانت تأتيه
وهو في مجلس الحكم ثم أتت تلك الطائفة فقالوا : إن أمير المؤمنين
المأمون قد ولى أبو إسحاق بن الرشيد مصر وإننا نخافه ونخشى أن
يشد على أهل العداوة فاكتبه لنا كتاباً إلى المأمون بأنك لا ترضى
بوليته ففعل ذلك ابن المنكدر وبلغ الكتاب المأمون واطلع عليه
أبا إسحاق المعتصم فعزل ابن المنكدر عن قضاة مصر .

فهذا يدلنا على أن الصوفية أصبح لهم مكانة وعصبة في مصر
من ذلك كله نستطيع أن نقول إن الحركة الدينية بمصر كانت
حركة كبيرة قوية ، وأخرجت مصر عدداً كبيراً من القراء والمحدثين
والفقهاء ، بجانب هذه الحركة الأدبية التي سنتحدث عنها في الفصل
القادم .

(١) الولاة والقضاة ص ٤٤٠ ، وابن حجر في كتاب رفع الإصر عن
قضاة مصر .

الفصل الثاني

اللغة والتاريخ

النحو واللغويون

رأينا كيف قامت بمصر مدارس دينية خالصة ، استمرت منذ الفتح في نشاط ودأب ، ولم تر في القرن الأول أثراً لهذه الدراسات الأدبية واللغوية التي كلف بها العراقيون وغير العراقيين من الشعوب الإسلامية ، ولكننا نجد تطوراً في القرن الثاني الهجري ، إذ قامت بمصر دراسات أدبية ونحوية ولغوية ، واطردنوا هذه الدراسات حتى غمرت مصر وفاضت على غيرها من بلدان المغرب ، ونبغ عدد كبير من علماء المصريين ، وكثرت المؤلفات العلمية التي أفادت المصريين كما استفاد منها غير المصريين .

فنـ النـ حـاـةـ الـ ذـيـنـ كـانـ لـهـ أـثـرـ مـحـمـودـ فـيـ مـصـرـ بـنـوـ وـلـاـدـ ، وـأـشـهـرـهـ الـ وـلـيدـ بـنـ مـحـمـدـ التـيـمـيـ النـ حـوـيـ الـ مشـهـورـ بـوـلـاـدـ . كان الـ وـلـيدـ نـ حـوـيـاـ مـجـودـ ، روـىـ عـنـ القـبـنـيـ وـأـبـيـ زـرـعـةـ الـ مـؤـذـنـ كـتـبـ الـ لـغـةـ وـالـ نـ حـوـ ، وـأـصـلـهـ مـنـ الـ بـصـرـةـ ، وـنـشـأـ بـمـصـرـ ، وـدـخـلـ الـ عـرـاقـ ، وـلـمـ يـكـنـ بـمـصـرـ شـيـءـ مـنـ كـتـبـ الـ نـ حـوـ وـالـ لـغـةـ قـبـلـهـ ، وـأـخـذـ عـنـ الـ مـهـلـيـ تـلـيـدـ الـ خـلـيلـ بـالـ مـدـيـنـةـ شـمـ عـنـ الـ خـلـيلـ نـفـسـهـ⁽¹⁾ . وـتـوـقـيـ سـنـةـ ثـلـاثـ وـسـتـيـنـ وـمـاـتـيـنـ مـنـ الـ هـجـرـةـ

(1) بغية الوعاة من ٥٠٤

ومحمد بن ولاد التميمي الذى اخذ عن الدينورى النحو والأدب ، ثم رحل إلى العراق ، وأخذ عن المبرد وثعلب ، وكان يؤدب ابن صاحب خراج بغداد^(١) ، ولكنه عاد إلى مصر يعلم الناس ، ووضع كتابه « المنمق في النحو » توفي سنة ثمان وتسعين ومائتين من الهجرة وقد بلغ الحسين من عمره . ثم رحل ولده أبو العباس احمد بن محمد بن ولاد إلى العراق ، وأخذ النحو عن الزجاج ، وعاد إلى مصر وألف كتابه « المقصور والممدود » بها ؛ وكان الزجاج يعرف فضل احمد هذا ، ويثنى عليه عند كل من قدم مصر إلى بغداد ، فكان يقول لهم : لي عندكم تلميذ من صفتكم كذا وكذا . فيقال له : أبو جعفر النحاس فيقول : بل أبو العباس بن ولاد^(٢) وتوفي سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة من الهجرة وأبو العباس هذا أستاذ أبي عبدالله الربابى النحوى الاندلسى .

وكتاب المقصور والممدود هو الكتاب الذى نقده المتبنى في مصر كما عرض لنقده المبلى اللغوى النحوى على نحو ما سندكر في حدثنا عن المتبنى ، وقد طبع هذا الكتاب لأول مرة في مصر سنة ١٩٠٨ وقد بدأه ابن ولاد بحرف الآلف مخالف فى ذلك مذهب الخليل بن احمد وقد قال ابن ولاد في مقدمة هذا الكتاب من ذلك « ولعل بعض من يقرأ كتابنا هذا ينكر ابتداءنا فيه بالآلف على سائر حروف المعجم لأنها حرف معتل ولأن الخليل ترك الابتداء بها في كتابه كتاب العين ، وليس غرضنا في هذا الكتاب فيما تمسناه بهذا النوع من التأليف كفرض الخليل في كتاب العين لأن كتاب العين لا يمكن

(١) شرحه ص ١١٢

(٢) شرحه ص ١٦٩

طالب الحرف منه أن يعلم موضعه من الكتاب من غير أن يقرأه إلا أن يكون قد نظر في التصريف وعرف الزائد والأصل من المعتل والصحيح والثلاثي والرابعى والخامسى ومراتب الحروف من الخلق والسان والشفة وتصريف الكلمة على ما يمكن من وجوه تصريفها في اللفظ على وجوه الحركات والحاقة ما تتحمل من الزوائد بعد تصريفها بلا زيادة ويحتاج مع هذا إلى أن يعلم الطريق التي وصل الحاليل منها إلى حظر كلام العرب ، فإذا علم هذه الأشياء عرف ما يتطلب من كتاب العين والذى نذهب إليه في هذا الكتاب غير هذا المذهب لأننا نقصد إلى أن نقرب على طالب الحرف فيه ما يتطلبه وأن يستوى في العلم بموضعه منه العلم والمتعلم ، فلم نزاع أن يكون في أول الكلمة حرف أصل دون أن يكون زائداً أو زائداً دون أن يكون أصلياً أو صحيحاً دون أن يكون معتلاً أو معتل دون أن يكون صحيحاً ، فنكشف الطالب للحرف أن يعرف أولاً جميع ماذكرناه فلذلك بدأنا بالباب الذى يكون أول ما فيه من حروف المعجم الأول .

ثم أخذ ابن ولاد يفصل بين المقصور والممدود ويعدد أنواعهما على مذهب الكوفيين والبصريين ، هذا كله في مقدمة كتابه ثم يتبع المقدمة بالمقصور والممدود من اللفاظ العربية مرتبة حسب الحروف الأبجدية فكان يأتى بالكلمة ويشرح غريبها مستشهدآ بالأشعار القديمة حيناً وبالآيات القرآنية حيناً آخر وقد يأتى باشتقاد اللفظ بما يدل على سعة علم ابن ولاد بالعلوم العربية الخالصة حفظه للأدب القديم واللغة العربية . وقد ختم كتابه ببحث طويل اشتمل على كثير

من قواعد الصرف ، والذى ألاحظه على هذا الكتاب سلاسة أسلوبه وخلوه من التعقيد الذى نراه في كتب اللغة والصرف التي ألفت في العصور المتأخرة .

ووضع احمد بن جعفر الدينورى بمصر كتابه «المذهب في النحو» وصدره بالكلام عن الخلاف بين البصريين والковفيين ، وعزى كل مسألة إلى صاحبها^(١) . ولم يكن نحوياً فقط بل كان أدبياً يدرس هذا النوع من العلم ، فقرأ كتاب ابن قتيبة كلها على المصريين . وقد استفاد الأندلسيون من هذا الرجل ، كما استفاد منه المصريون ، فقد روى السيوطي أن محمد بن موسى ابن هاشم المعروف بالأفشين القرطبي رحل إلى المشرق ، ولقي بمصر أبا جعفر الدينورى ، وأخذ عنه كتاب سيفويه رواية^(٢) ، وكان الدينورى قد أخذ كتاب سيفويه بالبصرة عن المازفى وتتلذلذ للبرد^(٣) وتوفي سنة تسع وثمانين ومائتين .

أما أبو جعفر النحاس احمد بن محمد بن اسماعيل فقد نبغ في النحو واللغة ، وحذق القرآن وما يتعلق به ، وألف في ذلك كتاباً كثيرة ، نذكر منها كتاب «معانى القرآن ومنسوخه» ، كألف في النحو واللغة والأدب نذكر من ذلك كتابه «المبت捷 في اختلاف البصريين والkovfieen» ، و«أدب الكتاب» و«شرح المعلقات السبع» وكتاب «طبقات الشعراء» ، ويروى ابن خلkan أن أبا جعفر

(١) معجم الأدباء ج ١ من ٧٨٢

(٢) بغية الوعاء للسيوطى من ١٣٠

(٣) شرحه من ١٠٨

النحاس فسر عشرة دواوين وأملاها على تلاميذه بمصر ^(١). وكان في مصر محمد بن حسان النحوى الذى روى النحو عن أبي زرعة المؤذن وروى عن عبد الملك بن هشام مغازى ابن اسحق ومات سنة اثنين وسبعين ومائتين ^(٢).

وكذلك نسمع عن محمد بن اسحق بن أسباط الكندي أبي النضر المصرى النحوى ، أخذ عن الزجاج وله كتاب فى النحو سماه « العيون والنكت » وقال ياقوت : إنه نزل أنطاكية ثم صار إلى مصر وكان شيخ أهل الأدب بها ، وله تقدم فى المطق وعلوم الأولئ وله « المغنى فى النحو » ^(٣). وكذلك محمد بن عبد الله بن محمد بن سلم وهو المعروف بالملطى وكان نحوياً يعلم أولاد الملوك النحو ومات سنة ثلاثة وثلاثمائة ^(٤).

وبجانب هؤلاء الأدباء والعلماء المصريين الذين رحلوا فى طلب العلوم العربية ، نجد علماء العراق وغير العراق يزورون مصر ويروون بها علومهم ، وكان من أثر ذلك أن وجدت فى مصر نهضة أدبية علية جعلت لها مركز الزعامة فى القرون التالية فقد جاء مصر أبو محمد عبد الملك بن هشام صاحب السيرة وتوفي بمصر سنة ٢١٨ هـ وزراه السيرة قد تأثر بمصر فقد روى عن علمائها أمثال ابن وهب وابن هبعة وكان ابن هشام إماماً فى اللغة والنحو ، وقد اجتمع به الشافعى حين ورد مصر وتناولها كثيراً من أشعار العرب ^(٥) ووفد عليها

(١) ج ١ ، ص ٢٩ (٢) بقية الوعاة ص ٣٨٧

(٣) بقية الوعاة ص ٢١ (٤) شرحه ، ص ٦٠

(٥) حسن الحفاظة ج ١ ص ٣٦

أبو العباس الناشي ، الأكبر ، وكان نحوياً متملاً كاملاً بحراً في عدة علوم من جملتها المنطق ، وكان بقعة علم الكلام قد نقض علل النحاة ، وأدخل على قواعد العروض شهباً ، ومثلها بغير أمثلة الخليل ^(١) وتسكب بعلمه هذه في مصر كما ستر في حديثنا عنه شاعراً .

وجاء مصر محمد بن موسى الواسطي ، وكان من أهل العلم باللغة وتفسير القرآن وما تبعه مصر سنة ٣٢٠ هـ ^(٢) ويموت بن المزروع قدم مصر مراراً كان آخرها سنة ثلاثة وثلاثمائة ^(٣) ولعله في إحدى زياراته أو في هذه الزيارات كلها روى بمصر كتب خاله أبي عنان الجاحظ .

وكذلك زار مصر محمد بن زيد بن يضجتوية بن الهيثم البردعي وروى عنه بمصر ابن يوسف المؤرخ وأبو القاسم الطبراني « وأصله من أذربیجان نزل مصر فاستوطنها ، وكان كثير العلم متفتنا في الأدب واللغة والشعر وكان ثقة أمينا ^(٤) .

ويحدثنا ياقوت أن المصريين ما كانوا يعرفون شيئاً من شعر الطرماح بن حكيم ، فلما قدم ابن جرير الطبرى مصر سأله على بن سراج المصرى أن يملى شعر الطرماح ، بجلس ابن جرير عند بيت المال يمليه ويفسر غريبه ^(٥) .

وفي سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة جاء مصر أحمد بن عبد الله

(١) ابن خلkan ج ١ ص ٢٦٣ (٢) بغية الوعاة ص ١٠٩

(٣) الأنساب للسمعاني ، ص ٢١ (٤) بغية الوعاة ، ص ٤٣

(٥) معجم الأدباء ج ٦ ص ٤٣٣

بن مسلمة بن قتيبة ، فدخل عليه أصحاب الحديث يسألونه أن يحدّثهم
فقال : مامعي إلا كتب أبي وأنا أحفظها فإن شتم سردها عليكم .
فليما عرف الناس ذلك قصده . فصار مجلسه غاصاً بفنون الناس
من يطلب العلوم والأداب ، وقصده أبو جعفر النحاس وابن ولاد
وأبو مخاصم المظفر بن أحمد ووجوه البلد ^(١) .

كذلك وفد على مصر محمد بن أحمد بن علي من ولد المهلب بن
أبي صفرة المعروف بالمهلبي النحوى ، قال عنه الزيدى : إنه كان
عالماً نحوياً لغويَاً ثقة ^(٢) ومات بمصر سنة ٣٤٩ هـ .

المؤرخون

ظهر في مصر عقب الفتح لون من الدراسات الإسلامية وإن
شتت فهو من العلوم العربية ، وهو القصص ، فظهر القصصيون
بمصر سنة تسع وثلاثين هجرية ، وكان أول من قص مصر هو سليم
بن عتر التجيبي الذي تولى القضاء بمصر مدة طويلة ^(٣) كان هذا
القصص سيراً في موضوع آخر هو التاريخ ، وقد عن المسلمين هذـ
الفتح بأمر تاريخ مصر ، لأنها ذكرت كثيراً في القرآن الكريم ،
كما روى عن النبي أحاديث كثيرة عن مصر وأهلها ، والمسلمون
يعلمون أن إحدى زوجات النبي كانت مصرية ، وأن بعض الأنبياء
والرسل كان لهم شأن في مصر ، عرف المسلمون هذا كله ، ورأوا
بعد الفتح أشياء لم يروا مثلها كالهرم والمقابر الأخرى التي عرفت

(١) رفع الإصر عن فضاعة مصر لابن حجر (نسخة خطية رقم ١٠٥
بدار الكتب المصرية) (٢) بقية الوعاة ص ١٤

(٣) الولادة والفتاة لـ السكندي ص ٣٠٧ .

بمصر باسم «البراب»، وكان عند العرب هذا القصص الذي يحدهم عن القدماء فشغفوا بالتاريخ وروايته، وزخرفوا أقوالهم بشيء كثير من القصص الخيالية التي تثير الضحك أحياناً، ووضعوا من عندهم أخباراً بعيدة كل البعد عن الصحة، وكانت هذه الأخبار كأساساً لكتب التاريخ، التي ظهرت بمصر، وعذى هذه الحركة بمصر وجود عدد من الأخباريين وأصحاب المغازى مثل محمد بن إسحق صاحب السيرة، وعبد الملائكة ابن هشام راوياًها ومحمد بن أبي الليث الذي كان ورافقاً على باب الواقدي^(١) ثم وفد عليها ابن جرير الطبرى مرتين، والمسعودى، وعن مؤرخى مصر نقل ابن جرير كثيراً في كتابه وابن هشام في السيرة. وغيرهما من المؤرخين. ووضعوا عن مصر كتاباً عديدة.

ولعل أكثر الكتب القديمة تضليلًا وتحبطاهو كتاب «فتح مصر» الذي يسنده بعض المؤرخين إلى ابن اسحق الأموي، ويسنده بهضم الآخر إلى الواقدى، وإن كنت أرجح أن للواقدى كتاباً غير الكتاب الذي ينسب إلى ابن اسحق. ويتجلّ ذلك في الاختلاف الذي بين الكتابين.

كتاب فتح مصر لا بن عبد الحكم :

وهناك كتاب آخر لمؤلف مصرى له قيمة وأثره . إذ لا أكاد أعرف مؤرخاً كتب عن مصر دون أن يذكر هذا الكتاب ، أو يأخذ عنه ، لهذا كان كتاب «فتح مصر» مصدراً هاماً من مصادر

(١) السكندري من ٤٤٩

تاریخ مصر من ذالفتح ، كما أنه يمثل لنا ناحية أخرى من نواحي التأليف العلی بصرى هذا العصر ، فقد رأينا الحركة العلیة والنشاط الفكري كانا متوجهين إلى العلوم الدينية في أول الأمر ، ثم أضيف إليهما العلوم العربية الحالصة ، كما اتجه المصريون إلى الفقصص والعلوم التاریخية ، ولقد لعبت يد الخيال في هذه الأخبار التاریخية ، فأخر جتها عن جادة الحق ، ولكنها تمثل لنا عقلية العرب الذين كانوا يأخذون كل ما يروى لهم دون أن يحاولوا تحقیقه .

هذا النوع من العلوم كان عريساً حالصاً ، اهتم به الجاهليون والمسليون ، وأخذه بعضهم عن بعض حتى دون في القرن الثالث المجري ، ومن أوائل المدونين للتاريخ ابن عبد الحكم المصري صاحب «فتح مصر» وأحد أفراد بنى عبد الحكم .

بنو عبد الحكم

نحن مضطرون إلى الوقوف عند هذه الأسرة التي كان لها أثر كبير في الحياة العقلية والاجتماعية والسياسية بصرى في القرنين الثاني والثالث من الهجرة .

نحن لا نعرف شيئاً عن أولياء أسرة بنى عبد الحكم ولكن ياقوت في معجم البلدان يقول إنهم ينسبون إلى الحفل بلدة بالقرب من أيلة [العقبة] وأول شخص في هذه الأسرة ذكره لنا المؤرخون هو أبو عمّات عبد الحكم بن اعین ابن الليث بن رافع المتوفى سنة احدى وسبعين ومائة وقيل إن له عدة مسائل عن الإمام مالك^(١)

أما نشأته وحياته فلم يصلنا عنها شيء ، كذلك لا نعرف إذا كان مصرياً أو غير مصرى وصاحب الديساج يقول عن عبد الله بن عبد الحكم انه مولى امرأة من موالي عثمان بن عفان ويقال بل هو مولى نافع مولى عثمان ولا ندرى أيضاً أى لون من ألوان الولاء كان ولاؤه .

وأول شخصية لها قيمتها في هذه الأسرة هو عبد الله بن عبد الحكم ابن أعين ولد بالاسكندرية وقيل بمصر سنة خمس وخمسين ومائة وأخذ الفقه عن مالك وعن إمام مصر الليث بن سعد وسمع الحديث من عبد الله بن حمزة ، ولما مات أشبـه بن عبد العزيز رئيس المالكية بمصر سنة أربع ومائتين ، تولى عبد الله رئاسة مذهب مالك ونستطيع بسهولة أن ندرك خطر هذا المركز إذا علمنا أن المسلمين في مصر كانوا جميعاً يدينون بهذا المذهب .

وكان العلماء في مصر لا يدرسون غير هذا المذهب ، واجتمع حوله المصريون والوافدون من الأندلس والمغرب يأخذون عنه مذهب مالك وتجمع المصادر التي تحدثت عنه أنه كان صالح متحققاً بمذهب مالك وأجمعـت أيضاً على علو شأنه في الفقه ، ووضع عدة كتب منها المختصر الكبير جمع فيه ثمان عشرة ألف مسألة والمختصر الأوسط وفيه أربعة آلاف مسألة والمختصر الصغير وفيه ألف ومائتا مسألة وقصر هذا الكتاب الأخير على ما في الموطأ ، وله أيضاً كتاب الأحوال وكتاب القضاء في البنيان وكتاب المناسب وكتاب في سيرة عمر بن عبد العزيز .

هذا من الناحية العلمية ، ومن ناحية أخرى نرى المؤرخين
يجمعون على أن عبد الله كان ثريا جداً وله جاه عظيم بين المصريين
ونحن لا نعرف كيف أتته هذه الثروة .

وبلغ من ثراه أن الشافعى لما وفد على مصر سنة تسع وتسعين
ومائة تلقاه عبد الله بن عبد الحكم وانزله في داره وبالغ في بره
وأعطاه من ماله الخاص ألف دينار واستطاع بنفوذه أن يجمع له
من بعض المصريين ألف دينار أخرى وأخذ له من بن عسامه
التاجر المصرى ألفاً ثلاثة ليتمكن الشافعى من أن يعيش بمصر عيشة
راضية فقد جهل المصريون قدر الشافعى في أول الأمر وكان يود
الرحيل من مصر لو لا وجود بنى عبد الحكم .

ويروى المؤرخون أن عبد الله كان له تأثير كبير في تولية الشهود
فكان يزكيهم ويجرحهم وكان بعض الولاة يستشieren عبد الله في
تصريف أمور الدولة ويحدثنا скندى أن الوالي عبد الله بن طاهر كان
يقرب عبد الله بن عبد الحكم ويستشيره في بعض أموره كما كان ابن
عبد الحكم واسطة الصلح بين عبيد بن السرى الثائر وبين ابن طاهر كما كان
ابن عبد الحكم أحد الفقهاء الذين جمعهم الوالي ابن طاهر لاختيار قاضٍ
لصر فرشح كل واحد من الفقهاء قاضياً ولكن الوالي عين مل رشحا
ابن عبد الحكم بل ذهب ابن عبد الحكم إلى أبعد من ذلك فقد طلب
من الوالي أن يزيد مرتب القاضى ففعل الوالي وحفظ القاضى وهو
عيسى بن المنكدر يد ابن الحكم فجعله على مسائله وهنا ظهر ما يدل
على خلق ابن الحكم فقد جرت العادة أن يكون الشهود من طبقة

خاصة من لهم جاءه فلما تولى ابن الحكم على مسائل القاضي أدخل
بين الشهود بعض الناس من لاجاه لهم ولاقدر فلما عותب على ذلك
قال : « إن هذا الأمر دين وإنما فعلت ما يجب على » ، فهذا الخبر
يدلنا على أن ابن الحكم كان قوياً في خلقه وإنما لم يحاب وجوه المصريين
لجاجهم ، وقيل إن الرعيني الفقيه لما سمع كلام ابن الحكم قال له
« أسألك الله أن لايرفعك بالشهادة أنت ولا واحداً من ولدك » ،
فكان الأمر على ذلك فقد بلغ ابن عبد الحكم هو وولده بالبلد مالم
يلغه أحد ماقبلت لأحد منهم شهادة فقط [هكذا روى السكندي عن
ابن قديد] وهذه هي الدعوة التي قال عنها ابن خلkan أن بن عبد الحكم
لم يشهد ولا أحد من ولده لدعوه سبقت فيه .

واستمر عبدالله بن عبد الحكم رئيساً لمذهب المالكية وعلى
مسائل القاضي حتى جاء الخبر بولاية المعتصم على مصر سنة أربع
عشرة ومائتين ٢١٤ وذهبت جماعة الصوفية إلى القاضي يطلبون
منه أن يكتب إلى المؤمن بأن المصريين لا يقبلون ولاية المعتصم
عليهم ، ولكن ابن عبد الحكم أشار على القاضي بأن لا يستمع
لأقوال الصوفية وأن لا يكتب إلى الخليفة فأبى القاضي وكتب إلى
المؤمن فدفع المؤمن كتابه إلى المعتصم فلما جاء المعتصم مصر عزل
القاضي وحبسه كما حبس عبدالله بن عبد الحكم فأقام ابن عبد الحكم
في السجن أيام ثم مرض ومات في رمضان سنة أربع عشرة ومائتين
وُدفن بجوار الشافعى في منزل بنى عبد الحكم .

ترك عبدالله بن عبد الحكم أربعة أولاد عبد الحكم بن عبدالله
وعبد الرحمن بن عبدالله وسعد بن عبدالله وسليمان بن عبدالله

أما عبد الحكم وهو أكبر أولاده فكان فقيهاً أيضاً على مذهب مالك
كأبيه وأخذ الفقه عن أصحاب مالك من المصريين أمثال أبيه وعبد الله
ابن وهب ، وقيل إنه لم يكن في أصحاب ابن وهب أتقى ولا أفقه منه
بل ذهب صاحب الديباج إلى أن عبد الحكم أفقه إخوته كما عرف
أيضاً بجودة خطه ولم يصلنا عن هذا الفقيه شيء إلا ما قيل عن مختنه
التي توفى بسببها بل مختنه بنى عبد الحكم التي لم يقم لهم قائمة بعدها .

بدأت مختنة بنى عبد الحكم بمسألة خلق القرآن فقد طلب إليهم
القاضى محمد بن أبي الليث أن يعترفوا بخلق القرآن فامتنعوا افعد بهم القاضى
وحمل عبد الحكم إلى العراق للاقرار هناك فامتنع أيضاً فضرب
بالسياط وقيل إنه سجن ودخن عليه بالكبريت حتى مات في سجنه
بسبب خلق القرآن ولكن موت عبد الحكم لم يكن لهذا السبب بل
كانت بسبب أموال الجروى الثائر بمصر والذى انتهت ثورته حوالي
سنة ٢١٢ هـ وفي سنة ٢١٥ هـ أتى الأفشين مصر وطالب على بن
عبد العزير الجروى بالأموال التى عنده فلم يدفع إليه شيئاً فقتله
الأفشين واستمر الولاة يبحثون عن أموال الجروى حتى سنة ٢٢٧
فقدم مصر يزيد التركى أحد قواد الموكل العباسى فى طلب هذه
الأموال بعد أن علم الخليفة فى بغداد أن بعضها عند بنى عبد الحكم
وحكم القاضى ابن أبي الليث على بنى عبد الحكم بألف الف دينار
وأربعمائة ألف وأربعة آلاف دينار كا حكم على غيرهم أيضاً ونادى
منادى الوالى بأن من كتم الأموال ضرب خمساً مائة سوط وهدمت
داره ، فأقر عبد الحكم بما عداه فبعث به إلى منزله فلم يخرج شيئاً

ورد إلى يزيد التركى فعدى حتى توفى لأربع بقين من جمادى الأولى
سنة ٢٣٧ هـ.

أما سعد بن عبد الله بن عبد الحكم فلم يصل إلينا شيء عنه إلا
مارواه صاحب نفح الطيب أنه كان أستاذًا لعدد من فقهاء الأندلس
الذين رحلوا في طلب العلم إلى مصر وذكر منهم أبي عبد الله محمد
ابن عبد الله الباقي الإشبيلي ومحمد بن عيسى ومحمد بن عمر بن لبابة
وغيرهم كما كان أحد الذين روى عنهم أخوه عبد الرحمن بن عبد الله
في كتابه فتوح مصر

تحدث بعد ذلك عن أشهر أولاد عبد الله بن عبد الحكم
وهو محمد بن عبد الله عبد الحكم ولد محمد سنة اثنين وثمانين وما تالية
وأخذ فقهه مالك عن أبيه وأشبہ وروى عن عبد الله بن وهب ولما
وفد الشافعى على مصر ونزل ضيفاً على بن عبد الحكم آخر محمد وهذا
وكثيراً ما سمع الشافعى يقول «ما يقيمنى بمصر غيره»، وعد محمد بن
عبد الله من أشد تلاميذ الشافعى صلة به وروى المزنى: كنا ناقص
الشافعى نسمع منه فنجلس على باب داره ويأقى محمد بن عبد الحكم
فيصعد ويطيل المكث وربما تغدى مع الشافعى ثم ينزل الشافعى
فيقرأ علينا فإذا فرغ من قراءته قرب إلى محمد دابته فركبها واتبعه
الشافعى بصره فإذا غاب شخصه قال الشافعى ملن معه وودت أن لي
ولداً مثله وعلى ألف دينار لا أجد لها ضمانه. وروى محمد بن عبد الحكم
أنه كان يتتردد إلى الشافعى فاجتمع قوم من أصحاب مذهب مالك
إلى عبد الله بن عبد الحكم وقالوا يا أبي محمد إن حمداً ينقطع إلى هذا
الرجل ويتردد إليه فيرى الناس أن هذا رغبة عن مذهب أصحابه،

يُفعل عبد الله يلاطفهم ويقول هو صغير ويحب النظر في اختلاف أقوال الناس ومعرفة ذلك ويقول لابنه محمد في السر يابني الزم هذا الرجل . وكان الشافعى معجباً بمحمد لفروط ذكائه وحرصه على الدرس والتحصيل حتى ظن الناس من صدق موتهما أن الشافعى بفوفض أمر حلقة بعد وفاته إلى محمد بن عبد الحكم وكان محمد نفسه يتطلع لرياسة مذهب الشافعية بعد الإمام الشافعى ولكن الشافعى في مرض موته رشح البو يطى لرياسة مذهبة فغضب محمد بن عبد الحكم وترك الشافعية وتحول إلى مذهب المالكية وجعل لنفسه حلقة يدرس فيها مذهب مالك وبعد موت أبيه اختاره المصريون لرياسة مذهب مالك وذاعت شهرته في الأقطار الإسلامية حتى صارت إليه الرحلة لأخذ مذهب مالك وروى السبكي عن الصدفي أنه قال : رأيت أهل مصر لا يعدلون به أحداً ويصفونه بالعلم والفضل والتواضع ، وروى عن ابن خزيمة أن محمد بن عبد الحكم أعلم من رأيت على أديم الأرض بمذهب مالك ، وذكر صاحب نفح الطيب عدداً كبيراً من علماء الأندلس الذين أخذوا عن محمد بن عبد الحكم .

ولما أصبت مصر بمحنة خلق القرآن سنة سبع وعشرين وما تأسى من الفقهاء من أصحاب مالك والشافعى من الجلوس في المسجد واضطهد الفقهاء والعلماء وهرب أكثرهم من القاضى ابن أبي الليث أما محمد بن عبد الله فقد أهين وعذب وأطافه القاضى ينادى بخلق القرآن حتى من بحلقة ابن صبيح المعتزلى بمصر فقال له ابن صبيح : الحمد لله الذى هداك يا أبا عبد الله ، يشير إلى أن محمد بن عبد الحكم

أقر بخلق القرآن وفي ذلك يقول الشاعر الحسين بن عبد السلام المعروف بالجمل الأكبر يمدح القاضي بن أبي الليث :
وَمُحَمَّدُ الْحَكَمِيُّ أَنْتَ أَطْفَهُنَّ وَأَخْوَهُنْ يَنْعَقُ بِالصَّيَاخِ الْأَجْهَرِ
كُلُّ يَنْادِي بِالْقُرْآنِ وَخَلْقَهُ فَشَهَرُهُمْ بِعَقَالَةٍ لَمْ تَشْهُرْ
وَيَقُولُ أَبُو الْحَمَاسِنَ إِنَّهُ حَلَّ إِلَى بَغْدَادٍ وَأَنَّهُ ثَبَّتَ عَلَى السَّنَةِ،
فَأَعْيَدَ إِلَى مِصْرَ (١). ظَلَّ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ رَئِيسًا لِمَذَهَبِ
الْمَالِكِيَّةِ بِمِصْرٍ وَلَكِنْ بَعْضُ الْقَضَاءِ كَانُوا يَضْطَهِدُونَهُ وَلَا أَدْرِي
سَبَبُ ذَلِكَ فَتَلَاقَ الْحَارِثُ بْنُ مَسْكِينِ الدِّنِي وَلِي قَضَاءِ مِصْرَ
سَنَةِ ٢٣٧ هـ كَانَ يَجْرِحُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ دَائِمًا وَلَمْ يَقْبَلْ شَهَادَتَهُ حَتَّى
قَالَ لِرَجُلٍ طَلَبَ أَنْ يَسْتَشَهِدَ بِمُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْحَكَمِ : قَالَ لَهُ إِنْ كَانَ
رَجُلًا فَلِيَأْتِ فَلِيَشَهِدْ .

وَفِي أَيَّامِ أَحْمَدَ بْنِ طَوْلُونَ كَانَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ مِنْ جَلْسَانَهُ
وَمِنْ أَجْرِي عَلَيْهِ ابْنُ طَوْلُونَ الْأَرْزَاقِ . وَيَرْوَى الْمَقْرِيزِيُّ قَصَّةً
مُلْخَصُهَا أَنَّ ابْنَ طَوْلُونَ لَمَّا حَفَرْ بِثْرَهُ بِخَطْطَةِ مَعَاافِرِ (عِنْدَ الْقِرَافَةِ)
بَلَغَهُ أَنَّ جَمَاعَةً مِنَ الْفُقَهَاءِ لَا يَسْتَحْلُونَ شَرْبَ مَائِهَا فَيَنْبَغِي مُحَمَّدُ ابْنُ
عَبْدِ الْحَكَمِ فِي دَارِهِ لِيَلَا إِذَا تَاهَ أَحَدُ خَدَامِ ابْنِ طَوْلُونَ وَقَالَ لَهُ إِنْ
الْأَمِيرُ يَدْعُوكَ فَرَكِبَ ابْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ مَرْعُوبًا مَذْعُورًا وَعَدَلَ الْغَلَامُ
بِهِ عَنِ الطَّرِيقِ فَسَأَلَهُ ابْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ فَقَالَ إِلَى الصَّحَراءِ وَالْأَمِيرِ فِيهَا
فَأَيْقَنَ ابْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ بِالْهَلاَكِ فَقَالَ لِلخَادِمِ اللَّهُ أَكْبَرُ فِي فَانِي شَيْخٌ كَبِيرٌ
ضَعِيفٌ مَسْنُونٌ فَتَدَرَّى مَا يَرَادُ مِنِي فَأَرْجَمَنِي فَقَالَ لِهِ الْغَلَامُ : احْذِرْ أَنْ
يَكُونَ لَكَ فِي السَّقَايَةِ قَوْلٌ . قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ فَسَرَّتْ مَعَهُ وَإِذَا

بالمشاعل في الصحراء وأحمد بن طولون راكم على باب السقاية
فنزلت وسلمت عليه فلم يرد على فقلت أليها الأمير إن الرسول أعننتي
وكدفن وقد عطشت فلما ذكرت لي الأمير في الشرب فأراد الغلبان أن
يسقوني فقلت أنا آخذ لنفسي فاستقيت وهو يراني وشربت وازدادت
في الشرب حتى كدت أنسق ثم قات : أليها الأمير أسفاك الله من
أنهار الجنة فقد أرويت وأغنيت ولا أدرني ما أصف أطيب الماء
في حلاوته وبرده وصفائه أم طيب ريح السقاية فنظر ابن طولون
إليه وقال أريديك لأمر وليس هذا وقته فاصرفوه .

ويروى السيوطي أن كنیز خادم الخليفة المتصر خرج إلى مصر
وتفقه على مذهب الشافعی وكان يأقى حلقة محمد بن عبد الحكم
ويناظره فسمى به إلى احمد بن طولون بأنه جاسوس خبيثه ابن طولون
سبعين سنين . وظل ابن عبد الحكم في رئاسة مذهب مالك حتى توفي

سنة ٢٦٨ هـ

أما عبد الرحمن بن عبد الله صاحب كتاب «فتح مصر» ، فكان
من أهل الحديث والرواية وشغف بالقصص والأخبار وكلف
بالتأريخ وكان من أثر ذلك أنه وضع كتابه «فتح مصر» . وقد
أصاب عبد الرحمن ما أصاب إخوته في محن خالق القرآن وأموال
الجروى وتوفي عبد الرحمن سنة ٢٥٧ هـ

بعد عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم من أقدم مؤرخي
الإسلام في مصر الذين وصلت إلينا كتبهم كان كلفاً برواية الأخبار
من ثقات المصريين أمثال والده عبد الله ، ويحيى بن بکير ، وعمان

ابن صالح كاتب الليث بن سعد ، وغيرهم ، وعنه أخذ القاسم بن حبيش وأبو سلمة التجهيبي ، وابن قدید وغيرهم ، وإذا عرفنا أن ابن قدید أحد رواة ابن عبد الحكم كان من أهم المصادر الذين استقى عنهم الكندي كتابه « الولاة » و« القضاة » أدركتنا بسهولة السبب المذى من أجله نرى في كتاب الكندي بعض أخبار مذكورة في « فتوح مصر » ، مع أنها نعلم أن الكندي كان يحاول أخذ الأخبار من نفس المصادر التي استقى منها عبدالرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم ، ومع ذلك فالكندي اتخد كتاب فتوح مصر أساساً لكتابيه ، ولاسيما في الفصل الذي عقده ابن عبد الحكم عن القضاة في مصر .

كان عبد الرحمن معاصرآ لمؤرخين من أشهر وأقدم مؤرخي الإسلام ، ولكننا نرى ابن عبد الحكم يتماز عن معاصريه بأنه أو جد فـأـ جـديـدـآـ فـيـ التـارـيخـ الـاسـلامـ هوـ فـنـ «ـ الخـطـطـ وـ الـاخـانـدـ »ـ وـ هـذـاـ النـوـعـ منـ التـارـيخـ لـمـ يـكـتـبـ فـيـ أـحـدـ قـبـلـ الـمـصـرـيـنـ ،ـ وـ لـاـ نـعـرـفـ أـحـدـ كـتـبـ فـيـ قـبـلـ ابنـ عبدـ الحـكمـ ،ـ وـ لـمـ يـوـقـعـ المـقـرـيـزـيـ فـيـ قـوـلـهـ «ـ إـنـ أـوـلـ مـنـ رـتـبـ خـطـطـ مـصـرـ وـ آـثـارـهـ ،ـ وـ ذـكـرـ أـسـبـابـهـ فـيـ دـيـوانـ جـمعـهـ هـوـ أـبـوـ عـمـرـ مـحـمـدـ بـنـ يـوـسـفـ الـكـنـدـيـ ،ـ ثـمـ كـتـبـ بـعـدـهـ القـاضـيـ أـبـوـ عـبدـ اللهـ سـعـدـ بـنـ سـلـامـةـ الـقـضـاعـيـ كـتـابـهـ الـمـنـعـوتـ وـ بـالـمـخـتـارـ فـيـ ذـكـرـ الـخـطـطـ وـ الـآـثـارـ وـ مـاتـ فـيـ سـنـ سـبـعـ وـ خـمـسـينـ وـ أـرـبـعـمـائـةـ قـبـلـ سـنـ الشـدـةـ فـدـرـ أـكـثـرـ مـاـ ذـكـرـ (١)ـ لـمـ يـوـقـعـ المـقـرـيـزـيـ فـيـ هـذـاـ القـوـلـ لـأـنـ اـبـنـ عبدـ الحـكمـ فـيـ كـتـابـهـ فـتوـحـ مـصـرـ سـبـقـ الـكـنـدـيـ فـيـ الـحـدـيـثـ عـنـ الـخـطـطـ

(١) الحماط ، ج ١ ، ص ٦

ولعل أول ما يلفت النظر إلى كتاب ابن عبد الحكم أنه مقسم حسب الموضوعات ، فقد جعله المؤلف سبعة أبواب ، وأدرج تحت كل باب ما قيل في الموضوع الذي خص له ، فاختلف بذلك عن الطبرى والمبرد والجاحظ وغيرهم من الأدباء والمؤرخين . فهو لام لم يحاولوا أن يقسموا كتبهم إلى فصول أو أبواب بل خلطوا كتبهم ، وجعلوا فيها كل شاردة وواردة ، زعماً منهم أن الأديب عليه أن يأخذ من كل شيء بطرف ، فأودعوا كتبهم كل شيء دون أن يحاولوا ترتيب هذه الموضوعات ، وقد غالب هذا النوع من التأليف على علماء العراق ، حتى كان ابن قتيبة فابتداً بترتيب كتبه ، أما في مصر فكان المؤلفون يقسمون كتبهم ، ويرتبون موضوعاتها ، حتى أن الفارابي عند ما دخل مصر ومعه كتابه « المدينة الفاضلة » سأله بعض الناس أن يجعل له فصولاً تدل على قسمة معانيه ، فعمل بهذه الفصول بمصر سنة سبع وثلاثين وتلثمانة ^(١) . ليس لنا أن نتحدث عما في كتاب « فتوح مصر » من أخطاء تاريخية كان مصدرها جهل العرب والمصريين بتاريخ مصر القديم ، ورغبة بعض الرواية في وضع أخبار عن مصر من الحق أنها بعيدة عن الصواب ، وقد يطول بنا الأمر لو ناقشنا هذا كله ، ويكتفى أن أقول إن أكثر هذه الخرافات في القسم الأول من الكتاب ، وهو القسم الذي ذكر فيه فضائل مصر وتاريخها من أول أمرها إلى أن فتحها العرب وأقول خرافات لأن علم الدراسات المصرية القديمة أثبتت ما يخالف ما جاء في هذا الكتاب ، ثم لهذه

المبالغات التي لا يكاد يتصورها عقل . كوجود أشعار عربية قالها
قدماء المصريين وحفروها على آثارهم !!!

أما القسم الثاني من الكتاب . فهو يتحدث عن فتح العرب لمصر
فذكر المؤلف شيئاً عن علاقة مصر ببعض أفراد من العرب قبل
الإسلام وعن كتاب النبي إلى المقوقس ، وجواب هذا إلى النبي
عليه السلام ، ثم ذكر الفتح العربي ، وتحدث عن مسألة اختلف فيها
المسلمون منذ القرن الأول الهجري ، وهي هل فتحت مصر عنوة
أم صلحاً ، فبسط روايات الطرفين ، دون أن يذكر رأيه ، فقد كان
راوياً كغيره من المحدثين والمؤرخين ، وفي الباب الثالث يذكر
الخطط والأخاند والقطائع وهو الفن الذي لم يسبقه غيره إليه ،
وفي الرابع يتحدث عن الادارة في عبد عمرو وابن أبي سرح وعن
الفيوم وبرقة وطرابلس ، وفي الخامس يذكر غزو شمال أفريقيا
والأندلس ، وفي السادس يسرد أسماء قضاة مصر حتى سنة ٢٤٦ هـ
أى قبل وفاة المؤلف بعشر سنين ، وفي السابع يروي الأحاديث التي
حفظها الصحابة الذين جاموا مصر ، وقد بلغ عددهم اثنين وخمسين
فيروى لكل منهم أحاديثه التي سمعها من النبي وكان ابن عبد الحكم
يعتمد على طريقة الرواية فإن تعاليه كانت دينية كباقي أسرته ،
ولكنه اتجه إلى التاريخ والحديث مخالفًا في ذلك باقي أسرته الذين
مالوا إلى الفقه .

وما يحسن الإشارة إليه أن قبر بنى عبد الحكم ، الذى دفنت فيه
هذه الأسرة العلمية بجوار قبر الإمام الشافعى ، فقبة ضريح الشافعى

تجمع قبر الشافعى وقبر بنى عبد الحكم ، وهكذا كان الشافعى صديقاً
لهم فى حياته ، فأصبح جارهم فى مقابرها .

ابن الداية وكتاب المكافأة

كنت أود أن أعرض لغير ابن عبد الحكم من المؤرخين
المصريين أمثال عمار بن وسيمة المصرى المتوفى سنة تسع وثمانين
ومائتين صاحب التاريخ على الستين ، وأحد تلاميذ مدرسة الليث
ابن سعد^(١) وابن يونس صاحب تاريخ مصر^(٢) والكتندي المؤرخ
المعروف وغيرهم كالذين ذكرهم المسعودى في مقدمة كتابه « مروج
الذهب » والذين روی عنهم ابن جرير الطبرى في تاريخه وتفسيره ،
ولكنني أزرك ذلك كله لمن يتسع في دراسة الحياة العقلية في
هذا العصر .

ولكن أرى أن أتحدث عن مؤرخ مصرى آخر ، عاش في هذا
العصر واتصل ببعض الأمراء المصريين ، وبمختلف طبقات الشعب ،
ووضع كتاباً عن هؤلاء الأمراء ، ثم تحدث في كتب أخرى عن
هذا الشعب وحاله ، ذلك هو الكاتب المعروف بابن الداية . وإذا
تحدثنا عن ابن الداية فستتحدث عن كتابه « المكافأة » لأنه مصدر
من مصادر التاريخ والأدب ، ونستطيع منه أن نعرف حالة سكان
مصر في هذا العصر واتجاه عقولهم .

جمع الكتاب عدة قصص خلقية ، ولكنها لم تكون خالية ، بل

(١) حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٣١٩ ، ومروج الذهب ، ج ١ ، ص ٤

(٢) حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٣١٩ ، وغيرها وتاريخ الطبرى في موضع متعدد

هي حوادث واقعية حدثت للمؤلف ، أو لوالده ، أو لغيرهما من المعاصرين ، ويتحدث في كل واقعة من هذه على مكافأة قدمنا نظير عمل أو معروف ، فالكتاب من هذه الناحية يستحق التقدير والبحث ومؤلف الكتاب هو أحمد بن أبي يعقوب يوسف بن إبراهيم المعروف « بابن الديانية »، فإن والده يوسف بن إبراهيم كان ولد ظاهر إبراهيم بن المهدى ، وأخا الخليفة العباسى المعتصم ^(١) بالرضاعة فهو لم يكن مصرى الأصل ولا أدرى تماماً إذا كان عربي الأصل أم أعمى .

نشأ يوسف بن إبراهيم في دار الخلافة ببغداد ، وصار مع إبراهيم ابن المهدى طول حياته وتولى كتابة إقطاعاته ، توفي إبراهيم في أواخر سنة ٢٢٤ هـ في خلافة المعتصم ، وأخذ قواد الخليفة من الأتراك يضيقون الخناق على العرب ومواليهم ، لم يستطع يوسف البقاء في سر من رأى ، فتركها إلى دمشق سنة خمس وعشرين ومائتين ، وهناك نزل على عيسى بن حكم الطبيب النسطوري ^(٢) . ولما كنه لم يشاً أن يبقى في الشام طويلاً ، بل وفد على مصر ، وما علم المصريون بوجوده أقبلوا عليه ، لأنهم سمعوا عن علمه وأدبه ، وصادقوه فعاش بينهم ولقب يوسف بن إبراهيم المصري وكان بينه وبين أحمد بن المديري في العراق عهد صداقة ومودة ولكن لما تولى بن المديري أمر خرج مصر ، ورأى حسن ظاهر يوسف ظن أن ذلك عن أموال جمة لديه ، فطالبه ببعض بقایا عقود انكسرت

(١) المكافأة ، ص ١١٥

(٢) عيون الابناء ، ج ١ ، ص ١٢١

عليه ، فحبسه طويلا حتى انقذه ابو الفوارس مزاحم بن خاقان وكانت ام زوج يوسف قد تواترت عليه ترية مزاحم ^(١) .

كان يوسف فيها يروى عنه يحب العلم والعلماء ، ويحرص على اقتناء المؤلفات المختلفة ، كما انه وضع عدة كتب منها : كتاب اخبار إبراهيم بن المهدى و «كتاب الطبيخ»^(٢) . ويحدثنا ابنه احمد ان الامير أحمد بن طولون حبس يوسف بن إبراهيم ، ولا ندرى سبباً لذلك ، ثم يقول إن بعض وجوه المصريين كلوا الأمير في أمر يوسف فأفوج عنه^(٣) . ولعل هذه القصة تدلنا على ما كان ليوسف من المكانة في نفوس المصريين ، كذلك كان يوسف على سعة من الرزق فقد كان يجرى بعض المال على بعض الأشراف المقيمين في مصر^(٤) .

أما مؤلف الكتاب أحمد بن يوسف ، فقد عرف عنه شغفه بالعلم ، وكفه بالأدب ، ويروى ياقوت عن ابن زولاق ، كان أبو جعفر رحمه الله في غاية الافتتان ، أحد وجوه الكتاب الفصحاء ، والحساب ، والمنجمين ، بجسدي ، أقليديسي ، حسن المجالسة ، حسن للشعر ^(٥) ، لذلك كان أحد خواص بنى طولون ، حتى عرف بكلاتهم وقد ألف هذا الرجل جملة كتب في التاريخ والأدب نذكر منها كتاب سيرة أحمد بن طولون « وسيرة ابنه » أبي الجيش » ، ويقول ابن زولاق ، وكان أبو جعفر أحمد بن يوسف بن إبراهيم الكاتب قد

(١) المكافأة، ص ١٠٧ - (٢) المكافأة، ص ١١٥

(٣) شرحه ، ص ٢٥ (٤) شرحه ، ص ٤٨

(٥) معجم الادباء، ج ٢ ، ص ١٥٧

عمل سيرة أَحْمَدُ بْنُ طَلْوَنْ أَمِيرُ مِصْرَ ، وَسِيرَةُ ابْنِ الْجَيْشِ ،
وَأَنْشَادًا فِي النَّاسِ ، وَقَرَأْتُهُمَا عَلَيْهِ ، وَحَدَثَتْ بِهِمَا عَنْهُ ، مَعَ غَيْرِهِمَا
مِنْ مَصْنَفَاتِهِ ، ثُمَّ عَمِلَتْ أَنَا مَا فَاقَهُ مِنْ سِيرَتِهِمَا^(١) وَلَهُ كِتَابٌ أَخْبَارُ
غَلَمَانِ بْنِ طَلْوَنْ وَكِتَابٌ « حَسْنُ الْعَقْبَى » وَكِتَابٌ « أَخْبَارُ الْأَطْيَاءِ »
وَ« كِتَابُ الْمَكَافَأَةِ » ، وَلَعْلَكَ تَدْرِكُ مِنْ أَسْمَاءِ هَذِهِ الْكِتَبِ أَنْ جَلَّهَا
كِتَابٌ تَارِيخٌ وَأَخْبَارٌ ، وَلَمْ تَكُنْ كِتَابُ ابْنِ عَبْدِ الْحَكْمِ ، بَلْ هِيَ
بِمَجْمُوعَةِ أَخْبَارٍ وَقَصَصٍ تَمَثِّلُ الْحَيَاةَ الَّتِي يَتَحَدَّثُ عَنْهَا أَصْدِقُ تَمَثِيلِهِ .

لَمْ يَكُنْ ابْنُ الدَّاِيَةِ كَاتِبًا فَحْسَبَ ، بَلْ كَانَ شَاعِرًا أَيْضًا ، وَرَوِيَ
عَنْ نَفْسِهِ فَقَالَ « كَانَ أَبُو الْفَيَاضِ سَوَارُ بْنُ شَرَاعَةُ الشَّاعِرُ صَدِيقًا
لِي ، وَمَا ظَلَّ إِلَى ، فَلَمَّا اعْتَزَمْتُ عَلَى الرَّجُوعِ إِلَى الْعَرَاقِ سَأْلَنِي أَنْ
أَكْتُبَ لَهُ شِيَّئًا مِنْ شِعْرٍ ، فَكَتَبْتُ لَهُ مَقْدَارَ خَمْسَيْنِ وَرْقَةً . وَكَانَ
يَسْتَحِسِنُهُ وَيَعْجِبُ بِهِ ، فَصَارَ إِلَى بَغْدَادَ ، وَعَرَضَهُ عَلَى جَمَاعَةِ
الْأَحْرَارِ ، وَأَحْسَنَ وَصْفَنِهِ لَهُمْ بِسَلَامَةِ مَذَهْبِهِ وَطَهَارَةِ نِيَّتِهِ . وَدَخَلَ
مُحَمَّدُ بْنُ سَلَمَانَ مِصْرَ وَقَدْ رَدَ الْبَرِيدُ بِهَا إِلَى أَبِي عَيْدِ اللَّهِ أَحْمَدِ
ابْنِ صَالِحٍ ، فَسَأَلَ عَنْدَ دُخُولِهِ إِيَّاهَا عَنْ أَحْمَدِ بْنِ يُوسُفَ ، فَأَحْضَرَ
أَحْمَدُ بْنُ يُوسُفَ — وَكَانَ كَاتِبًا لِأَحْمَدِ بْنِ وَصِيفٍ ثُمَّ لَابْنِ الْجَصَاصِ
التَّاجِرِينَ — فَقَالَ لَهُ : تَعْرِفُ أَبَا الْفَيَاضَ؟ قَالَ : لَا . فَقَالَ لَهُمْ :
لَيْسَ هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي طَلَبْتُ ، فَأَحْضَرُتُهُ ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُ اسْتَشَرَفَ
إِلَيْهِ وَقَالَ : تَعْرِفُ أَبَا الْفَيَاضَ؟ فَقَلَّتْ ذِكْرَكَ اللَّهُ وَإِيَّاهُ بِكُلِّ صَالِحةٍ
نَعْمَ أَعْرِفُهُ ، وَكَانَ خَلَالِي . فَقَالَ : هَلْ أَنْشَدْتُكَ مِنْ شِعْرِهِ .

ظللنا به نستنزل الدن صفوه فينزل أقباساً بغیر هب
قلت : لا ياسیدی ، ولسکنی أنشدته إیاه من شعری ، فضحك
وقال : « والله لقد اشتقت إلى الدخول إلى مصر من أجلك ، ثم
يقول ابن الديمة » وكان والله أفضل عون لى على أمورى « (١) .
كذلك كان شعر ابن الديمة سیما في قیام بعض القيسية على
خدمته و خفره دون مقابل (٢) .

نستطيع — كما قدمت — أن نقول إن كتاب المكافأة هذا
كتاب أدبي لما فيه من طرائف ومکاتبات وأشعار ، ونستطيع أن
نتحذه كتاب قصص لما فيه من حوادث واقعية ، وأن نتحذه
كتاباً في الأخلاق لما فيه من موعظة حسنة ، ومكافأة قدمت نظير
عمل الخير . ونرى مؤلفه يقسمه إلى أبواب وفصوص . يجعل فيما
للمكافأة على الحسن أو مكافأة على معروف صنعه ، وختم هذا القسم
بنبذ عن أفلاطون ، أما القسم الثاني فهو الجزاء على ما يصدر من
الإساءة ، ثم أردف ذلك بفصل عن ابتلي فصبر ، فكان ثمرة صبره
حسن العقبي . وختم هذا الفصل بطائفة من كلمات مأثورة لبعض
الحكماء من الفرس واليونان ، مما يدل على أن ابن الديمة كان يلم ببعض
الآداب الفارسية واليونانية ، ويحفظ كثيراً من كلمات الفرس واليونان
ويستعمل ألفاظاً غير عربية في كتاباته كقوله « ان دیوانیان خالد »
يعنى كتاب الديوان ، وللهذه لفظ « تلیس » بمعنى الحقيقة ، وهو في هذا
يشارك غيره من الكتاب والأدباء فقد نقلت الكتب اليونانية

والفارسية إلى العربية، واستطاع المسلمون أن يعرفوا شيئاً من الأدب والعلوم الأجنبية، ويزجوها بين هذه الأدب والعلوم الداخلية والأدب والعلوم العربية، فكان كتاب المسلمين يزجنون كتاباتهم باقتباس حكم الفرس واليونان، وهذا مازاه واضحاً في الكتب العربية أمثال كتاب الجاحظ وابن قتيبة وابن الداية وغيرهم.

نرى ابن الداية يبدأ كتابه بالدعاء فيقول « سدد الله فكرك، وأحسن أمرك، وكفاك مهمك »، وإذا رجعنا قليلاً إلى كتاب الجاحظ في « البيان والتبيين » و « الحيوان » وغيرها وجدناه يتبع هذه الطريقة في ابتداء الكتب، وهي أيضاً الطريقة الشائعة عند كتاب العراق في ذلك العصر، ولعلها نقلت إلى مصر فعرفها المصريون كغيرها من الفنون التي أخذها المصريون عن العراقيين، ولكن كان ابن الداية مختلفاً عن معاصره من الكتابة، حتى جاءت بعض جمله مثلاً للاسلوب العربي كقوله « إن سر من أسرار والدى كتمته عن سائر الناس ، أفضى به إلىك ، ورآك أهلاً لستره عليه فلا تخفر ظنه فيك ^(١) ». وبجانب هذه الجمل المتينة التركيب نجد جملًا ضعيفة غامضة لا تستقيم كتابتها مع قواعد النحو مثل قوله « وكانت أشدق النساء وأضبطهن وأحسنهم تدبرًا فيها تولاه ^(٢) » بدلاً من « وأضبطهن وأحسنهم »، وقوله « جراء ما قدّمتيه ما تسمعه

(١) المكافأة ص ٥١

(٢) شرحه ، ص ٥٢

مني ، (١) بدلاً من « جراء ماقدمته ماتسمعنيه مني » على أننا لا نقطع بأن هذا الخطأ وقع من الكاتب نفسه « وقد يكون من خطأ النساخ ومع هذا فالكتاب هو البقية الباقية من الكتب الأدية التي ألفت في هذا العصر إذا لم نعثر على كتاب كامل غير هذا الكتاب .

° ° °

نستطيع أن نقول إن الحياة العلمية بمصر نقلت إليها من العراق وعاشت مصر على ما أنتاجه العراقيون أو ما أخرجهم المصريون تلاميذ العراقيين ، كما كان للكتب التي تنقل من العراق إلى مصر قيمة خاصة يحدثنا ابن الديانية أنه عقب وفاة والده يوسف بن إبراهيم أرسل أحمد بن طولون من يهاجم داره ، وحضر كل صناديقه عساه يجد شيئاً من كتب العراق (٢) .

ومع أن مصر كانت موطن العلم والعلماء قبل الإسلام ، وفيها اجتمعت ثقافات البلاد المختلفة ، فإننا نجد مصر في هذا العصر الذي نورخه لا تعنى بشيء سوى هذه العلوم الدينية الإسلامية . ثم هذه العلوم العربية الخالصة ، من نحو وصرف ورواية الأشعار ، ولم تساهم مصر في العلوم الدخلية بالقدر الذي ساهم به العراقيون مثلاً ، ولم تنشط في مصر حركة الترجمة كما نشطت في الأقطار الأخرى ، وربما كان للمصريين نصيب في حركة الترجمة وعلى الأخص كتب الطب والكيمياء وقد ذكرنا شيئاً من ذلك فيما قبل ، كما ترجم في

(١) المكافأة ، ص ٥٢

(٢) المكافأة لابن الديانية ، ص ٤٨

مصر التوراة إلى اللغة العربية ، فقد روى المرحوم جورجى زيدان أن نزاعاً نشب في مصر بين طائفتين من طوائف الدين الإسرائىلى هما طائفة الربانية وطائفة القراءين ، فأفادت هذه المجادلات اللغة العربية ، إذ نرى رجالاً من كبار رجال الدين والعلم اليهودى هو سعيد الفيومى الإسرائىلى ينقل من العبرية إلى العربية كتب موسى الحنس وسفرى أشعياء وأيوب ^(١) . أما الكتب الفلسفية والمنطقية وغيرها وعلوم الفرس والهند فلم ينشطها المصريون في هذا العصر بالقدر الذى وجد في العراق ، ولكنها وصلت إليهم بعد أن نقلت إلى العربية في الأقطار الشرقية ، فقبلها المصريون بعد ذلك وساعدتهم في العصور التي تلتها عصتنا هنا على أن ينبع بينهم عدد كبير من الكتاب والمفكرين .

الباب الثالث

كتاب الرسائل والانشاء

الفصل الأول

قبل الطولونين

ظلت مصر - من الفتح الإسلامي إلى أن ولها أحمد بن طولون سنة ٢٥٤ هـ - تحت إمرة والي عينه الخليفة ، ويساعد هذا الوالي في تنظيم شئون البلاد عدد غير قليل من الموظفين ، وطبعي أن تكون هناك مكاتب بين الوالي في مصر وال الخليفة في عاصمة الخلافة ، ولا بد أن تكون هناك مراسلات بين الوالي والموظفي الآخرين في مصر ، وهذه المكاتب لم يصلنا شيء منها ، وإن كنا نقول إنها كانت أشبه شيء بأوامر ولوائح صدرها الخليفة أو الوالي ، وكان يكتب هذه الرسائل في مصر كتاب الولاة . يقول المقريزى « لما كانت مصر إماراة ، كان بها ديوان البريد ، ويقال متوليه صاحب البريد ، وإليه مرجع ما يرد من دار الخلافة على أيدي أصحاب البريد من الكتب ، وهو الذى يطالع بأخبار مصر ، كما كان لبعض أمراء كتاب ينشون عنهم الكتب والرسائل ^(١) ولم ينشأ في مصر بعد ديوان الإنشاء ، ولم يكن ديوان الإنشاء بالديار المصرية في مدة

(١) خطط المقربى، ج ٣ ص ٣٦٨

خلافه ، إذ كانت الخلافة يومئذ في غاية العز ، ورفة العرش ، ونباية مصر بل سائر النيابات مضمحة في جانها ، والولايات الصادرة عن النواب في نيا باتهم متصاغرة متصاقلة بالنسبة إلى ما يصدر من أبواب الخلافة من الولايات ، فلذلك لم يقع مما كتب منها ما تتوفر الدواعي على نقله ، ولا تصرف الهمم لتدوينه ، مع تطاول الأيام وتوالي الليلى » ^(١) .

إذ نحن مضطرون إلى أن نفر بهذا العصر الطويل الذي يقدر بنحو قرنين دون أن نطيل الحديث عن هذه الرسائل التي كتبت إبانه ، فإن هذه الرسائل فقدت ، ولم يبق منها إلا شيء يسير جداً كهذه المكابدات التي كانت بين عمرو بن العاص وبين الخليفة عمر بن الخطاب ، ولكننا مضطرون إلى أن نتحدث عن هذه الرسالة التي يزعم بعض المؤرخين أن عمرو بن العاص كتبها إلى عمر بن الخطاب ، فقد قيل إن الخليفة أرسل إلى الوالي يسألة أن يصف مصر بعد أن انت فتحها ، فأجاب « ورد كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقائه ، يسألني عن مصر ، إعلم يا أمير المؤمنين ، أن مصر تربة غبراء ، وشجرة خضراء ، طرها شهر ، وعرضها عشر ، يكتنفها جبل أغرب ، ورمل أعغر ، يحيط وسطها نيل مبارك الغدوات ، ميمون الروحات ، تجري فيه الزيادة والنقصان كجري الشمس والقمر ، له أوان يدر حلابه ، ويكثر فيه ذبابه ، تمده عيون الأرض وينابيعها ، حتى إذا ما اصلح بمجاجه ، ونظمت أمواجه ، فاض على جانبيه ، فلم يمكن التخلص من القرى

بعضها إلى بعض إلا في صغار المراكب ، وخفاف القوارب ، وزوارق
كأنهن في الخيال ورق الأصائل ، فإذا تكامل في زيادته ، ونكص
على عقيبه ، كأول ما بدأ في جريته ، وطاف في درته ، فعند ذلك تخرج
أهل ملة محفورة ، وذمة محفورة ، يحرثون بطون الأرض ، ويبدرون
بها الحب ، ويرجون بذلك النماء من رب ، لغيرهم ما سعوا من كدهم ،
فنالة منهم بغير جدهم ، فإذا أصدق الواقع وأشرق ، سقاهم الندى ،
وغذاه من تحته الثرى ، فيينا مصر — يا أمير المؤمنين — لولوة
يضاء ، إذا هي عنبرة سوداء ، فإذا هي زمرة خضراء ، فإذا هي ديباجة
رقشاء ، فتبارك الله الخلاق لما يشاء ، والذى يصلح هذه البلاد دينها ،
ويقر قاطنيها فيها ، ألا يقبل قول خسيسها فى رئيسها ، وألا يستأدى
خروج ثمرة إلا فى أوانها ، وأن يصرف ثلث ارتفاعها فى عمل جسورها
وتزعمها ، فإذا تقرر الحال مع العمال فى هذه الأحوال ، تضاعف
ارتفاع المال ، والله تعالى يوفق فى المبدأ والمال »^(١) .

ثم نجد المؤرخين يقولون إنه لما ورد الكتاب على عمر بن الخطاب
قال « الله درك يا ابن العاص ! لقد وصفت لي خبراً كائناً أشاهده »^(٢)
هذا ما يقوله المؤرخون والأدباء ولكننا نشك في نسبة هذا
الخطاب إلى عمرو بن العاص ، لأننا إذا قارنا بين هذه الرسالة وبين
مارواه الأدباء والمورخون من أحاديث عمرو ، يتبيّن لنا أنها لم تصدر
عنه ، ثم هناك ناحية فنية خاصة ، ذلك أن كتاب هذا العصر اعتادوا

أن يبدأوا رسائلهم بـ«محمد الله»، أما في هذه الرسالة فـ«ذالك» عن هذه القاعدة، ولم يـ«محمد الله» ثم نرى كاتب الرسالة يـ«بذوها بالدعا» لـ«أمير المؤمنين»، وهذا لم نره في رسائل هذا العصر أيضاً، بل جاء الدعا لل الخليفة في الرسائل متأخراً جداً، وقد رأينا هذه الرسالة تشتمل على فقرات قصيرة مسجوعة، يظهر فيها أثر الصنعة الفنية، التي لم يعرفها العرب في صدر الإسلام أو أيام الأمويين، بل جاءت نتيجة لتطور الحياة المكرية عند العرب، وامتزاجهم بغيرهم من الشعوب الأخرى فاختلت السكتابة العربية بدخول الثقافات الأجنبية في العربية.

حقيقة عـ«مر و بن العاص بالفصاحة والذكاء»، حتى أن عمر بن الخطاب كان إذا رأى رجلاً يتجلجـ في كلامه يقول «ـخالق هذا وـخالق عـ«مر و بن العاص واحد»،^(١) ولكن هذا كله لا يجعلنا نقول إن عمرـ هو الذي كتب هذه الرسالة، ولعلـ أـسـطـعـ دـلـيـلـ نـسـطـطـيـعـ أنـ نـقـدـمـهـ تـدـعـيمـ حـجـتناـ،ـ هوـ أنـ نـورـ دـصـورـةـ خـطـابـ يـقـولـ ابنـ عـبـرـبـهـ فـيـ الـعـقـدـ فـرـيدـ^(٢)ـ إـنـ عـمـراـ أـرـسـلـهـ إـلـىـ الـخـلـيـفـةـ عـمـرـ بـنـ الـخـطـابـ وـهـذـاـ نـصـهـ:

ـمـنـ عـمـرـ وـبـنـ الـعـاصـ إـلـىـ عـبـدـالـلـهـ،ـ أـمـيرـ الـمـؤـمـنـينـ،ـ سـلـامـ عـلـيـكـ،ـ

ـإـنـ أـحـمـدـ إـلـيـكـ اللـهـ الـذـيـ لـاـ إـلـهـ إـلـاـ هـوـ،ـ أـمـاـ بـعـدـ فـإـنـ أـتـانـيـ كـتـابـ

ـأـمـيرـ الـمـؤـمـنـينـ يـذـكـرـ فـيـهـ مـاـ فـشـاـ،ـ وـأـنـهـ يـعـرـفـ فـيـ قـبـلـ ذـلـكـ لـامـاـلـ،ـ وـأـنـ

ـعـلـمـ أـمـيرـ الـمـؤـمـنـينـ أـنـ بـأـرـضـ السـعـرـ فـيـ رـخـيـصـ،ـ وـإـنـ أـعـالـجـ مـنـ

ـالـحـرـقـةـ وـالـزـرـاعـةـ مـاـ يـعـالـجـ أـهـلـهـ وـفـيـ رـزـقـ أـمـيرـ الـمـؤـمـنـينـ سـعـةـ،ـ

ـالـلـهـ لـوـ رـأـيـتـ خـيـانتـكـ حـلـلاـ مـاـخـنـتـكـ،ـ فـأـقـصـرـ أـيـهـاـ الرـجـلـ،ـ فـإـنـ لـنـ

ـحـسـابـاـ هـىـ خـيـرـ مـنـ الـعـلـمـ لـكـ،ـ إـنـ رـجـعـنـاـ إـلـيـهـاـ عـشـنـاـ هـاـ.ـ وـلـعـمـرـىـ اـنـ

(١) النجوم الظاهرة، ج ١، ص ٦٤ (٢) ج ١، ص ٢٦

عندك من تذم معيشته ، ولا تذم له ، فأنى كان ذلك ولم يفتح قفلك
ولم نشر لك في عملك .

من هذا الخطاب نستطيع أن نلمس الفرق بين كتابه وكتابة
الخطاب الأول ، مما يجعلنا نرجح أن الخطاب الوصفي لم يكتبه عمر و
ابن العاص .

ويزعم بعض المؤرخين أن ديوان الإنشاء والرسائل وجد في
مصر منذ أن أنشأ بها الديوان أولى من الفتح العربي ، وأن هذا الديوان
كان يكتب بالقبطية ثم نقل إلى العربية ، ومن يدعى ذلك لم يدرك تماماً
ماهية هذا الديوان الذي أنشأ في مصر منذ الفتح ، كأنشيء في غير
مصر من الأقطار الإسلامية . هناك فرق بين كتابة الدواوين وكتابة
الرسائل ، فالدواوين ماهي إلا اضرب من ضروب الحساب ، وثبتت يكتب
فيه أسماء القبائل والعشائر والبطون ، وما يخص كل فرد من النبي ، لهذا
لا نستطيع أن نتخذ هذه السجلات كتابة فنية يعتمدها الكاتب ويزينها ،
ويظهر فيها صنعته الفنية ، فإن كتابة الديوان لا تحتاج إلى شيء من ذلك
وقل عن كتاب الخراج وكتاب المقياس ما قلناه عن كتاب
ديوان الجند .

الفصل الثاني

ديوان الانشاء في العصر الطولوني والاخشيدى

كان للطولونيين مطامع سياسية واسعة ، عملوا على تحقيقها ، حتى أدر كواشرطا منها فاتسعت بذلك دائرة أعمالهم ، واضطروا إلى أن يصطمعوا لعدداً كبيراً من الكتاب يساعدونهم في القيام بهذا العبء الشقيق ، لهذا اضطر الطولونيون إلى أن يؤسسوا ديوان الانشاء بمصر ، فأحمد (يعنى أحمد بن طولون) أول من أخذ في ترتيب الملك ، وإقامة شعار السلطة بالديار المصرية ولما شيخ سلطانه ، وارتفع بها شأنه ، أخذ في ترتيب ديوان الانشاء ، لما يحتاج إليه في المكاتب والولايات^(١) .

وأول من تولى ديوان الانشاء بمصر هو أبو جعفر محمد بن أحمد بن مودود المعروف بابن عبد كان ، لم يصلنا عن حياة هذا الرجل شيء ، وكل الذين ذكروه أكدوا ب مدحه وذكر كفایته ، فإن النديم يقول « كان بليناً متربلاً فصيحاً »^(٢) ويقول القلقشندي « كان من شهير من كتابهم (أى كتاب الطولونيين) بالبلاغة وحسن الكتابة أبو جعفر محمد بن أحمد بن مودود ابن عبد كان كاتب أحمد بن طولون

(١) صبح الاعشى ، ج ١١ ، ص ٢٨ (٢) الفهرست ، ص ١٩٧

وكان مبدأ الكتاب المشهورين بها ،^(١) وفي مكان آخر يقول
« واستكتب ابن عبد كان ، فأقام متار ديوان الانشاء ، ورفع
مقداره ،^(٢) .

إذن تكاد تجتمع النصوص التي وصلتنا عن ابن عبد كان أنه كان ماهرا
في صناعته ، بل يغا في كتابته ، حتى أن القلقشندى روى أن أهل بغداد
كانوا يحسدون أهل مصر على طبّط المحرر وابن عبد كان ، يعني
كاتب الانشاء لا بن طولون ويقولون بمصر كاتب ومحرر ليس لأمير
المؤمنين بمدينة السلام مثلهما»^(٣) .

ومهما يكن في هذا القول من مبالغة ، فإنه يدل على أن رئيس ديوان
الانشاء بمصر في العصر الطولوني كانت له شهرة في فن الانشاء .
ولا ندري من أين استقى ابن عبد كان علومه التي ساعدته على أن يكون
زعيم الكتاب في مصر ، ولا ندري تماماً أين نشأ ، ولكننا نستطيع
أن ندرك أن رجلاً يشغل هذا المنصب الرفيع الذي شغله ابن عبد كان
لابد أن يكون ملياً بثقافة واسعة ، توھله هذا المنصب ، لاسيما وأن
الأمير أحد بن طولون كان على جانب عظيم من العلم ، ولعل ابن عبد كان
كان أحد الذين يصدق فيهم قول ابن خلدون « إن صاحب هذه الخطة
لابد أن يتخير من أرفع طبقات الناس ، وأهل المروءة والخشمة منهم .
وزيادة العلم ، وعارضه البلاغة ، فإنه معرض للنظر في أصول العلم ، لما
يعرض في مجالس الملوك ومقاصد حكامهم من أمثال ذلك ، مع ما تدعوه
إليه عشرة الملوك من القيام على الآداب ، والتخلق بالفضائل مع

(١) صبح الاعشى ، ج ١٢ ، ص ٩٥ (٢) صبح الاعشى ، ج ١٠ ، ص ٢٨

(٣) صبح الاعشى ، ج ٣ ، ص ١٧

ما يضطر إليه في الترسيل . وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة
وأسرارها^(١))

ولا أشك أن عدداً كبيراً من الكتاب اطلعوا على رسالة
عبد الحميد الكاتب التي وضعها نصيحة للكتاب تعينهم في مهمتهم
 فهو يقول عن العلوم التي يجب أن يحيط بها الكاتب «فتنافسوا
يامعشر الكتاب ، وتفقروا في الدين ، وابدوا بعلم الله عز وجل ،
والفرائض ، ثم العريضة ، فإنها ثقاف أولستم ، ثم أجيدوا الخط ،
 فإنه حلية كتابكم ، واررووا الأشعار ، واعرفوا غريبها ومعانها ،
وأيام العرب والجم ، وأحاديثها وسيرها فإن ذلك معين لكم على
ما تسموا إليه هممكم^(٢))

ل لكن هذه العلوم التي تحدث عنها عبد الحميد هي العلوم العربية
التي كانت في عصره ، إذ لم توجد بعد العلوم الإسلامية التي سميت
فالعلوم الدخيلة التي كانت سبباً في تطور الحياة الأدبية العربية . ففي
العصور التي تلت عصر عبد الحميد نجد الكتاب يأخذون بحظوظ
 مختلفة من العلوم الأجنبية . التي نقلها المترجمون إلى العربية . وأقبل
 المسلمين على تفهمها والأخذ منها . فقل أن تجد كتاباً لم يلم بالثقافة
 الفارسية أو الثقافة اليونانية وظهر أثر هذه الثقافات في الكتابة .
 ويقول الأستاذ الدكتور طه حسين بك : فالكتابة في العراق وفي
 المحجاز نشأت عربية خالصة دعت إليها الحاجة . وكان تطورها
 نتيجة طبيعية لتطور العرب ولتأثير العرب بالفرس واليونان .

(١) مقدمة ابن خلدون ، م ٢١٥ (٢) مقدمة ابن خلدون ، م ٢١٦

ولوجود هؤلاء الموالى الذين أخذوا بمحظ من علوم بلادهم ولكنهم تعلموا العربية وكتبوا بها فاضطروا إلى أن يدخلوا على العربية كثيراً مما ورثوه عن قومتهم ، ومن تأمل كتاتب الدولة العباسية وجدتهم جلهم من الموالى^(١) .

أما مصر فكان لها شأن آخر فقد كانت يونانية العلم قبل الإسلام وانتشر بها الأدب اليوناني ، والفلسفة اليونانية ، ولاأشك أن هذه الدراسات تركت أثراً قوياً في العقلية المصرية ظل عدة قرون ، فاستقر بمصر ولا يمكن أن يمحى إلا مع الزمن الطويل قد لا نجد بين المصريين من نقل من كتب اليونان الفلسفية ما نقله غيرهم ، ولم تلق كتب الفلسفة في مصر الإسلامية الإقبال الذي كان في غير مصر ، ولكن المصريين منذ عهد البطالسة كانوا يذكرون الأدب اليوناني بما فيه من شعر ونثر وقصص ، والفلسفة اليونانية بما فيها من طبيعتيات وإلهيات ، وعن اليونان أخذ المصريون نظم الكتابة ، وعن المصريين أخذ العرب الذين استقروا بمصر ، فإذا كان بعض كتاب العراق تأثر بالفارسية وبعضهم تأثر باليونانية ، فكتاب مصر لم يتزودوا من الثقافة الفارسية إلا من كان منهم من العراق أو فارسي الشأة ووفد على مصر بعد تمام تكوينه .

وكانت مصر الإسلامية تسير نحو الأخذ بمحظ وافر من العلوم فازداد عدد المشغلين بها يوماً بعد يوم ، فكان ذلك من الأسباب التي وجهت الكتابة في مصر إلى ناحية خاصة ، هي الناحية الفنية التي يتتكلفها الكاتب ، ويتعمد تجميلها وزخرفتها ، وهذا مازاه

(١) محاضرات الأستاذ الدكتور طه حسين بكل سنة ١٩٣١ في النثر العربي

عند الكتاب الذين نزاهم في العصر الطولوني وما بعده ، كما كان ذلك سيراً في أن كتاب مصر في هذا العصر كانوا يشبهون في كثير من الأحوال كتاب العراق الذين تأثروا بالثقافة اليونانية ، فرسائل ابن عبد كان مثلاً كانت تشبه رسائل العراقيين ، لهذا تستطيع أن تلمس التغيير الواضح في هذه الرسائل التي كتبها ابن عبد كان عن هذه الرسائل القديمة التي كتبت في صدر الإسلام ، فإنك تجد في كتابة ابن عبد كان شيئاً من الفن الذي يحدث لذة عند القراءة وعند السامعين لن تجدها في كتابة المقدمين التي لم تكتب إلا لتؤدي معنى خاصاً دون مراعاة تنسيق اللفظ .

قسم ابن عبد كان رسائله إلى أجزاء أو فصول ، مثله في ذلك مثل تلاميذ مدرسة الجاحظ من كتاب العراق الذين تأثروا بالثقافة اليونانية . كذلك يتفق الجاحظ وابن عبد كان في أن كتابتهما تميل دائماً إلى الإطناب والتطويل ، ولكنه ليس إطناباً عملاً ثقيلاً ، بل هو فن وقدرة على الكتابة ، كما كان ابن عبد كان يدخل الدعاء حشوآً معترضاً في كلامه ، ويتوجه إلى الخاطب بصيغة المفرد دائماً أما جمله فقصيرة يزيّنها بالسجع غالباً ، فهو يطرب في اللفظ ويكرر المعنى ويقتبس من القرآن الكريم ويكثر من التشبيهات والمحسانات اللفظية . في الخطاب الذي كتبه ابن عبد كان عن أحمد بن طولون إلى العباس بن أحمد بن طولون – حين ثار على أبيه – تجلّى صورة الكتابة العربية السليمة ، التي تأثرت بما كان في مصر من آثار الثقافة اليونانية وأثار الثقافة الأجنبية التي نقلت إلى العربية وهذا نص الخطاب :

من احمد بن طولون مولى أمير المؤمنين ، إلى الظالم نفسه ،
العاشر لربه ، الملم بذنبه ، المفسد لكتبه العادى لطوره ، الجاهم
لقدره ، الناكس على عقبه ، المركوس^(١) في فنته ، المنجوس من
حظ دنياه وآخرته . سلام على كل مندب مستجيب ، تائب من
قريب ، قبل الأخذ بالظلم ، وحلول الفت ونندم ، وأحمد الله
الذى لا إله إلا هو حمد معترف له بالباء بالجليل ، والطول الجليل ،
وأسأله مسألة مخلص في رجائه ، مجتهد في دعائه ، أن يصلى على محمد
المصطفى ، وأمينه المرتضى ، ورسوله المجتبى ، صلى الله عليه وسلم
(أما بعد) فإن مثلث مثل البقرة تثير المديبة بقرنيها ، والنحله
يكون حتفها في جناحيها ، وستعلم هيلتك^(٢) الهوابل ، أنها الأحق
الجاهم ، الذى ثنى على الغى عطفه ، واغتر بضجاج المواكب خلفه ،
أى موردة هلكة ياذن الله توردت ، إذ على الله عز وجل ، تمردت
وشردت ، فإنه تبارك وتعالى قد ضرب لك في كتابه مثلا « قرية كانت
آمنة مطمئنة ، يأتيا رزقا رغداً من كل مكان ، فـكفرت بأنعم الله
فـاذاقت الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ، وإنما كنا نقربك
إلينا ، ونسبيك إلى بيوتنا ، طمعاً في إنا ينك ، وتأملاً لفينتك فـلا
طال في الغى إنهماك ، وفي غمرة الجهل ارتباك ، ولم نر الموعدة
تلين كيدك ، ولا التذكير يقيم أودك ، لم تكن هذه النسبة أهلا ، ولا
إضافتك إلينا موضعأً ومحلأ ، بل لا نكni بأبى العباس إلا تكرها
وطمعاً بأن يهب الله عنك خلفاً نقلده اسمك ، ونكni به دونك ،
ونعدك كنت نسيأً منسيأً ، ولم تك شيئاً مقضاياً ، فانظر - ولا نظر

(١) الركس هو رد الغى ، مقلوباً وقلب أوله على آخره (٢) هيلتك نكتة

بك — الى عارِ نسبته تقلدت ، وسخط من قبلنا تعرضت ، واعلم
أن البلاء ياذن الله قد أظللك ، والمسكروه إن شاء الله قد أحاط بك ،
والعسا كر بحمد الله قد أنتك كالسيل في الليل ، توذن بحرب وبول ،
فإننا نقسم — وزرجو أن لا نجور ونظلم — أن لا نثني عنك عناناً ،
ولا توثر على شأنك شأننا ، ولا تتوقل ذروة جبل ، ولا تلتج بطن
واد إلا جعلناك بحول الله وقوته فيما ، وطلبناك حيث أمعنت منها
منافقين فيك كل مال خطير ، ومستصغرين بسيئك كل خطب جليل ،
حتى تستمر من طعم العيش ما استحليت ، وتستدفع من البلايا ما
استدعيت حين لا دافع بحول الله عنك ، ولا مزحرج لنا عن
ساحتك ، وتعرف من قدر الرخاء ما جهلت ، وتود أنك هلت .
ولم تكن بالعصية بخلت ولا رأي من أضلك من غواتك قبلت
فيتند يفسّرَي بك الليل عن صبيحه ، ويسفر لك الحق عن محضه ،
فتتظر بعيدين لا غشاوة عليهم ، وتسمع بأذنين لا وقر فيما ، وتعلم
أنك كنت متمسكاً بحبائل غرور ، متادياً في مقابع أمور ، من عقوق
لا ينام طالبه ، وبغي لا ينجو هاربه ، وعذر لا يتعش صريعه ،
وكفران لا يودي قتيله ، وتقف على سوء روتك ، وعظم
جريرتك في تركك قبول الأمان ، إذ هو لك مبذول وأنت عليه
تحمول ، وإذا السيف عنك مغمود ، وباب التوبة اليك مفتوح ،
وتلهم والتلهم غير نافعك ، إلا أن تكون أجبت اليه مسرعاً ،
 وأنقدت اليه منتصحاً .

وان ما زاد في ذنبك عندي ، ما ورد به كتابك على بعد
تفوذه على الفسطاط من التوبيهات والأعاليل ، والعدات بالأباطيل ،
من مصيرك بزعمك إلى إصلاح ما ذكرت أنه فسد على ، حتى ملت

الى الاسكندرية ، فأقت بها طول هذه المدة ، واستظراراً عليك بالحاجة ، وقطعاً لمن عسى أن يتعلق به معذرة علم بأن الآنة غير صادة ، ولا أنه خالجني شك ، ولا عارضني ريب ، في أنك أردت النزوح والاحتيال للهرب ، والنزوع الى بعض المواقع التي لعل قصدك إليها يوديك ، ولعل مصيرك إليها يكفيينك ، ويلغى إلى أكثر من الارادة فيك ، لأنك إن شاء الله لا تقصد موضعًا إلا تلوتك ، ولا تأني بلداً إلا قفوتك ، ولا تلوذ بعصمة تظن أنها تنجيك إلا استعنت بالله عن وجف في جدحها ، وفصم عروتها ، فإن أحداً لا يقوى مثلك ، ولا ينصره إلا لأحد أمرير من دين أو دنيا ، فاما الدين : فأنت خارج من جملته لمقامك على العقوق ، ومخالفة ربك وإسخاطه . وأما الدنيا فما أرآه بق معك من الخطاط الذى سرقته وحملت نفسك على الإيثار به ، ما يتهمك لك مكاثرتنا بمثله ، مع ما وهب الله لنا من جزيل النعمة التي نستودعه ببارك وتعالى إليها ، ورغب إليه في إيمانها ، الى ما أنت مقيم عليه من البغي الذى هو صارعك ، والعقوق الذى هو طالبك .

وأما ما ميتناه من مصيركلينا في حشوتك وجموعك ، ومن دخل في طاعتك لإصلاح عملنا ومكافحة أعدائنا بأمر أظهروا فيه الشفاعة بنا ، فاكان إلا بسيبك ، فأصلاح أيها الصبي الآخرق أمر نفسك قبل إصلاحك عملنا ، واحزم في أمرك قبل استعمالك الحزم لنا ، فما أحوجنا الله وله الحمد الى نصرتك ومؤازرتك ، ولا اضطررنا الى التكثير بك على شقاوتك ومعصيتك « وما كنت متخد المضلين عمندا »

وليت شعرى على من تهول بالجنود ، وتحرق بذكر الجيوش ،
ومن هؤلاء المسخرون لك ، الباذلون ^{دمائهم وأموالهم وأديانهم} دونك ! دون رزق ترزقهم إيه ، ولا عطاء تدره عليهم ، فقد
علمت — إن كان لك تميز ، أو عندك تحصيل — كيف كانت حالك
في الواقعة التي كانت بناحية أطربالس ، وكيف خذلك أولياؤك
والمرتزقة معلم حتى هزمت ، فكيف تغير من معلم من الجنود الذين
لا اسم لهم معلم ، ولا رزق لهم على يديك ؟ فإن كان يدعوك إلى
نصرتك هي بتلك المداراة لك والخوف من سلطانك ، فانهم ليجدن بهم
أضعاف ذلك منا ، ووجودهم من البذل الكثير والعطاء الجليل
عندنا ما لا يجدونه عندك ، وإنهم لأحرى بخذلك ، والمليل اليها
دونك ، ولو كانوا جميعاً معلم ، ومقيمين على نصرتك لرجونا أن
يمكنا الله منك ومنهم ، ويجعل دائرة السوء عليك وعليهم ، ويجرينا
من عادته في النصر وإعزاز الأمر على ما لم ينزل يتفضل علينا بأمثاله ،
ويتطول بأشباهه . فما دعاني إلى الإرجاء لك ، والتسهيل من خنائقك ،
والإطالة من عنانك ، طول هذه المدة إلا أمران : أغلبهمما كان على
احتقار أمرك واستصغره ، وقلة الاحتفال والاكرث به ، وإنى
اقتصرت من عقوبتك على ما أخلقته بنفسك من الآباء إلى أقصى
بلاد المغرب شريداً عن مزرلك وبلدك ، فريداً من أهلك وولدك .
والآخر : أنى علمت أن الوحشة دعتك إلى الانحياز إلى حيث انحرت
إليه ، فاردت التسکين من فاررك ، والطمأنينة من جأشك ، وعمات
على أنك تحن علينا حنين الولد ، وتتوق إلى قربنا توقيان ذى الرحم
والنسب ، فإن في رفقنا بك ما يعطفك علينا ، وفي تآخينا إياك ما يرددك

علينا ، ولم يسمع منا سامع في خلاء ولا ملام انتقاداً لك ، ولا
غضباً منك ، ولا قدحاً فيك ، رقة عليك واستئماماً لليد عندك ، وتأملاً
لأن تكون الراجع من تلقاء نفسك ، والمحظى بذلك لرشدك
وحفظك ، فاما الان مع اضطرارك إياى الى ما اضطربتني اليه من
الانزعاج نحوك ، وحبسك رسلى النافذين بعهد كثير الى ما قبلك ،
واستعمالك المواربة والخداع فيما يجرى عليه تدبرك ، فما أنت
بموضع للصيانة ، ولا أهل للابقاء والمحافظة ، بل اللعنة عليك حالة
والذمة منك بريء ، والله طالبك ومؤاخذك بما استعملت من العقوق
والقطيعة ، والإضاعة لرحم الآبوبة ، فعليك من ولد عاق شاق
لعنة الله ولعنة اللاعنين والملائكة والناس أجمعين ، ولا قبل الله لك
صرفاً ولا عدلاً ، ولا ترك لك من قبل أترجع اليه ، وخذلك خذلان
من لا يؤبه له ، وأشكالك ولا أمثلك ، ولا حاطتك ولا حفظك ،
فوانت لاستعملن لعنك في دبر كل صلاة ، والدعاة عليك في آناء
الليل والنهار ، والغدو والأصال ، ولا كتبن الى مصر وأجناد
الشامات والثغور ، وقسرین والعواصم والجزيرة والنجاشي وملك
المدينة كتبأ تقرأ على منابرها فيك باللعن لك ، والبراءة منك ،
والدلالة على عقوفك وقطيعتك يتناقلها آخر عن أول ، ويأثرها
غابر عن ماض ، ويخلد في بطون الصحف ، ويحملها الركبان ،
ويتحدث بها الآفاق ، وتلحق بك وبأعقابك عاراً ما اطرد الليل
والنهار ، واختلف الظلام والأنوار . فحيثند تعلم — أيها المخالف
أمر أيه ، القاطع رحمه ، العاصي ربه — ، أي جنائية على نفسك
جنيت ، وأى كبيرة اقترفت واجتبيت ، وتمنيت لو كان فيك مسكة

أوفيك فضل إنسانية ، إنك لم تكن ولدت ، ولا في الخلق عرفت إلا أن تراجع من طاعتنا والإسراع إلى ماقبنا ، خاضعاً ذليلاً كا بلزمك فتقيم الاستغفار مقام اللعنة ، والرفة مقام الغلظة والسلام من سبع الموعضة فوعها ، وذكر الله فاتقاه ، إن شاء الله تعالى ^(١) .

ونجد في رسائل المصريين شيئاً جديداً لم نعهده عند القدماء وكان له نظير عند كتاب العراق منذ القرن الثالث الهجري ، ذلك أن المصريين كانوا يفتتحون رسائلهم بالدعاء غالباً ، فدعاهم بصلاح الدنيا وبعطاية الآخرة ، أو الدعاء بكتب العدو ، أو بطيب الحياة إلى غير ذلك من الأمور التي تتتنوع بتتنوع حال المرسل إليه ، كقول أحد الكتاب المصريين داعياً ، أطال الله بقائك في إطالة حياة الأنام ، وأنس الأيام والليالي ، وأدام عزك ، في إدامته دوام الشرف ونحو المعالى ، وأتم نعمته عليك ، فإنها نعمة حلت محل الاستحقاق ، وزلت منزلة الاستيصال ، ووقفت على من لا تكون الآلام مكانه ولا تذكر الفواضل محله ... الخ ^(٢) .

وقد نجد بعض الكتاب يكتب مطرحاً الدعاء بدوام النعمة لتقيدها بمحاجاتها ، كقول أحد الكتاب « قد كني الله عن وجل مؤنة الدعاء نعمته بالغا ، لأنها توخت لديك محلها ، خات بفنائك سارة ، مطمئنة فارة ، تستوثر مهادها قبلك ، وتستمني مواردها عندك ، ولم تزل تائفة إليك ، متطلعة نحوك ، بما استجمع لها من لطيف السياسة ، وحسن الاحتمال لأعباء المغارم ، فهناً كها الله متصلة البقاء ، بطول

(١) صبح الأعشى ، ج ٢ ، ص ٥ وما بعدها

(٢) صبح الأعشى ، ج ٢ ، ص ٦٠

عده بقائلك ، ومتحلية بحسن فنائك ، فلازلت لعوارف النعم مستدعا ،
وللشكر بالزيادة فيها مترىأ ، وبدوام الحمد لردها مستمرىأ ^(١)
وقد لأنجدهذا ولا ذاك ، إذ هجم بعض الكتاب على «وضعه»
دفعه واحدة ، ويكتب رسائله مفتحا بقوله «كتاب إليك » أو
« كتبت إليك » .

أما في إجابة هذه الخطابات فراهم يبتدئون بقولهم «وصل كتابك»
ويختتمون بقولهم «إن رأيت أن تفعل كذا وكذا » أو «رأيك في
كذا وكذا » ، وقد أفرد القلقشندي في كتابه «صبح الأعشى» ببابا عن
هذه المكابيات التي كانت بين الأصدقاء أيام الطولونيين أو ما قبلها
وقد أتي بصور كثيرة من الفنون المختلفة التي ذكرنا بعضها ^(٢)
ومن المكابيات التي هي من خصائص مصر ، المكابية بالبشرة
بوفاء النيل ، والبشرة في الركوب بفتح الخليج . ولا يشارك مصر في
ذلك غيرها من المالك ولا يزال القائمون بالأمر في مصر من قديم
الزمان يكتبون بذلك إلى ولادة الأعمال ^(٣) ، ولكن لم يصلنا شيء
من المكابيات التي صدرت في العصر الذي نورخه عن ذلك .

ظهر عدد كبير من الكتاب أيام الطولونيين أمثال الحسن بن رافع
ويعقوب بن اسحق كاتب موسى بن طولون ، وكان هذا الكاتب
فيما يقال يعرف زيج السندهند ، وعنه علم بالنجوم ^(٤) ، وجعفر بن
عبد الغفار المصري ، وأحمد بن أيمن وكان كاتبا للعباس بن خالد
البرمكي في حداثته ^(٥) وكثير غيرهم ، وقد ذكر ابن الداية بعضهم في

(١) صبح الأعشى ، ج ٨ ص ١٦١ (٢) صبح الأعشى ، ج ٨ ص ١٦٠ - ١٦٦

(٣) صبح الأعشى ، ج ٨ ، ص ٣٢٨ (٤) سيرة ابن طولون لابن الداية ، ص ١٤

(٥) المكافأة ص ٩٤

كتابه المكافأة . لم يكن هؤلاء الكتاب جميعهم من مصر بل كان أغلبهم من العراق فأبو يوسف يعقوب بن اسحق كان من سر من رأى ، وابن الداية أصله من بغداد ، والحسين بن مهاجر كان من الرقة (١) ولكن كان ابن طولون يفضل أن يتبع كتابه من المصريين مع قصورهم عن العراقيين ، فقد قيل إن ابن طولون استكتب جعفر بن عبد الغفار المصري ، ولكن هذا الكاتب لم يستطع أن يؤدي عمله كما يجب ، ومع ذلك احتمله ابن طولون ، وقد سأله صديقه أحمد بن خاقان عن السر في ذلك فقال له الأمير « أنا أحتمله لأنّه مصرى ؟ » فقال ابن خاقان « أراك أيتها الأمير تفضل الكاتب المصري على الكاتب البغدادي ؟ » قال « لا والله ، ولكن أصلح الأشياء لمن ملك بلداً أن يكون كاتبه منه ، وأن يكون شمل الكاتب فيه ، فإنه يجتمع له في ذلك البلد أمور صالحة منها أن تكون بطانة الكاتب وحاشيته في ذلك البلد ، فيعود من فقهه على فريق من أهله ، ومنها رغبته في اعتقاد المستغلات به ، فيكون صفافاً لجنياته ، وهو مع هذا وشمله ظاهرون ومستقرون في خدمتى ، والكاتب العراقي ليس كذلك ، لأنّه يعتقد المستغلات في بلده النائي عنه وعنى ، وهو في كل وقت متطلع إلى بلده ، فهذا السبب زهدت في كتاب سر من رأى ، مع على بتقدمهم في الكتابة والرجاحة (٢) .

وكان لكتاب في مصر في هذا العصر شأن كبير فيما جرى من حوادث ، وقد رأينا الكتاب الذين كانوا حول العباس بن أحمد

(١) المغرب في حل المغارب ، ٢ ، نسخة خطية بدار الكتب المصرية

(٢) سيرة ابن طولون ص ١٥

ابن طولون من أمثال جعفر بن جدار، وأحمد بن المؤمل، ومحمد بن سهل المتوف، كانوا سباقاً في قيام العباس ضد أبيه، كما كانوا سباقاً في هزيمته، لأنهم لم يكونوا من رجال السيف ولا من رجال السياسة^(١).

أما الذي تولى ديوان الانشاء في عهد خماروية، فهو على بن أحد المادراني^(٢) ولكن هذا الكاتب لم يوفق إلى إرضاء خماروية، فتولاها إسحق بن نصير العبادي^(٣)، ويحدثنا ياقوت أن إسحق بن نصير الكاتب البغدادي كان كاتب الرسائل بديوان مصر بعد محمد بن عبد الله بن عبدكان^(٤) ثم يروى عن ابن زولاقي «وكان أبو جعفر محمد بن عبد الله ابن عبدكان على المكاتب والرسائل منذ أيام أحمد بن طولون، ومكاتباته وأجوبته موجودة إلى أن قدم عليه أبو يعقوب إسحق بن نصير البغدادي من العراق، والمس التصرف، فقال له ابن عبدكان فم تصرف؟ فقال: في المكاتب والأجوبة والترسل؛ وكان بين يدي أبي جعفر كتب قد وردت، فقال له: خذ هذه وأجب عليها. فأخذها ومضى إلى ناحية من الدار، فأجاب عنها، ثم وضع خفه تحت رأسه ونام، وقام أبو جعفر إلى الحجرة التي له فاجتاز به، والكتب بين يديه، فأخذها وقرأها، فلما تأملها جعل يروح إسحق بن نصير حتى وقع أثبه، فقال له: من أخذت الكتابة؟ وأجرى عليه أربعين ديناراً في كل شهر، فلم يزل مع أبي جعفر، إلى أن توفي أبو جعفر وانفرد بالأمر على بن أحد المادراني، فقال لإسحق: إلزم منزلك وانصرف فوراً

(١) سيرة ابن مالكون ص ٥٨ (٢) معجم الأدباء ج ٢ ص ٢٣٧

(٣) المغرب في حل المغارب ج ٣ مخطوط بدار الكتب، ج ٤ ص ١٤ طبعة ليدن

(٤) معجم الأدباء ج ٢ ص ٢٣٧

تب فأجاب عنها على بن أحمد ودخل على أبي الجيش خمارويه ، فرضها عليه ، فقال له : ما هذه الألفاظ التي تخرج عنى . فمضى على ابن أحمد وعاد إليه فما أراد أبو الجيش الجواب والاستزادة ، نفرج على بن أحمد وقال : هاتوا إسحق بن نصیر ثم في به ، فقال : أجب عن هذه . فأجاب ، ودخل على بن أحمد على أبي الجيش فقرأ الأجوية ، فقال : نعم هذا الذي أعرف إيش الخبر ؟ فقال له : كاتب كان مع أبي جعفر فاعتل وأحضرته الساعة . فقال هاته ؟ فأحضره ، فقال : نـمـ رزقك ؟ قال : أربعون ديناراً ، فقال لعلى بن أحمد : اجعلها له أربعاء في الشهر ، وقال لإسحق لا تفارق حضرتى . فشكث إسحق حتى صار رزقه ألف دينار في الشهر ، فكان يوجد بذلك ، ويفضل به على الناس وأرسل إلى بغداد إلى ثلاثة أنفس ، إلى أبي العباس المبرد ، وأبي العباس ثعلب ، وإلى وراق كان يجلس عنده ، دفعه واحدة ثلاثة آلاف دينار لكل واحد منهم ألف دينار وتوفي هذا السكّاتب سنة ٢٩٧ هـ^(١).

وإذا نظرنا إلى كتاب الرسائل في العصر الفاطمي زاهم يسرون بح ابن عبدكان ويتبعون أثره في الكتابة ، فإن ابن عبدكان هو مؤسس مدرسة الرسائل في مصر وهي المدرسة التي تنسب خطأ إلى تقاضي الفاضل ، وستحدث عن ذلك بشيء من الإسهاب في كتابنا . . في أدب مصر الفاطمية .

وكان إبراهيم بن عبد الله بن محمد التجيرمي زعيم كتاب الاخشيدين وكان هذا الكاتب نحوياً كفأ بالعلوم العربية الخالصة ، أخذ النحو

عن الزجاج^(١) وأخذ عنه بعض المصريين أمثال أبي الحسين المهلي وجنادة اللغوى وغيرهما^(٢) فكان لدراسته هذه أثر فى كتاباته، ومن إنشائه الخطاب الذى أرسله الاختشيد إلى المانوس ملك الروم ، وكان قد ورد على الاختشيد كتاب منه ، يفخر فيه ، ويزعم أن له الملة عليه فلما قرئ هذا الخطاب على الاختشيد ، طلب من كتابة أن يجيئوه ، فأجاب عنه جماعة فلم يختر إلا جواب إبراهيم النجيرى ، وكان عالماً بوجوه الكتابة^(٣)

واما جاء في هذا الخطاب « من محمد بن طفع مولى أمير المؤمنين ، إلى المانوس^(٤) عظيم الروم ومن يليه : سلام بقدر ما أتتم له مستحقون فانا نحمد الله الذى لا إله إلا هو ، ونسأله أن يصلى محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم ، (أما بعد) فقد ترجم لنا كتابك ، الوارد من نقولا وإسحق رسوليتك ، فوجدناه مفتوحاً بذكر فضيلة الرحمة وما نعا علينا إليك ، وعمن شبهنا فيها إليك ، وبما نحن عليه من المعدلة وحسن السيرة في رعيانا وما وصلت به هذا القول من ذكر الفداء ، والتوصيل إلى تخلص الأسرى ، إلى غير ذلك مما اشتمل عليه وتفهمناه فاما ما أطنبت فيه من فضيلة الرحمة فـنـسـيـدـ القـوـلـ الذـيـ يـلـقـاءـ بـذـوـىـ الـفـضـلـ وـالـنـبـلـ ، وـنـحـنـ بـحـمـدـ اللهـ وـنـعـمـهـ عـلـيـنـاـ بـذـلـكـ عـارـفـونـ

(١) النجوم الظاهرة ج ٤ ص ٦

(٢) بغية الوعاة للسيوطى من ١٨١ ، معجم الأدباء ج ١ ص ٢٧٨ .

(٣) المغرب في حل المغرب ج ٤ ص ١٨ طبع ليدن

(٤) هكذا في المغرب وفي صبح الأعشى ج ٧ ص ١١ جاء إلى (أرمانيوس وهو الإمبراطور رومانوس لوكيانوس Romanus Lucapenus) الذي ولد ٩١٩ م إلى عام ٩٤٤ م)

وإليه راغبون وعليه باعثون وفيه توفيق الله إيانا مجتهدون ، وبه متواصلون وعاملون ، وإياب نسأل التوفيق لمرشد الأمور ، وجوامع المصالح بمنه وقدرته .

وأما ما نسبته إلى أخلاقنا من الرحمة والمعدلة . فانا نرغب إلى الله جل وعلا الذي تفرد بكل هذه الفضيلة ، وووهبها لأوليائه ، ثم أثابهم عليها ، أن يوفقنا لها ، ويجعلنا من أهلها ، وييسرنا للاجتهد فيها والاعتصام من زيف الهوى عنها ، وعزة القسوة بها ، ويجعل ما أودع قلوبنا من ذلك موقوفاً على طاعته ، وموجبات مرضاته حتى نكون أهلاً لما وصفتنا به ، وأحق حقاً بما دعوتنا إليه ، ومن يستحق الزلفى من الله تعالى فانا فقراء إلى رحمته ، وحق لمَنْ أَنْزَلَهُ اللَّهُ بِحِيثِ أَنْزَلَنَا ، وحمله من جسم الأمر ما حملنا ، وجمع له من سعة الملك ماجع لنا ، بمولانا أمير المؤمنين — أطال الله بهقامه — أن ينتهي إلى الله تعالى في معونته لذلك ، وتوفيقه وإرشاده ، فان ذلك إليه وبيده ، « ومن لم يجعل الله نوراً فما له من نور ». وأما ما وصفته من ارتفاع مخلق عن مرتبة من هو دون الخليفة في المكابة لما يقتضيه عظم ملائكة ، وأنه الملك القديم المولوب من الله الباقي على الدهر وإنك إنما خصصتنا بالمكانة لما تحققته من حالنا عندك ، فان ذلك لو كان حقاً كانت منزلتنا كما ذكرته تقصير عن منزلة من تكابته ، وكان لك في ترك مكتبتنا غنم ورشد ، لكان من الأمر بين أن أحظى وأرشد وأولى بن حل مخلق أن يعمل بما فيه صلاح رعيته ولا يراه وصمة ، ولا نقية ، ولا عياء ، ولا يقع في معاناة صغيرة من

الأمور تعقبها كبيرة ، فإن السائل الفاضل قادر كب الأخطار ويخوض
الغار ، ويعرض مهنته فيها ينفع رعيته
والذى تجشمته من مكانتنا إن كان كا وصفته فهو أمر سهل يسير ،
لأمر عظيم خطير ، وجل نفعه وصلاحه وعائدته تخصكم ، لأن مذهبنا
انتظار إحدى الحسينين ، فلن كان منا في أيديكم فهو على يقنة من ربنا
وعزيمة صادقة من أمره ، وبصيرة فيها هو بسيله . وإن في الأسaris
من يؤثر مكانه من ضنك الأسر وشدة اليساء على نعم الدنيا وخيرها
لحسن منقلبه ، وحميد عاقبته ، ويعلم أن الله تعالى قد أعاده من أن
يفتنه ، ولم يعده من أن يبتليه . هذا إلى أوامر الانجيل الذي هو
إمامكم ، وما توجبه عليكم عزائم سياستكم ، والتوصل إلى استنقاذ
أسرائكم ، ولو لا أن إياضح القول في الصواب ، أولى بنا من المساحة
في الجواب ، لأضرتنا عن ذلك صفحًا ، إذرأينا أن نفس السبب
الذى من أجله سما إلى مكابحة الخلفاء عليهم السلام من كاتبهم ، أو
عدا عنهم إلى من حل محلنا في دولتهم ، بل إلى من نزل عن مرتبتنا ،
هو أنه لم يتحقق من معنه ، ورد ملتمسه من جاوره ، فرأى أن يقصد
به الخلفاء الذين الشرف كله في إجابتهم ، ولا عار على أحد وإن
جل قدره في ردهم ، ومن وثق في نفسه من جاوره ، وجدق صدّه أسهل
السبيلين عليه ، وأدناهما إلى ارادته ، حسب ما تقدم لهامن تقدم ، وكذلك
كاتب من حل محلك من قصر عن محلنا ، ولم يقرب من منزلتنا فما لكان
عدة ، كان يتقدّم في سالف الدهر كل ملوكه منها ملك عظيم الشأن
فمنها ملك مصر الذى أطغى فرعون على خطر أمره ، حتى ادعى الألوهية
وافتخر على نبي الله موسى بذلك . ومنها مالك اليمن الذى كانت للتبايعة

والاقبال العباهلة : ملوك حمير ، على عظم شأنهم وكثرة عددهم . ومنها أجناد الشام : التي منها جند حمص ، وكانت دارهم ودار هرقل عظيم الروم ومن قبله من عظامها ، ومنها جند دمشق على جلالته في القديم والحديث ، واختيار الملوك المتقدمين له ، ومنها جند الأردن على جلالته قدره ، وأنه دار المسيح صلى الله عليه وسلم وغيره من الأنبياء والخواريين . ومنها جند فلسطين وهي الأرض المقدسة ، وبها المسجد الأقصى ، وكرسي النصرانية ، ومعتقد غيرها ، ومحج النصارى واليهود طرا ، ومقداد ورسيلمان ومسجدهما ، وبها مسجد إبراهيم وقبره وقبر إسماعيل ويعقوب ويوفس وإخوه وأزواجم عليهم السلام ، وبها مولد المسيح وأمه وقبتها . هذا إلى ما نقلده من أمر مكة المحفوظة بالآيات الظاهرة والدلائل الظاهرة ، فإنما لم نتقلد غيرها لكان ذلك بشرفها وعظم قدرها وما حوت من الفضل توفي على كل مملكة لأنها حج آدم وحج إبراهيم وارثه ومهاجرته ، ومحج سائر الأنبياء ، وقبلتنا وقبلتهم عليهم السلام ، وداره^(١) وقبته . ومنبت ولده ، ومحج العرب على مر الحقب ، و محل أشرافها . وذوى أخطارها على عظم شأنهم ، ونخامة أمرهم ، وهو البيت العتيق الحرم ، المحجوج إليه من كل فج عميق ، الذي يعرف بفضله وقدمه أهل الشرف من مضى ومن خلف ، وهو البيت المعمور ، وله الفضل المشهور .

ومنها مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم المقدسة بترتبته ، وأنها مبط الوحي ، وبهيضة هذا الدين المستقيم الذي امتد ظله على البر والبحر ،

(١) نلاحظ هنا أن الضمار لا تستقيم مع ما قبلها مما يدل على أن بعض الجمل قد سقطت ولم تثبت في سبع الأعشى ولا في المغرب .

والسهل والوعر ، والشرق والغرب ، وصحرى العرب على بعد أطراها
وتنازع أقطارها ، وكثرة سكانها في حاضرها وباديتها ، وعظمها في
وفودها وشدةها ، وصدق أساسها ونجدتها ، وكبر أحالمها ، وبعد
مرامها ، وانعقاد النصر من عند الله برأياتها ، وأن الله تعالى أباد خضرا
كسرى ، وشرد قيسر عن داره ومحل عزه ومجده بطائفة منها .

هذا إلى ما تعلمه من أعمالنا ، وتحت أمرنا ونهينا ثلاثة كراسى من
أعظم كراسيك : بيت المقدس ، وأنطاكية ، والاسكندرية . مع ما إلينا
من البحر وجزائره ، واستظهارنا بأتم العتاد . وإذا وفيت النظر حقه .
علمت أن الله تعالى قد أصفانا بجل الملك التي ينتفع الأنام بها ،
وبشرف الأرض المخصوصة بالشرف كله دنيا وآخرة ، وتحققـتـأنـ
منـزاـتـناـ بـمـاـ وـهـبـهـ اللهـ لـنـاـ مـنـ ذـلـكـ فـوـقـ كـلـ مـنـزلـةـ ،ـ وـالـحـمـدـ للـهـ وـلىـ
كـلـ نـعـمـةـ .

وسياستنا هذه الملك قريباً وبعيداً على عظمها وسعتها بفضل الله
 علينا ، وإحسانه إلينا ، ومونته لنا ، و توفيقه إيانا ، كما كتبت إلينا ،
وصح عندك من حسن السيرة ، وبما يؤلف بين قلوب سائر الطبقات
من الأولياء والرعيـةـ ، ويجمعـهمـ علىـ الطاعـةـ واجتـمـاعـ الكلـمةـ ،ـ وـيـوـسـعـهاـ
الأمنـ والـدـعـةـ فـ الـمـعيشـةـ وـ يـكـسـبـهاـ المـودـةـ وـ المـحبـةـ .

والحمد لله رب العالمين أولاً وآخرأ على نعمه التي تفوت عند نعاد
العادين ، وإحسانه المجتهدين ونشر الناشرين ، وقول القائلين ، وشكر
الشاكرين . ونسأله أن يجعلنا من تحدث بنعمته عليه شكرآ لها ،
ونشرآ لما منحه الله منها ومن رضى اجتهاده في شكرها ، ومن أراد
الآخرة وسعى لها سعيها ، وكان سعيه مشكوراً إنـهـ حـمـيدـ مجـيدـ .

وما كنت أحب أن أباهيك بشيء من أمر الدنيا ، ولا أتجاوز الاستيفاء لما وهبناه لنا من شرف الدين الذي كرمه وأظهره وعدنا في عواقبه الغلبة الظاهرة ، والقدرة القاهرة ، ثم الفوز الأكابر يوم الدين ، لكنك سلكت مسلكا لم يجز لنا أن نعدل عنه ، وقلت فولا لم يسعنا التقصير في جوابه ، ومع هذا فإن المقصود بما وصفناه من أمرنا مكاثرتك ، ولا اعتمدنا تعين فعل لنا نعوذ به ، إذن تحزن تكرم عن ذلك ، وزرى أن تكرمل عند محلك ومنزلك ، وما يتصل بها من حسن سياسك ومذهبك في الخير ومحبتك لأهله ، وإحسانك لمن في يدك من أسرى المسلمين ، واعطفك عليهم ، وتحاورتك في الإحسان إليهم جميع من تقدمك من سلفك ، ومن كان محموداً في أمره ، رغب في محبته ، لأن الخير أهل أن يحب حيث كان . فان كنت إنما تؤهل لكاتبتك ومائتك من اتسعت مملكته ، وعظمت دولته ، وحسن سيرته ، فهذه مالك عظيمة واسعة جمة ، وهي أجل المالك التي ينتفع بها الأنام ، وسر الأرض المخصوصة بالشرف ، فان الله قد جمع لنا الشرف كله ، والولاء الذي جعل لنا من مولانا أمير المؤمنين أطال الله بقائه ، خصوصين بذلك إلى ما لنا بقدرتنا وحديثنا وموقعنا ، والحمد لله رب العالمين الذي جمع لنا ذلك بهذه وإحسانه ، ومنه نرجو حسن السعي فيما يرضيه بلطفه ، ولم ينطو عنك أمرنا فيها اعتمدناه وإن كنت تحرى في المكاتبة على رسم من تقدمك فإنك لو رجعت إلى ديوان بلدك ، وجدت من كان تقدمك قد كاتب من قبلنا من لم يجعل محلنا ، ولا أغنى غناه ، ولا ساس في الأمور سياستنا ، ولا قلد مولانا

أمير المؤمنين أطال الله بقائه ما قلنا ، ولا فوض إليه مافوض إلينا
وقد كتب أبو الجيش خماروية بن أحمد بن طولون ، وآخر من كتب
تکین مولیٰ أمیر المؤمنین ولم يكن تقلد سوى مصر وأعمالها .

ونحن نحمد الله كثيراً أولاً وآخر على نعمه التي يفوت عن دناعدها
عد العادين ، ونشر الناشرين ، ولم نزد بما ذكرناه المفاخرة ، ولتكن
قصدنا بما عدنا من ذلك حالات : أولاً ، التحدث بنعمة الله علينا ،
ثُمَّ الجواب عما تضمنه كتابك من ذكر المحل والمنزلة في المکاتبة ، ولتعلم
قدر ما بسطه الله لنا في هذه المسالك ، وعندنا قوة تامة على المكافأة
على جيل فعالك بالأسرى ، وشكر واف لما تو لهم وتوخاه من مسرتهم
إن شاء الله تعالى وبه الثقة ، وفضل الله لمواهب خيرات الدنيا والآخرة
وال توفيق للسداد في الأمور كلها ، والتيسير لصلاح القول والعمل
الذى يحبه ويرضاه ويثيب عليه ، ويرفع في الدنيا والآخرة أهل
يمنه ورحمته .

وأما الملك الذى ذكرت أنه باق على الدهر لأنه موهوب لكم من
الله خاصة ، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين
 وإن الملك كله لله يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك من يشاء ويعز من
يشاء ويدل من يشاء يده الخير وإليه المصير ، وهو على كل شيء قادر
وأن الله عز وجل نسخ ملك الملوك وجبرية الجنارين بنبوة محمد صلى الله
عليه وسلم وعلى آله أجمعين ، وشفع نبوته بالإمامية ، وحازها إلى
العترة الطاهرة من العنصر الذى منه أمير المؤمنين أطال الله بقائه .
والشجرة التى منها غصنه ، وجعلها خالدة فيهم يتوارثها منهم كابر عن

كابر ، ويلقيها ماض إلى غابر ، حتى أنجز أمر الله وعده ، وبهر نصره وكلمته ، وأظهر حجته ، وأضاء عمود الدين بالآمنة المحتدين ، وقطع دابر الكافرين لحق الحق ، ويبطل الباطل ولو كره المشركون ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها وإليه يرجعون الخ

ولعلك تلاحظ في هذا الخطاب هذه الصنعة الفنية التي امتاز بها كتاب الرسائل ، فكمثيراً ما كان الكاتب يستعمل التكرار ، والإسراف في الإطناب ، والإسهاب في المعنى الواحد ، كما نرى هذى الجمل القصيرة المسجوعة التي تدل على أن الكاتب أجهد نفسه في الكتابة ، وفي الملامدة بين المعانى والألفاظ .

وقد أحبب النجيرى نفسه بهذا الكتاب ، فنسخ منه نسخاً وأنفذه إلى البصرة وأعمالها يفتخر به^(١) .

ظل النجيرى النحوى يعمل في خدمة الإخشيديين حتى اتصل بكافور ومدحه ، قيل إن الفضل بن العباس دخل يوماً على كافور الإخشيدى وأبو إسحق النجيرى عنده فقال الفضل : أدام الله أيام سيدنا الأستاذ . ولحن في كلامه بأن كسر الأيام ، فتبسم كافور ، فأنسد أبو إسحق على البدية :

لاغرو أن لحن الداعى لسيدنا وغض من هيه بالريق والبر
فإن يكن خفض الأيام عن دهش من شدة الخوف لامن قلة البصر
فقد تفألت في هذا لسيدنا والفال نأره عن سيد البشر
 وأن دولته صفو بلا نصب بأن أيامه خفض بلا نصب

وقد أورد له ياقوت في معجم الأدباء بعض الأشعار ، كما نقل الحصري في زهر الآداب كثيراً من كتاباته وأشعاره .

ونجد الكاتب محمد بن كلا يكتب للإخشيدين أيضاً^(١)، ويسفر بين الإخشيد وبين ابن رائق ، وقد كان هذا الكاتب ثقة الإخشيد ورسوله إلى العراق ، ومع ذلك كان من نكبهم الإخشيد» والإخشيد أول من أقام الراتب ونكب عماله وكتابه^(٢) ، قبض الإخشيد على ابن كلا آخر سنة اثنين وعشرين وثلاثمائة من الهجرة، وصادره على ثلاثة ألف دينار وقبض على أهله وصادرهم ، وقبض على جماعة كانوا في داره وصادرهم أيضاً ، ولكن ابن كلا أقسم أن لا يدفع مال المصادرية أو يلق الإخشيد ويراه ، فامتنع الإخشيد أولاً ، وأغاظ ابن كلا في القسم حتى أمر الإخشيد بدخوله عليه ، فروا به عيلاً يتوكأ على رجلين – وكان به عرج – فنظر إلى الإخشيد ، وقال : أما أنا فقد استحييت » فأطرق الإخشيد ، وتم قبض المصادرية وأطلقه^(٣) ، ولم يصلنا عن هذا الكاتب شيء نستطيع أن نعرف قيمة كتابته .

ومهما يكن من شيء فأن ترى من ذلك كله أن النثر سهل ، واستطاع الكاتب أن يتصرف كيفما أحب ، دون أن يجد مشقة وجهداً ، كما أنا لاجد مشقة في فهم جمله ، بل نجد استقامة في المعنى ، وخصوصية في هذه المعانى ، مما زاد في جمال الكتابة كما أن الكتاب استطاعوا أن يعبروا عما في نفوسهم ، وما تجھيش به خواطرهم بسهولة في أسلوب فني جميل يظهر فيه أثر صنعة الكاتب الفنية ، وقدرته على الكتابة في ألوان الفنون المختلفة

(١) المغرب ص ٢٥ (٢) المغرب ص ٢٩ (٣) المغرب ص ٢٧

الباب الرابع

في الشعر

الفصل الأول

من الفتح الإسلامي إلى سقوط الدولة الأموية

وجد الشعر العربي بمصر كاً وجد في غيرها من الولايات الإسلامية، ولكن الذي وصلنا منه قدر يسير، لا يكفي لأن نعرف منه خصائص الشعر المصري، ولا أن نفرق بينه وبين الشعر في الأقطار الأخرى، قد نجد في هذه الآيات القليلة التي وصلتنا بعض المعانى المصرية، وبعض المحوات المصرية، التي تفرق الشعر المصري عن الشعر في البلاد الأخرى ويعطيه الصبغة الإقليمية المصرية، ولكن هذه الآيات أو المقطوعات لا تكفي لأن تدلنا على مدى تأثر الشعر العربي بالبيئة المصرية، وإن كانت تدلنا على أنه كان مصر شعر تأثر بالحياة المصرية، وأن هذا الشعر فقد، ولم يبق منه إلا مقطوعات قليلة متاثرة في كتب الأدب والتاريخ.

وأرجح أن أسباب ضياع الشعر المصري في هذا العصر هي نفس الأسباب التي جعلت الكتابة الفنية - أى كتابة الرسائل والإنشاء تتأخر في مصر حتى قدوم أحمد بن طولون - في عصر الخلفاء

الراشدين وعصر الأمويين والعباسيين كانت مصر ولاية ليس لها شأن
مقر الخلافة ، وإذا نبغ شاعر أو كاتب كان يحمل إلى الخليفة أو يرحل
هو إلى دار الخلافة لينال من العطاء والهبات ما كان يأخذه شعراء
الخليفة ، أضف إلى ذلك عدم اكتتراث المصريين في أول الأمر بدراسة
الأدب والعلوم الأدبية ، بل كان جل اهتمامهم يكاد ينصرف إلى
الدراسة الدينية الخالصة ، مما أضعف رواية الشعر ودراسته في مصر ،
وبسبب ضياع أكثر شعر المصريين
وإذا أردنا درس تاريخ الشعر في مصر الإسلامية في العصر الذي
نورخه في هذا الكتاب ، فسنرى ثلاثة أدوار تطور فيها الشعر المصري
تطوراًينا .

ففي الدور الأول الذي يبتدئ بالفتح إلى سقوط الدولة الأموية
لم يصلنا في هذا العصر الذي ينوف على مائة عام إلا عدة أبيات قليلة
جداً ، لأننا لا نستطيع أن نتحدث بها عن الشعر كله ، ولم يصلنا قصيدة كاملة ،
إلا إذا استثنينا شعر الشعراً الواقفين على مصر ، والذين كان لهم أثر
كبير في ازدهار الحياة الأدبية في مصر ، ومع ذلك فهو هذه الأبيات القليلة
التي وصلتنا إنما تدلنا على أنه كان في مصر شعر ، وأنه لم يعن أحد
بروايته وحفظه فقد .

ولعل أول قصيدة رویت في مصر هي قصيدة أبي المصعب البلوي
التي هجا بها أشراف مصر ، وقد أعجب بها الخليفة معاوية بن أبي سفيان
فكان إذا قدم عليه أحد من أهل مصر سأله أن ينشده هذه القصيدة (١)
فالشاعر في هذه القصيدة يعيّب عرب مصر أنهم حضر ميون ، ليس لهم

شرف ولا بجد وأنهم متكبرون، ولست أدرى سبب هذا الهجاء لكن
يخيل إلى أنه طلب نواهيم فرفضوا عطاهه.

وخلت أنا دى اللسكعاء قيساً
ليدخلنـى وقد حضر الغذاء
وليس بـمـاجـد الجـدـات قـيس
ولـكـنـ حـضـرـمـيات قـاء
أـعـرـضـ نـفـحـهـ الـيـرـبـوـعـ عـنـ
أـشـارـ بـكـفـهـ الـيـنـىـ وـكـانـتـ
أـكـامـ عـائـذـاـ وـيـصـدـ عـنـ
وـجـرـفـ قـدـ تـهـمـ جـانـبـاهـ
وـأـمـاـ الـقـحـزـىـ فـذـاكـ بـغـلـ
وـهـذـاـ الـقـصـيرـ مـنـ تـجـيـبـ
وـلـوـ يـسـطـيعـ مـاـ نـفـضـ الـخـلـاءـ^(١)

يريد يزيد بن شرحبيل وقيس بن كلب الحاجب وعائذ بن ثعلبة
البلوي الذي قتل بالبرلس سنة ٣٥، والقحزمي هو عمرو بن قحزم
وكربي بن أبرهة، وأشار بالقصير إلى زياد بن حنطة التجيبي صاحب
القصر المعروف باسمه.

ولهذا الشاعر قصيدة أخرى مدح بها عبد الرحمن بن قيسية بن
كلثوم التجيبي الذي وهب أبوه داره ليكون مسجداً بالفسطاط وقد
ضاعت هذه القصيدة ولم يبق منها سوى بيت واحد.

وأبوك سلم داره وأبا حبها لجـاهـ قـومـ رـكـعـ وـسـجـودـ^(٢)
وهذا الشعر صدر من رجل لا نعرف إلا اسمه وهو قيس بن سلمة
المكتنى بأبي مصعب البلوي، ولا ندرى أكان يقطن مصر كغيره من

(١) فتوح مصر لابن عبد الحكم من ١٢٤

(٢) خطط الماقريزي ج ٤ من ٥

بطون « بلي » أم وفدى عليها كباقي الشعراء الذين أكثروا من الوفود
على مصر لمدح ولاتها .

ومن الأشعار التي وصلتنا أيضاً في تصدق عبد الرحمن بن قيسية
على المسلمين بداره لبناء مسجد الفسطاط ماقاله أبو قبان بن نعيم
بدر النجبي .

وبابلدون قد سعدنا بفتحها وحزنا لعمر الله فيها ومتنا
وقيسية الخير بن كلثوم داره أباح حماها للصلوة وسلمها^(١)

وفي ولاية مسلمة بن مخلد ، سنة ثلاثة وخمسين من الهجرة هدم
ما كان بناء عمرو بن العاص من مسجد الفسطاط وأمر بالزيادة في المسجد
الجامع وبناء منار المساجد كلها فقال عابد بن هشام الأزدي .

لقد مدت لسلمة الليالي على رغم العادات مع الأمانى
وساعده الزمان بكل معد وبلغه بعيد من الأمانى
أمسلم فارتق لازلت تعلو على الأيام مسلم والرمان
لقد حكمت مسجدنا فأضيعي كأحسن ما يكون من المباني
فتاه به البلاد وساكنوها كأن تجاوب الأصوات فيها
إذا ما الليل القى بالحران كصوت الرعد خالطه دوى وارعب كل مختطف الجنان^(٢)

وكان بين الولاية من يحب الشعر ويرويه ، ومنهم من كان شاعرا
كالوالى عقبة بن عامر الذى كان شاعرا ولكن منعه شدة حر صه على

(١) خطط المقربى ج ٤ ص ٥

(٢) شرحه ج ٤ ص ٧

دبنه من أن يكثر من إنشاد الشعر^(١)

ولعل أكثر ولاة مصر في هذا الدور جبأ للشعر والشعراء هو الأمير عبد العزيز بن مروان الذي ولد من سنة خمس وستين ، إلى أن توفي بمصر سنة ست وثمانين هجرية ، فقد اتصل به كثير من الشعراء النابهين ومدحوه هو وأل بيته ، ولاغروا في ذلك فعبد العزيز كان إليه أمر الخلافة بعد أخيه عبد الملك ، فكان الشعراء يقصدونه وهو على مصر حتى يكون لهم شأن بعد أن تنصير إليه الخلافة ، وكان عبد العزيز جواداً يبذل العطايا لكل من يقصدته فوقد اغدوه الشعراء ، وهؤلاء الذين جاءوا مصر لم يقيموا بها إلا ل أيام معدودة ، على أن يعودوا إلى مواطنهم فمن جاء مدح عبد العزيز بن مروان الشاعر أيمن بن خريم الأسدى أقام هذا الشاعر عند الوالى وأكثر من مدحه حتى قدم الشاعر نصيб بن رباح فأعجب الأمير بشعره ، وبينما نصيبي ينشد مدحه جاء الحاجب يقول إن أيمن بن خريم بالباب فأذن له عبد العزيز فلما دخل قال له الأمير : يا أيمن كم ترى ثمن هذا العبد ؟ وأشار إلى نصيبي فنظر أيمن إليه وقال : لنعم العادى في إثر الخاضع هذا أيمها الأمير أرى ثمنه مائة دينار . قال : فإن له شعراً وفصاحة ، فسأل أيمن نصيبي : أتفقول الشعر ؟ فأجابه نصيبي نعم فقال : قيمته ثلاثون ديناراً ، فقال الأمير يا أيمن أرفعه وتخفضه أنت ! قال : لكونه أحق أيمها الأمير ما لهذا ولأشعر أمثل هذا يقول الشعر أو يحسن شعراً ! فأمر عبد العزيز نصيبي أن ينشده فأنشده فقال عبد العزيز كيف تسمع يا أيمن ، قال : شاعر أسود هو أشعر أهل جلدته

قال الأمير « هو والله أشعر منك ، وكرر ذلك فغضب أيمن وقال
، والله أيها الأمير إنك ملول ظرف .. قال الأمير : كذبت والله
ما أنا كذاك ولو كنت كذبك ما صبرت عنك تنازعني التحية تو أكلي
الطعام وتتكئ على وسادتي وفرشي وبك ما بك (١) . فاغناط أيمن
واستأذن الأمير في الخروج إلى العراق فأذن له وسار أيمن إلى بشر
ابن مروان والى العراق ومدحه بقوله :

ركبت من المقطم في جمادى إلى بشر بن مروان البريدا
ولو أعطاك بشر ألف ألف رأى حقاً عليه أن يزيدا
أمير المؤمنين أقم بيشر عمود الحق إن له عموداً
وعد بشر آيقومهم ويحدث لأهل الزيغ إسلاماً جديداً
كأن الساج تاج بن هرقل جلوه لأعظم الأيام عيداً
على ديار خدى وجه بشر إذا الألوان خالفت الخودا (٢)
فأنت ترى أن الشاعر هنا عرض بعبد العزيز في قوله « إذا الألوان
خالفت الخودا » فإن عبد العزيز كان بوجهه نمش .

أما نصيبي بن رباح فيقول الرواة إنه كان بعض العرب من
بني كمانة فاشترىه عبد العزيز بن مروان منهم ، وقيل بل باعه عممه بعد
أن مات أبوه إلى عبد العزيز ، وقيل إن نصيبياً رأى في نفسه مقدرة
على الشعر ، فحدث أمه أو أخته في الرحيل إلى عبد العزيز بمصر عسانى
يعتق أهل بيته ، فضحكـت هذه ساخرة منه ، ولكنـه أـنشـدـها شـعـرـاـ

أـبـعـيـتـ بـهـ ، وـاطـمـأـنـتـ إـلـىـ قـدـومـهـ مـصـرـ خـضـرـ بـابـ عبدـ العـزيـزـ ولـكـ

(١) يقصد بذلك أن أيمن بن خريم كان به وضع (٢) الأغانى ج ١ من ١٢٧

لم يستطع الدخول ، حتى رأى رجلاً حسن البدة ، خادته نصيب في
التوسيط له بالدخول على الأمير ، وعرفه أنه شاعر فاستنشده الرجل
فلياً أنشده نصيب شيئاً من شعره استملحه الرجل ، ولكنه شك أن
يكون مثل هذا الشعر مثل هذا الأسود ، فطلب إليه أن ينشد شعراً
يذكر فيه جوف مصر وبعض فضائلها ، ووعده أن يستمع إليه في
الغد ، فلما جاء الغد أنشد نصيب الرجل

سَرِّيَ الْهَمْ تَشَبَّهُ إِلَيْكَ طَلَانِعَهُ
بِمَصْرِ وَبِالْجَوْفِ اعْتَرَقَنِي رِوَايَهُ
وَبِيَاتِ وَسَادِيِّ سَاعِدِ قَلَّتْ لَهُ
عَنِ الْعَظَمِ حَتَّى كَادَ تَبَدُّلُ أَشَاجِعَهُ
إِلَى أَنْ قَالَ :

لَهَا شَقَقَتْ مِنْ وَجْهِ أَسْيَلِ مَدَامِعِهِ
وَافْتَاهَ عَمْرُو وَهُوَ خَصْبُ مَرَابِعِهِ
تَجَافَتْ بِهِ حَتَّى الصَّبَاحِ مَضَاجِعِهِ
وَلَائِيَّ مِنْ مَوْلَى نَمْتَنِي قَوَارِعِهِ
مَانِحُ قَوْمٍ أَنْتَ مِنْهُمْ مُودِّعٌ
وَمَتَحْذِّدٌ مُولَاكٌ مُولَى قَاتِبِهِ^(١)
فَأَيْقَنَ الرَّجُلُ صَدَقَ شَاعِرِيَّةَ نَصِيبٍ ، وَقَدَّمَهُ إِلَى الْوَالِيِّ ، بَغْرِي
بِعِدِهِ ، مَعَ أَيمَنِ مَا ذَكَرَ نَاهَ سَابِقاً . عَلَى أَنْ هَنَاكَ رِوَايَةُ أُخْرَى تَقُولُ إِنْ
نَصِيبَاً كَانَ يَرْعِي إِبْلًا لِمَوَالِيهِ ، فَأَفْضَلَ مِنْهَا بَعِيرًا ، نَفْرَجَ يَبْحَثُ عَنْهُ
سَاهَنِي أَقِ الْفَسْطَاطِ وَبِهِ عَبْدُ الْعَزِيزِ ، فَرَغَبَ فِي الاتِّصالِ بِهِ ، فَاسْتَأْذَنَ
عَرَى الدُّخُولَ فَنَعَ ، وَبَعْدَ لَائِي طَلَبَهُ الْأَمِيرُ وَاسْتَشَدَهُ فَأَنْشَدَهُ :

لِعَبْدِ الْعَزِيزِ عَلَى قَوْمِهِ وَغَيْرِهِمْ نَعَمْ غَامِرَةٌ

فبأبك ألين أبوابهم ودارك مأهولة عامرة
وكلبك آنس بالمعترين من الأم بالإبة الزيارة
وكفك حين ترى السائلين أندى من الليلة الماطرة
فنك العطاء ومن الثناء بكل محيرة سائرة^(١)

فسر به الوالى وأعطاه واشترى ولاهه ، ولـكـنـهمـ معـ هـذـاـ كـلـ فـالـمـؤـرـخـونـ يـرـوـونـ روـاـيـاتـ كـثـيرـةـ عنـ خـرـوجـ نـصـيـبـ إـلـىـ عـبـدـ العـزـيزـ .ـ وـمـمـاـ يـكـنـ منـ شـيـءـ فـإـنـ الشـاعـرـ اـتـصـلـ بـعـدـ العـزـيزـ حـتـىـ لـقـبـ بـمـوـىـ عـبـدـ العـزـيزـ بـمـرـوانـ ،ـ وـلـكـنـهـ لـمـ يـقـمـ عـنـ الـأـمـيرـ عـبـدـ العـزـيزـ بـمـصـرـ .ـ بـلـ كـانـ كـثـيرـ التـنـقـلـ مـتـكـسـبـاـ بـشـعـرـهـ كـغـيرـهـ مـنـ شـعـرـاءـ الـعـربـ ،ـ وـمـاـ يـزـلـ نـصـيـبـ يـتـرـدـدـ عـلـىـ مـصـرـ بـيـنـ الـفـيـنـةـ وـالـفـيـنـةـ ،ـ وـيـمـدـحـ عـبـدـ العـزـيزـ خـيـرـ تـوـفـيـ الـأـمـيرـ مـتأـثـراـ بـالـطـاعـونـ ،ـ وـكـانـ قـدـ هـرـبـ إـلـىـ قـرـيـةـ فـيـ الصـعبـ تـسـمـيـ «ـسـكـرـ»ـ خـوـفاـ عـلـىـ نـفـسـهـ مـنـ المـرـضـ وـلـكـنـهـ تـوـفـيـ بـهـاـ (٢)ـ فـلـيـأـقـيـ نـصـيـبـ نـعـيـ الـأـمـيرـ أـنـشـدـ :

أصبت يوم الصعيد في سكر
تالله أنسى مصيبي أبداً
لم يعلم النعش ماعليه من
حتى أجنسوه في ضريحهم حين انتهى من خليلك الأمل
وقد رثاه بقصيدة رائية أخرى منها :

(١) الأغاني ج ١ ص ١٢٩

(٢) هكذا في الأغانى ج ١ من ١٣٩ ولكن السكتنى يقول إنه توفى بحل

(٣) يروى هذا البيت في كتاب الولاة لـ скندى ص ٦٦، متوجهاً إلى كف رثاء عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان وأبي بكر بن عبد العزيز بن مروان

(١) الأغاني ج ١ ص ١٣٩

عرفت وجربت الامور فا أرى
كماض تلاه الغابر المتأخر
ولكن أهل الفضل من أهل نعمتي
يمرون أسلافاً أمامي وأغرب
فإن أبكيه أعذر ، وإن أغلب الآمي
بصبر ، فشلي عندي عندما اشتدي صبر
وكان ركابي كلما شئت تنتهي
جاحا فقضى نحبها وهي تصمر
قد عريت بعد ابن ليلٍ^(١) فاما
ذرها لم لاقت من الناس منظر
ولو كان حياً لم يزل بدفعها
مراداً لغربان الطريق ومنقر
فإن كن قد نلن ابن ليلي فإنه
هو المصطف من أهل التخير
وقد أعجب بهذه القصيدة الخليفة عبد الملك بن مروان وكان
يطلب من نصيب أن ينشدتها أمامة^(٢) .
ووفد الشاعر عبد الله بن الحجاج^(٢) على عبد العزيز بن
مروان بصر ومدحه ، فأجزل عطاه ، وأمر أن يقيم عنده ، ولكن
طال مقامه واشتاق إلى ذويه بالكوفة ، فاستأذن الأمير في السفر
فلم يأذن له ، فاضطر الشاعر إلى أن يعصي أمر الأمير ، فقد غلبه

(١) الأغاني ج ١ ص ١٣٩ (٢) الأغاني ج ١٢ ص ٢٩

الشوق ، فرحل بدون إذن ، فاضطرّ الأمير عبد العزيز إلى أن يكتب إلى أخيه بشر وإلى العراق أن يمنع عطاء بن الحاج ، واضطُر الشاعر إلى أن يعود إلى مصر مادحًا عبد العزيز معترضًا ، فصفح عبد العزيز عنه بعد أن استمع لقصائده التي منها :

ترك ابن ليلي ضلة وجريمة
و عند ابن ليلي^(١) معقل ومعول
سأحكم أمري إذا بدا لي رشده
و أختار أهل الخير إن كنت أعقل
و أترك أو طاري وألحق بامرئ
تحلب كفاه الندى حين يسأل^(٢)
ثم أمر عبد العزيز أن يطلق عطاء الشاعر وأن يوصل وسمح له
أن يقيم أني شامة .

و جاء مصر الشاعر كثير عزة و تردد عليها مراراً يمدح الأمير عبد العزيز بن مروان ويقال إنه دخل على عبد العزيز يعوده في مرضه وأهله يتمنون أن يضحك فلما وقف عليه قال «لو أن سرورك لا يتم إلا بأن تسلم وأقسم ، لدعوت ربى أن يصرف ما بك إلى ، ولكنني أسألك الله تعالى لك العافية ولـي في كنفك النعمة ، فضـنك عبد العزيز وسر أهله ^(٣) وينـما كثـير يتأـهـب للرحـيل من مصر لـفـتـة عـزة في طـريقـها هـي وـقـومـها إـلـى مـصـر ، قـيل : خـادـمـها طـويـلاً مـ اـفـتـرـقاـ فـقدـمـت هـي مـصـر وـسـافـر هـو إـلـى الحـجـاز عـلـى أـن يـلـحقـ بـها بـمـصـر وـيـحدـثـنا الحـصـرـى قـال : وـرـوـى المـدـافـىـ ، خـرـجـ كـثـيرـ مـن الحـجـاز

(١) كان الأمير عبد العزيز يقترب إذا ذكر أحد الشعراء اسم والدته (إيل) وفي شعره حتى روى أنه قال « لا أعطي شاعرًا شيئاً حتى يذكرها في مدحه لصرفها » (الأغاني ج ١ ص ١٣١) وكانت من بنى سكان .

(٢) الأغانى ج ١٢ ص ٣٠ (٤٣٢) ابن خلkan > ١١ ص

يريد مصر فلما قرب منها نزل منزل فإذا هو بغراب على شجرة بان
يتنفس ريشه وينبع ، فأسرع الرحيل وممضى لوجهه ، فلقيه رجل من
بني نهم ، فقال : يا أخا الحجاز مالي أراك كاسف اللون . قال :
ما عالمت إلا خيراً . قال : فهل رأيت في طريقك شيئاً أنكرته .
قال : لا والله إلا في منزلي هذا فاني رأيت غرابة يتنفس ريشه على بانه
ينبع قال : أما أنت تطلب حاجة لا تدركها . فقدم كثير مصر
والناس منصرون من جنازة عزة فقال :

رأيت غرابة ساقطاً فوق بانه يتنفس أعلى ريشه ويطايشه
فقلت ولو أني أشاء زجرته بنفسى للنهى هل أنت زجراء
فقال غراب لا غراب من النوى وفي البان بين من حبيب تحاوره
فاً أعيض النهى لا در دره وأز جر للطير لاعز ناصره^(١)
ثم أني قبر عزة فأناخ به ساعة ثم رحل وهو يقول :
أقول ونصوى واقف عند رأسها
عليك سلام الله والعين تسفح
فمـذا فراق الحق لا أن تزيفي
بلادك فلام الذراعين صيدح
وقد كنت أبكي من فراقك حية

وأنت لعمري اليوم أنسى وأنزع^(٢)
وهكذا شاء القدر أن تدفن عزة بمصر ، وأن يسكنها كثير بها ،
والرواية يقولون إن شعره تغير بعد موتها ، وسألة أحدهم : ما بال

(١) زهر الآداب ج ٢ ص ١٦٩

(٢) حسن الحامرة للسيوطى ج ١ ص ٣٢٢

شعرك قد فصرت فيه؟ فقال: ماتت عزة فلا أطرب وذهب
الشباب فلا أتعجب وما ت عبد العزيز بن مروان فلا أرعب، وإنما
الشعر عن هذه الحال^(١).

وقدم جميل بن معمر إلى عبد العزير مادحًا ، فاذن له وسمع
قصائده وأحسن حائزته ، وسأله عن جهة لبيثة فذكر ولعه بها ،
وأمره الوالي أن يقيم معه في مصر وهياً له منزلًا وأجرى عليه رزقة
فاقام إلا قليلا حتى وافته منيته بمصر سنة اثنتين وثمانين من الهجرة
ويقال إنه أنسد وهو يختضر .

بكر النعى وما كان بجميل هنوى بمصر ثواه غير قفول
قومي بثينة فاندب بعوبل وابكي خليلك قبل كل خليل^(٢)
وكذلك وفد عبيد الله بن قيس الرقيات على مصر ومدح عبدالعزيز
وشاد بذكر مدينة حلوان التي بناها الامير واتخذها مسكنًا له .
سقى حلوان ذى الكرم وما صنف من تينه ومن عنبه
نخل مواشير بالفناء من البر في غالب تهتز في شربه
أسود سكانه الحمام فا تنفك غربانه على رطبه^(٣)
ومدح عبدالعزيز بأشعار كثيرة جداً نجدها في ديوانه ، من
ذلك ماقاله لما خرج عبدالعزيز خرجته الثالثة إلى الإسكندرية سنة
إحدى وثمانين من الهجرة .

غدوامن مَدْرَج الْكَرْبَوَةِ نَحْنُ حِيثْ سَفِينَهُمْ حَزْقُ
فَلَا أَنْ عَلَوْنَ النَّبِيلَ وَالرَّابِيَاتِ تَخْتَفِقُ

(١) حسن الحاضرة للسيوطى ج ١ ص ٣٢٢ (٢) شرحه

(٣) خطط المأربى بـ ١٠٩ م وديوان قوس الرقيات والسكنى م.

رأيت الجوهر الحكى والديساج يأتلق
سفائن غير مُقرفة إلى حلوان تسقى
 محل من يحل به لذى عيشه غدق
 يحل به ابن ليلي والندى والحلم والصدق^(١)
 ونلاحظ أن الفرزدق لم يكن يحب الوفود على الأمراء ولكنه
 كان يود أن يفد على مصر وعمل شعراً في مدح عبد العزيز بن
 مروان ، وهم الفرزدق أن يزور مصر ولكن جاءه نهى عبد العزيز
 فبقي مكانه ولم يأت مصر .

وقد رثى الأمير عبد العزيز بن مروان كثير من الشعراء من ذلك
 ما قاله ذو الشامة محمد بن عمرو بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط يرثى
 عبد العزيز وابنه الأصبع الذي توفي سنة ست وثمانين من الهجرة قبل
 وفاة أبيه بنحو شهرين :

نقول غادة قطعنا الجفا
 والعين بالدموع مغروقة
 مقال امرئ كاره للفرا
 ق تاع البلاد وباع الرقة
 أبعد الخليفة عبد العزيز وبعد الأمير كذا وابقه
 فما مصر لي بعد عبد العزيز والأصبع الخير باللونقه
 سق الله قبرهما والصدى
 وما جاوارا ديمه معدقه
 فإن تلك مصر أشارت بها
 إلى الشر يوماً يد موافقه
 فقدمآ تقر بمصر العيون في لذة العيش محدودقة^(٢)
 فأنت ترى كيف استطاع الأمير عبد العزيز بن مروان أن يجمع

(١) ديوان ابن الرقيات ص ٣٢٩

(٢) السكوني ص ٥٦

حوله عدداً من الشعراء البارزين ، وأن يجعلهم يتجشمون صعاب الطريق من بلادهم إلى مصر .

وَكَذَلِكَ نَقُولُ عَنِ الْوَالِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمَالِكِ بْنِ مَرْوَانَ الَّذِي
وَلِيَ مَصْرَ سَنَةَ سَتِ وَمَائَيْنِ ، فَقَدْ وَفَدَ عَلَيْهِ الْحَزَنُ الْكَنَافِ ، وَيَكْنَى
سَلِيمَانَ أَبَا الشَّعْثَاءِ وَمَدْحَ الْوَالِي بِقَوْلِهِ :

الله يعلم أن قد جئت ذا يعن ثم العراقين لا يثنيني السأم
ثم الحزيرة أعلاها وأسفلها كذا تسرى على الأهواں القدم
وحيث تخلق عند الجرة اللهم
ثم المواسم قد أوطأتها زمنا
قالوا دمشق ينبيك الخبر بها
ما وقفت عليها في المجموع ضحى
حياته السلام غير مرتفق
وضجة القوم عند الباب تزدحم
في كفة خيزران ريحها عبق من كف أروع في عرنينه شم^(١)
لم تعدم القبائل التي قطنت مصر أن يظهر بينهم شعراء وقد
هيئت الأسباب التي تدعو إلى وجود الشعراء . تلك هي الفتن التي
كانت في مصر إذ ذاك ، كما كان الحال في جميع البلاد الإسلامية .
من ذلك أن عبد الرحمن بن جحش ول مصر من قبل ابن الزبير فلما
أن بويع مروان بن الحكم سنة أربع وستين من الهجرة أراد أن
ينزع مصر من الزبيريين فسير ابنه عبد العزيز إليها خفر ابن جحش
خندقاً حول الفسطاط سنة خمس وستين من الهجرة ، وأرسل جيشاً

(١) الأغاني ج ١٤ ص ٢٦ وقبل إن هذه القصيدة للحزن في رثاء عبد العزيز بن مروان . وممما يكنى من أمر هذا الاختلاف فقد قيلت هذه القصيدة في مصر وكان الحزن بها .

عليه زهير من قيس البلوى إلى إيله لينع عبد العزىز من المسير ، وسار
مروان أيضا إلى مصر ولكن هزم الجيش المصرى وتقدمت جيوش
المرواينين ^(١) في هذه الحروب قال بعض عرب مصر شعرا ، ولكن
هذا الشعر لم يصلنا منه إلا النثر البسيط من ذلك ما قاله زرعة بن

سعد بن أبي زمزمة الحشنى يمدح ابن جحدم

وما الجد إلا مثل جدابن جحدم وما العزم إلا عزمه يوم خندق
ثلاثون ألفاً هم أناروا قرابه وخدوه في شهر حديث مصدق ^(٢)

ومما زال هذا الشاعر ينقم على الأمويين ، حتى كانت ولاية عبد الله
ابن عبد الملك بن مروان ، وشامت الظروف أن ترتفع الأسعار بمصر
فتشاءم المصريون بالوالى الجديد ، وخرج الوالى سنة ثمان وثمانين
إلى أخيه الوليد فهجاه ابن أبي زمزمة بقوله :

إذا صار عبد الله من مصر خارجاً فلا رجعت تلك البغال الخوارج
أني مصر والمكىال واف مغربل ثم سار حتى سار والمد فاجل ^(٣)
فعنكب عليه الوالى وأهدى دمه فاضطر الشاعر أمام هذا الوعيد
إلى أن يهرب من مصر إلى بلاد المغرب حيث كتب إلى الخليفة :

ألا لا تنه عبد الله عنى كما قد قال يجعلنى نكالا

ولم أشتمن عبد الله عرضأ ولم آكل لعبد الله مالا ^(٤)

وقيل إن عبد الله طلب الشاعر ابن أبي زمزمة فهرب منه فبلغ
الوالى أن عمران بن عبد الرحمن قاضى مصر أولى الشاعر وأن القاضى
بها الوالى بأبيات له منها :

(١) السكندري من ٤١ — ٤٢

(٢) السكندري من ٤١ — ٤٢

(٤) شرحه

(٣) شرحه من ٥٩

أنا ابن أبي بدر بهجرة يثرب و هجرة أرض للنجاشي أفحى
أمثالى على سنى وفضل أبوى نسيت وهذا نجح مروان يذكر^(١)
فعزله عبدالله عن القضاة والشرطة سنة تسع وثمانين فقال عمران
يهجو عبدالله ويعرض بالقاضى الجديد عبد الواحد بن عبد الرحمن
ابن معاوية وكان حدثاً غير أنه كان فقيهاً .

لدى الله قوماً أمروك ألم يروا بأعطافك التخنيث كيف يرثى
أنصر فى جهلاً عن الحكم ظالماً وولته عجزاً فتاة تحبب^(٢)
شكلاً من وال وأيضاً شكله ألم يكفى الناس الكثير نصيب^(٣)
واستمرت الحروب التي كانت بين المروانيين والأمويين في مصر
طويلاً وكانت تعرف هذه الحروب بأيام الخندق أو «التراويف»^(٤)
لأن أهل مصر كانوا يقاتلون نوباً ، يخرج هؤلام ثم يرجعون
ويخرج غيرهم ، وقتل من المصريين عدد كبير لا سيما من «المعافر»
وفي هذه الحروب قال عبد الرحمن بن الحكم وكان مروانياً :

ألا هل أنها على ناها بناء التراويف والخندق
بلغنا بفياق يعشى الظراب بعيد السمو لمن يرتقى
وسدت معافر أفق البلاد بمرعد جيش لها مبرق
ونادى الكاهة ألا فابرزوا ختم حتى ولا نلتقي^(٥)
وقام بعض المصريين بالصلح بين المروانيين والمصريين ولكن

(١) сканди ص ٣٢٨

(٢) أراد بفتاة تحبب القاضى عبد الواحد بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج التجيبي

(٣) сканди ص ٤٤ (٤) сканди ص ٣٢٨ (٥) شرحه

المعافر لم يقبلوا أن يبايعوه ، فقتل من المعافر نحو ثمانين رجلاً بينهم الأكدر بن حمام سيد لخم وشيخها فلما علم المصريون ذلك ، لم يبق أحد حتى لبس سلاحه ، واجتمع على باب مروان أكثر من ثلاثة ألفاً خاف مروان وأغلق بابه ، وكاد المصريون يفتكون به لو لم يجره كريب بن أبرهة . وفي رثاء الأكدر قال زياد بن قائد اللخمي :

كما لقيت لخم ما سألهما بأكدر ، لا يبعدن أكدر
هو السيف جرد من غمده فلاقى المنيا وما يشعر
فلهفي عليك غداة الردى وقد ضاق وررك والمصدر
وأنت الأمير بلا منعة وما كان مثلك يستأثر^(١)
وزرى شاعراً آخر لا نعرف اسمه يخاطب الخليفة الوليد بن
عبد الملك لما عزل أخاه عبد الله بن عبد الملك عن مصر وولى عليها
قرة بن شريك سنة ٩٥٠.

عجبنا ما عجبت حين أتانا أن قد أمرت قرة بن شريك
وعزلت الفتى المبارك عنا ثم فيلت فيه رأى أبيك^(٢)
كذلك لم يصلنا شعر الشاعر المسور الخوارavi وقد كان في أواخر
 أيام الأمويين ووصلنا من شعره بيتان من قصيدة يخاطب ابن عم له
 يحذر من الخليفة مروان بن محمد الذي قتل بعض أشراف مصر
 لأنهم خلعواه وأرادوا غيره .
 فياك لاتجني من الشر غلظة فتدى كفهص أورجان الأشيم^(٣)

(١) السكندي ص ٤٦ (٢) السكندي ص ٩٣

(٣) هكذا في السكندي ص ٩١ ولكن يعز هذا البيت مكسور ولم الصحيح
 «أو رجاء بن أشيم» وحقه المذكور هو حفص بن الوليد الذي ولد على مصر
 مراراً وكان رجاء عامله على الصعيد قتلهما حوثرة الباهلي سنة ١٢٨

فلا خير في الدنيا ولا العيش بعدهم فكيف وقد أضحو أبغض المقطوم
وقال الشاعر مرسى بن حمير يكى حفصاً وأصحابه :

ياعين لاتبقى من العبرات جودى على الأحياء والأموات
ياحفص يا كف العشيرة كلها إما قلت فأنت كنت عميدهم
ياخا النوال وساتر العورات أودى رجاء لا كمثل رجائنا
والكهف للأيتام والجارات وشبابنا عمرو ، وفهد ذو الندى
رجل ، وعقبة فارج السكريات قتلاوا ولم أسمع ب مثل مصابهم
وابن السليط وعامر الغارات ظلت دمائهم فلم يعرج لهم بحنأة^(١)
سروات أقوام بنو سروات ولما قدم مروان بن محمد مصر في شوال سنة الثنتين وثلاثين
رمائة من المهرة وجداً كثراً أهل مصر قد سودوا ، فعزم على تدعية
الليل فأمر بالدار المذهبة أن تحرق ، وكانت تسمى بالدار البيضاء ،
وهي التي بناها مروان بن الحكم حين دخل مصر سنة خمس وستين
هجرية ، فبكى شراء مصر هذه الدار فمن ذلك ما قاله عيسى بن شافع

ياطللا أقوى وحل البلى منه لدى العلو وفي السفل
قد كنت مغنى لعيون المها وكنت مأوى لظبي الرمل
وكان أربابك ما إن لهم في الناس من نوع ولا شكل^(٢)

وكان بعض الولاة ولع باللهو والجنون وشرب الخمر ، كالوالى
قرة بن شريك الذى هدم الجامع العتيق بالفسطاط وأعاد بناءه ،
فكان الصناع إذا انصرفو من البناء دعا قرة بالخمور والز Morris والبطول

فيشرب الخمر في المسجد طول الليل ، وهو يقول لنا « الليل و لهم
النهار » ^(١) وعن هذا الوالي قال السيوطي « كان قرة ظلوماً عسواً فـ
قبل كان يدعوه بالخمر والملاهى في جامع عمر » ^(٢) ولقد أغضب هذا
الوالى جماعة العرب بمصر ، فقال أحدهم فيه الشعر الذى ذكرناه ^(٣)
وبحديثنا صاحب الأغاني أن الأبجور المغنى كان متصلاً بال الخليفة الوليد
بن يزيد ، فلما قتل الوليد خرج الأبجور إلى مصر وما زال بها حتى
مات ^(٤) ، ولكننا لانعلم أنه كان في خدمة أحد من ولاة مصر وربما
اضطرب فيه إلى أن يطرأ المصريين ويشجعهم .

وقد فقد كل الشعر الغزلى وكل ما أنشد في وصف حيات اللهو
والمجون في مصر كما فقد غيره من الشعر في هذا العصر .

(١) النجوم الراحلة ج ١ من ٢١٨

(٢) حسن المعاشرة ج ٢ من ٧

(٣) من ١٢٣

(٤) الأغاني ج ٣ من ١١٣

الفصل الثاني

من قيام العباسيين إلى دخول ابن طولون

في دراسة العصر الأموي رأينا أننا لأنكاد نجد في مصر شعراً
اللهم إلا هذه الآيات القليلة المتدايرة في كتب الأدب والتاريخ ،
وشعر الشعرااء الواقفين الذين كانوا يقيمون في مصر أيامًا معدودات
على أن يعودوا إلى بلادهم مزودين بعطايا وهبات أمراء مصر أما
في العصر العباسي فالامر مختلف باختلاف تطور الحياة في مصر
وتطور الثقافة التي كانت بها ، ولذلك قبل أن أتحدث عن حياة
الشعر بمصر يجب أن نلم إللاما يسيراً بعدة أمور أرى أن لها أثراً
بعيداً في توجيه الحياة الأدبية في مصر في العصر العباسي بل في انتعاش
هذه الحياة الأدبية .

نلاحظ أولاً أن العرب الذين وفدو على مصر في العصر
السابق قد استقرروا بها وعاشوا فيها مع المصريين واختلطوا مع
المصريين اختلاطاً أدى إلى نوع من المزج بين المصريين والعرب
الواقفين فنجد في مصر في العصر العباسي عنصراً جديداً من السكان
هم نتيجة اختلاط العرب بالمصريين أولاً وزواج العرب من نساء
مصريات ثانياً ودخول كثير من المصريين في الدين الإسلامي رغبة
أو رهبة ثالثاً حتى هؤلاء الذين احتفظوا بدينهم من المصريين تأثروا
بالعرب كتأثير العرب بهم وكان نتيجة ذلك كله أن انتشرت اللغة
العربية في مصر انتشاراً عظياً حتى إذا كان القرن الرابع لم يجد
الطريق سويرس بن المقفع من يعرف اللغة القبطية أو اليونانية

واضطر إلى أن يكتب كتابه « سير الآباء البطاركة » باللغة العربية،
نتيجة ثانية هي أنها نجده في العصر العباسي كثيراً من العلماء
الإسلاميين من أصل قبطي أمثال ابن القطاس سعيد بن زياد وكان من
أهل الديانة والفضل وكانت له حلقة في المسجد يلقى فيها دروس
فقهه ، وسعيد بن تليد كاتب القضاة في عهد هشيم بن عيسى ، ويحيى بن
الكبير الفقيه المؤرخ وأحد تلاميذ الليث بن سعد ومن أساتذة
عبد الرحمن بن عبد الحكم هؤلاء وغيرهم كانوا من أصل غير عربي
سكن حسن بلا وهم للغة العربية والإسلام .

وبنتيجة ثالثة لهذا المزاج أن الآثار الأدبية التي تركها الشعراء
لأدباء ظهر فيها روح الشعب المصري مثل روح الدعاية والفكاهة
ويدل على أن ثقافة البينة المصرية كان قوية شديدة على الأدباء
شعراء في هذا العصر

(٢) نلاحظ ثانياً أنها لا تكاد نجد في هذا العصر العباسي هجرة
مع أو بطون عريضة إلى مصر كالمigrations التي كانت في العصور
السابقة ، والهجرة الوحيدة التي كانت في العصر العباسي هي تلك التي
كان سنة ٥٢٠٠ هـ وهي هجرة طائفية كبيرة من الأندلسين إلى
تسامكيندرية وضواحيها ، وسبب هذه الهجرة هو أن أهالي قرطبة
رغباً على الحكم بن هشام فأمر الخليفة ، بتخريب قرطبة ثم نادى
الناس بالأمان على أن يهاجروا من المدينة فرحل منهم خمسة
ألفاً إلى إفريقيا اقام منهم ثمانية آلاف في المغرب وذهب
بعضهم إلى مصر ، وقال دوزي إن الذين رحلوا إلى مصر كانوا خمسة

عشر الفا خلا النساء والأطفال فلما وصلوا إلى الإسكندرية اعترضهم
أهلها ومنعوهم من دخول المدينة فسكتوا في سفنهم حتى أتيحت لهم
الفرصة فغلبوا الوالي ودخلوا المدينة وظلوا بها حتى قدم عبد الله بن
طاهر حوالي سنة ٢١١ فلما رأى شرهم حاربهم ثم اتفق معهم على
الجلاء عن الإسكندرية فرحلوا عنها إلى جزيرة كريت وظلوا يحكمونها
حتى سنة ٥٣١٥ (٩٦١ م) إذ انتزعها منهم الامبراطور أرمانوس

هذه هي الهجرة الوحيدة التي ذكرها لنا المؤرخون وقد كان
لمؤلف الأنجلسيين تأثير كبير في الثورات التي حدثت في هذه السنوات
القليلة التي مكثوها بالإسكندرية ولا سيما في ثورة الجروي التي
ستحدث عنها بعد ذلك ، وفي هذه الثورات أنشد شعراء مصر أشعاراً
كثيرة ذكروا فيها وقائعهم وحوادثهم .

(٣) ومن ناحية ثالثة : كانت مصر طوال العصر العباسى مر جلا
يعلى بالفن والثورات وكان الحكم فى مصر مضطرباً اضطراباً شديداً
فالولاة كانوا يعزلون بعد عام أو بعد بضع عام وجرى خلفاً
العباسيين على سنة تغيير الولاية فى مصر فلم يتمكن الولاية من إصلاح
البلاد الداخلية ، وانتهز بعض الولاة فرصة ولایته فارتدى فى أحکامه
وشدد الحكم على المصريين ، فثار المصريون جميعاً سواء كانوا
من العرب أو من الأقباط ، وكان لهذه الثورات أثر قوى فى إيقاف
روح الشعر فى مصر بجزى الشعر على السن الشعراً متعددين
كان فى البلاد من حوادث حتى أن أكثر ما حفظ لنا من شعر هذا
العصر إنما كان يتحدث عن هذه الثورات .

(٤) نلاحظ بعد ذلك تطوراً عظيماً فى الدراسات التى كانت

بمصر في العصر العباسي . فقد عرفا أن أكثر الدراسات التي كانت في العصر الاموي كانت دراسات دينية من قراءات و تفسير و رواية الحديث أو دراسات تتصل بالدين كالتاريخ الذي كان يقصد منه

أولاً تفسير الآيات التاريخية في القرآن . ولم نعرف طوال العصر الاموي اهتمام المصريين بالعلوم العربية الخالصة كرواية الشعر وعلوم اللغة والنحو الى غير ذلك ولكن في العصر العباسي نجد أكثر العلماء يتمتعون بالعلوم العربية الخالصة اهتماماً كبيراً بجانب اهتمامهم بالعلوم الدينية فاللبيث بن سعد فقيه مصر كان يحسن القرآن والنحو ويحفظ الحديث والشعر . وابن الوزير التجيبي كان محدثاً فقيها وكان عالماً بالشعر والأدب . وعبدالحميد بن الوليد المصري المتوفى سنة ٥٢٢ هـ كان عالماً بالأخبار والنحو ، والشاعر المصري الحسين بن عبد السلام المعروف بالجمل الأكبر عرف عنه شدة اتصاله بالإمام الشافعى وكان أخذ روايته ، والشاعر سعيد بن عفیر كان مؤرخاً ومحدثاً وشاعراً وأديباً وأماماً في اللغة والنحو حتى قيل إن مصر لم تخرج أجمع من العلوم منه وكان الوالي عبدالله بن طاهر يقول عنه «رأيت بمصر من يخانب الدنيا ثلاثة أشياء النيل والهرمين وابن عفیر ». ولما وفدى على مصر عبد الملك بن هشام صاحب السيرة وكان إماماً في اللغة والنحو جتمع بالإمام الشافعى وتناوله كثيراً من أشعار العرب وروى عنهم ما يليه المصريون الشعر ، ووفد أبو نواس على مصر فلما عاد المصريون وجوده هرعوا إليه واجتمعوا حوله فأملأ لهم أشعاره . من هذه الأمثلة نستطيع أن ندرك هذا التطور الذي حدث في الثقافة في مصر

وكيف اهتم المصريون في هذا العصر بالدراسات الأدبية اهتماماً كبيراً
كان له أثر واضح في رق الحياة الأدبية في مصر .

وكا وفد الشعراء على أمراء مصر في العصر الأموي كذلك نجد
كثيراً من الشعراء العباسيين المعروفيين يقدون على مصر فأبو نواس
وفد على الخصيف ، ودبل الخزاعي وابراهيم بن العباس بن الأحنف
وفدا على المطلب الخزاعي ، والبطين الحمامي دخل مصر مع عبد الله بن
طاهر ، وقال ابن منظور إن ديث الجن جاء مصر ووجد لأبي نواس
أشعاراً تروى في مصر لا يعرفها أهل العراق ، ووفد ابن المولى
وريعة الرقي على يزيد بن حاتم ، وجاه أبو تمام إلى مصر وهو
صغير وتلقى كثيراً من الدراسات الأدبية فيها وفي مصر أنشد الشعر
بل ذهب بعض المؤرخين إلى أن أبو تمام أنشد أول شعره بمصر
حتى ذهب الكندى وابن زولاقة والسيوطى إلى أن أبو تمام مصرى
وقالوا إنه شاعر مصر الأكبر .

من هذه العجالة نستطيع أن ندرك أن الحياة الأدبية في
مصر في العصر العباسي كانت مزدهرة وأن الدراسات الأدبية
كانت منتشرة ومع ذلك كله لانجد بين شعراء مصر شاعراً
بلغ إلى درجة خول الشعراء الذين عرفتهم الأقطار الإسلامية
الأخرى وتعامل ذلك عندي أن الرواة ومؤرخى الآداب لم يتمتعوا
بمصر فلم يحفظوا شعر المصريين وهذا السبب لم تصلنا قصائد كاملاً من
شعراء مصر في هذا العصر العباسي وأخشى أن أقول إن المصريين
تنقصهم العصبية ، فقد رأيناهم لا يتمون بامام مصر الليث بن

سعد وفضلوا مذهب مالك والشافعى وهم من الغرباء ، فالغريب عند المصريين أكرم لديهم من أخوانهم ، ومن ناحية أخرى من الطبيعى أن يتأخر الإنتاج الأدبي في مصر عن نظيره في العراق والشام ، فمنذ الجاهلية كانت العراق والشام تعداد من بلاد العرب وما الفاسنة والمناذرة إلا من العرب ومنذ الجاهلية كانت القبائل العربية تسكن بلاد الشام والعراق ، أما مصر فلم تكن علاقتها بالعرب بهذه القوة ، ولم تقدر عليها قبائل عربية كثيرة إلا بعد الفتح ، فضعف الإنتاج الأدبي بمصر ينهاقون إنتاج الدين والتاريخ لأن النبوغ في الثقافة الدينية أسهل من النبوغ في الأدب ، ولأن الدين أسلموا من المصريين ليس من السهل عليهم أن ينبعوا في الأدب بينما من السهل أن ينبعوا في العلم ، وأكثر من هذا أن التحمس الديني في هذا العصر كان أقوى من التحمس للأدب ، لذلك كله لانجد شاعراً مصرياً بلغ مرتبة الفحول .

ومهما يكن من شيء فإن الشعر الذي وصلنا في هذا العصر بعطينا صورة لما كانت عليه الحالة في مصر السياسية والاجتماعية والأدبية ، ثم تدلنا على أن الشعر المصري ابتدأ ينمو ويقوى ويتأثر بالبيئة المصرية الخالصة ، ويعبر عما كان بمصر من اتجاهات وظروف مختلفة وألوان الثقافات المتعددة ، وضرر وبالحركات السياسية وغير السياسية ، وليس أدلى على ذلك من هذه الأشعار التي قيلت في الاضطرابات العديدة التي كانت في مصر في ذلك العصر .

أثر الفتن في الشعر-

نستطيع أن نقسم الفتن التي كانت بمصر في هذا العصر إلى :

١ - ثورات سياسية - إن صح هذا التعبير - كان يقوم بها

قبائل العرب ضد الولاية والأمراء لجور أحكامهم ، وسوء سياستهم من ذلك ما كان في ولاية موسى بن معصب الحشمي الذي ولد في أواخر سنة سبع وستين ومائة من الهجرة ، فقد تشدد الوالي في جمع الخراج ، وزاد على كل فدان ضعف ما كان أولاً ، وجعل خراجاً على أهل الأسواق وعلى الدواب ، وعاد إلى الرشوة في الأحكام ، فأظهر الجندي رايه ، ولم يستطع عماله أن يدخلوا الحوف وتحاليف القيسية واليمنية على قتاله ، واتفق أهل الحوف أياً ضامعاً جند الفسطاط على الثورة ضد هذا الوالي ، نفرج موسى مع جنده لقتال الثنائي فانهزم جند الفسطاط عنه وقتل الوالي سنة ثمان وستين ومائة من الهجرة بعد عشرة أشهر من ولايته ، هذا الحادث كان له أثر في الشعر ، إذ أنشد الشعراء في ذلك مترئسين باتصار أهل الحوف من ذلك ما قاله سعيد بن عفرين :

ألم ترهم ألوت بموسى سيوفهم
فما بربحت به تعود وتبتدى
فأصبح من مصر وما كان قد حوى
ولكن أهل الحوف لله فيهم ذخائر إن لا ينفد الدهر تعرف^(١)
وفي ولادة الحسين بن جحيل امتنع أهل الحوف من أداء الخراج
سنة إحدى وتسعين ومائة من الهجرة ، وخرج أبو الندى مولى
بلي ، في نحو ألف رجل يقطع الطريق وأغار على بعض قرى الشام
وساعدته في ذلك رجل من جذام يقال له المنذر بن عابس وآخر
يدعى سلام النوى ، فكثراً فسادهم ، وأوقعوا الرعب في نفوس

المصريين جميعاً ، فبعث هارون الرشيد بقائده يحيى بن معاذ لقمع هذه الحركة ولإخضاع أهل الحوف ، فتم ليحيى ذلك وقدم الفسطاط ومعه أبو الندى وابن عابس فدح الشعراة القائد يحيى فن ذلك مقاله أبو عثمان السكري :

باقيس عيلان إني ناصح لكم
أدو الخراج و خافو القتل والحر با
إن أحذركم يحيى و صولته فما رأيت له تقىأ إذا غضبا
وقال أيضاً :

فقتلنا أبا الندى و ابن عابس
لا يطيقون رفع كف تلامس
حوف مصر إلى دمشق فالبس
وأياد الخلاع من كل أرض (١)
بعد ما حاد عنهم كل فارس (٢)

وقد يطول بنا الحديث عن هذه الثورات الكثيرة التي كان يقوم بها عرب مصر ضد الولاية والحكام ، ولكن أرى أن ألم بشورة الجروى الذى شغلت ولاية مصر والخلافة العباسية مدة طويلة (٣) ، فقد كان عبد العزىز بن الوزير الجروى صاحب الشرطة بمصر في ولاية المطلب الخزاعى سنة ثمان و تسعين و مائة من الهجرة وعزل عد قليل ، وبعث على رأس الجيش لمحاربة أهل الحوف ، ثم أعيد إلى الشرطة سنة تسع و تسعين و مائة في ولاية العباس بن موسى ، ولكن الجندي ثاروا ، وأجمعوا على تولي المطلب الخزاعى مرة أخرى

(١) الكندي من ١٤٥

(٢) نجد تورة الجروى في الكندي من ١٥٥ يوماً بعدها .

فاضطر الجروى إلى الهروب إلى ت尼斯 ، فلما تم الأمر للمطلب وأطاعه وجوه أهل الحوف ، أرسل إلى الجروى بعقه على ت尼斯 وأمره بالحضور إلى الفسطاط ، فامتنع الجروى فبعث المطلب بواال آخر على ت尼斯 ، فلم يستطع دخولها ، وسار الجروى لمحاربة السرى ابن الحكم الذى أرسله الوالى لحرب الجروى ، فأسر السرى وسجن وتوالت جيوش الوالى لحرب الجروى فكانت تهزم الواحدة تلو الأخرى ، وجد الوالى في أمر الجروى فاخراج الجروى السرى بن الحكم من السجن بعد أن تعااهدا على أن يخلعا الوالى ويختلفه السرى وبعد حروب طويلة ، أرسل الوالى في طلب الأمان من السرى على أن يسلم إليه الأمر ويخرج عن مصر ، وقد تم ذلك وخرج المطلب الخزاعى إلى مكة وفي هذا أشار دعبد الخزاعى بقوله :

فكيف رأيت سيف الجريش ووقة مولى بنى ضبة (١)
أحجتك أسيافهم كارها وما لك في الحج من رغبة
وتم أمر مصر إلى السرى في رمضان سنة مائتين من الهجرة
فطلب الوالى إلى الجروى أن يذهب لتأديب لخم بالإسكندرية ، وكان
الجروى يفتح حصنها نفسي السرى أن يملأها الجروى ، فأوعز إلى
أحد رجاله أن يخالف الجروى ، فاضطر الجروى إلى أن يرجع إلى
ت尼斯 سنة إحدى ومائتين وفسد ما بينه وبين السرى وفي ذلك قال
سعيد بن غفير :

ألا من مبلغ الجروى عن مغللة يعاتب أو يلوم

(١) مولى بنى ضبة هو السرى بن الحكم

أفت تنازل الأبطال حتى تميز ذو الحفيظة والسؤوم
وصلت بهم فاوهنت قواهم وطير الموت دائرة تحوم
عليهم باد جعهم المقيم ولو هجمت جموعك حين حلوا
وكيف رأيت دائرة التوانى أتاك بصحو نحس لا يقيم
أتاك وقد أمنت ونمكيداً اصل لайнام ولا ينبع

ثم ولى سليمان بن غالب مصر في ربيع الأول سنة إحدى ومائتين
فاربه السرى بن الحكم، ولكن هزم السرى وأسر هو وابنه ميمون
وسجنا في إاخيم واستقام الأمر لسليمان فقال المعلى الطافى في ذلك :
إذا شن في أرض سليمان غارة أثار بها نفعاً كثيراً المصائب
لم تر مصر كيف داوى سقيها على حين دانت للعدو المناصب
حمساها ولو لا ماتقلد أصبحت حيساً على حكم القنا والمقابر

ولكن أعيد السرى مرة أخرى للولاية، وهرب سليمان إلى
الجروى، وانتقم السرى من كل أعدائه فأخذ يقتلهم ويصلبهم، حتى
فامت فتنة إبراهيم بن المهدى ببغداد، واتصل إبراهيم بالجند فى مصر
وأمرهم بخلع المأمون، والوثوب بالجرى، فلبي دعوته جمع من
المصريين منهم الحارث بن زرعة بالفسطاط والجروى بالوجه البحرى
وسلامة الطحاوى بالصعيد وعبد العزى بن عبد الرحمن الأزدى ،
خاربوا السرى ، وملك الجروى الاسكندرية ، وأخرج الطحاوى
عمال السرى من الصعيد ، وسار الجروى حتى التقى بجيش السرى
بشطونوف فهزمه السرى سنة ثلاثة ومائتين وقتل ابنه ميمون بن السرى
فرثاه معلى الطافى بقوله :

لورد غرب منية بشجاعة
لو كان تجريد السيف يردها
مازلت أطمع في رجوعك سالما
فليجعلن غدا بقتلك طاهر^(١)
وقال أبو نجاد الحارثي في ذكر هذه المروءة :

جمع رعاياك يا سرى فإنها
قتلوا أبا حسن وجرروا شلوه
ولات تحيب وأسلمه جيادها
فاستخرجوه مليأ فأقى به
أبشر فإن أقول بحملك بعده
لاتبك فالعقبى لاخوته غدا
وأشرف الجروى على الفسطاط وأراد أن يحرقها فخرج إليه
الفقهاء وسألوه الكف عن ذلك فانصرف عنها ، ثم علم أن أهل
الإسكندرية أخرجوا عامله ، ودعوا للسرى ، فسار إليهم في رمضان
سنة وثلاث ومائتين ، وثار القبط بسخا فهزهم الجروى فدحه المعلى
الطاوى يخاطب الخليفة المأمون .

فقيل لأمير المؤمنين نصيحة
وما حاضر شيئاً كآخر غائب
لقد حاطنا عبد العزىز بسيفه
وسار الجروى إلى الإسكندرية فقتل في سنة خمس ومائتين واستطاع
السرى أن يهزم سلامه الطحاوى الثائر بالصعيد ، وفي ذلك قال المعلى

(١) هو طاهر بن الحسين قائد المأمون

أراد الطحاوى الذى لا شوى لها
فأوقد ناراً كان بالنار صالح
ودب لاقطار البلاد بفتنة
خاشت بقسم لا يحيب المداواها
وراسله من كان يحني بفافة
وأصبح ذاميل إليه مما
جنت ما استحق القتل ياصاح كفه
 وكل امرىء يجزى بما كان جانبا
وتوفي السرى بالفسطاط بعد قتل الجروى بثلاثة أشهر وولى بعده
ابنه أبو النصر بن السرى ، وكان على بن عبد العزىز الجروى قد خلف
آباء ، فأرسل ابن السرى جيشاً لمحاربة ابن الجروى ولكن هزم
هذا الجيش ، واكتفى ابن الجروى بذلك فلم يتبع الجيش المهزوم ،
وحقق بعض المصريين عليه لذلك وظهر هذا في قول سعيد بن عفیر
يخاطب ابن الجروى .

الآن مبلغ عنى عليا
رسالة من يلوك على الركوك
علام حبس جمعك مستكفا
 بشطينوف في ضنك ضنك
 وقد ستحت لك الغفران من
 رماك بجيشه الوهن الراكك
 أمن بقيا فلا بقيا من لا
 يراها عند فرصته عليك

وفي سنة سبع وما تين أرسل المأمون خالد بن يزيد بن مزيد
الشيداني واليا على مصر فامتنع ابن السرى من تسليمها وحاربه ، فانضم
ابن الجروى إلى جيش خالد ، واستمر القتال مدة طويلة ، فل
الجيشان الحرب ، وحدث أن ارتفع النيل في هذا الوقت فسار خالد
إلى الحوف ، فلما رأى ابن الجروى ذلك أراد أن يخرج خالد بن
يزيد عن ملكه ، ففكر به حتى أنزله « نهيا » وهناك تركه ابن الجروى
في جهد وصفه المعلى بقوله :

سلا خالدا لما انجلي عنه شكه وأسلمه في عدوة البحر خاذله
 فزالت أمانيه غادة سما لنا بعارض جيش يمطر الموت وابله
 فلما انكشف النيل سار ابن السرى إلى خالد وحاربه فأسر
 خالد وفي ذلك قال المعلى :

ألا لأرى خيلاً أضر له الوعن
 وقواده أشرار كل قبيلة
 فما أسرروا منه جباناً معضداً
 وإن يقتلوه يقتلوه منه سيداً
 وألا لأرى خيلاً أضر له الوعن
 وقواده أشرار كل قبيلة
 فما أسرروا منه جباناً معضداً
 وإن يقتلوه يقتلوه منه سيداً
 ولما رأى المؤمنون هذه الثورات والفتنة قسم مصر بين ابن السرى
 وابن الجروى فولى كل واحد منهما ما في يديه ، فأقبل ابن الجروى
 على جمع الخراج فقاومه قوم من أهل الحوف وكتبوا إلى ابن السرى
 يستعدونه على ابن الجروى ، فتقابل الجيشان في « بلقين » واستمر
 القتال طويلاً حتى اضطر ابن الجروى إلى أن يفر إلى دهياط وفي
 ذلك قال المعلى :

ألا هل أني أهل العراقين وقعة
 وما كان منا قتلهم عن جهة
 ولما تبينت المنية في القنا
 فوليت على ربع المحلة هارباً
 فكيف رأيت الله أنزل نصره
 بهدى إلى المؤمنون منا نصائحأ
 نضمها على الصحائف والبردا

يتعل على والذى كان مجـعاً عليه ياظهار الخلاف الذى أبدا
وسار ابن السرى إلى تنيس ودمياط وأضطر ابن الجروى إلى
أن يهرب إلى الفرما والعرىش خطابه سعيد بن عفیر بقوله .
ألا ياعلى بن عبد العزيز إلى أين صرت تزيد الفرارا
فلست بأول من كاده عدو فكر عليه اعتكارا
وأجر مصيرك أن يسبحوا إليك فتوحا عظاما كبارا
فتدرك ثارك من أهله وتلبس بعده الكبو الفسارا^(١)
فلا يسع ذلك ابن الجروى أغمار على الفرما سنة تسع ومائتين
وهرب أصحاب ابن السرى من تنيس ودمياط . وسار ابن الجروى
حتى قابل جيش ابن السرى بشطوف فهزم ابن الجروى ولحق
بالعرىش فدح المعلى الطافى ابن السرى بقوله :

ألم تر خيله صبحت عليا تدفع على مناسجها النساء
فولى عن عساكره وخلي على الأسل المداهن والرباعا
والسكن فات فوق أقب نهد كرجع الطرف لا يخشى اصطلاحا
فسبك أن قومك من جدام وسعد لاترى لهم اجتناعا
دعهم طاعة لك فاستجاها ومن عجب لمثلك أن يطاعا
وعاد ابن الجروى مرة أخرى سنة عشر ومائتين فلكل تنيس
ودمياط وهزم جيش ابن السرى ، ولم تهدأ هذه الفتنة حتى دخل
عبد الله بن طاهر مصر سنة إحدى عشرة ومائتين وأخذها من ابن
السرى ، كما خضع له ابن الجروى .

* * *

(١) الفسـار مـغربـ كـلمـة فـارـسـية (أـفسـر) بـعـنـي النـاجـ

وَقَامَتْ فِي مِصْرَ فَتَنَ أُخْرَى مِنْ أَجْلِ السُّلْطَانِ بَيْنَ الْأُمَوِّينَ
وَالْعَبَاسِيِّينَ، وَيَحْدُثُنَا يَاقُوتُ أَنَّهُ فِي أَيَّامِ الْمُهَدِّى خَرَجَ دِحْيَةُ الْأُمَوِّى
بِمِصْرَ وَدَعَا لِنَفْسِهِ وَاسْتَمْرَ فِي دُعَوَتِهِ إِلَى أَيَّامِ الْهَادِى وَكَانَتِ الدُّولَةُ
تَرْسَلُ إِلَيْهِ الْجَيْشَ فَلَمْ تَسْتَطِعْ قَبْرَهُ وَكَانَتْ نَعْمَ أُمْ وَلَدُ دِحْيَةَ تَقَاتِلُ
فِي طَلِيعَةِ الْجَيْشِ لَا سِيمَا فِي وَاقِعَةِ بَوْيِطٍ وَفِي هَذَا قَالَ شَاعِرُهُ :

فَلَاتَرْجِعِي يَا نَعْمَ عَنْ جَيْشِ ظَالِمٍ يَقُودُ جَيْشَ الظَّالِمِينَ وَيَحْنَبُ
وَكَرِي بِنَاطِرَدًا عَلَى كُلِّ سَانِحٍ إِلَيْنَا مَنِيَا الْكَافِرِينَ تَقْرَبُ
كَيْوَمْ لَنَا لَازْلَتْ أَذْكُرُ يَوْمَنَا بِفَاءِ وَيَوْمَ فِي بَوْيِطِ عَصْبَصِبٍ
وَيَوْمَ بِأَعْلَى الدِّيرِ كَانَتْ نَحْوَسَهُ عَلَى فَتَةِ الْفَضْلِ بْنِ صَالِحٍ تَنْعَبُ^(١)

فِيهِ أَشْعَارٌ قِيلَتْ فِي حِروْبٍ بَيْنَ جَيْشِ الثَّائِرِينَ وَجَيْشِ الْخَلِيفَةِ
وَلَوْلَمْ تَحْفَظْ هَذِهِ الْأَشْعَارُ مَا كَنَا نَعْلَمُ شَيْئًا عَنْ هَذِهِ الْوَقَائِعَ فَإِنْ كَتَبَ
التَّارِيخُ التَّى وَصَلَّتْنَا لَمْ تَذَكَّرْ تَفاصِيلُ هَذِهِ الْحِروْبِ بِلَأَغْفَلْتَهَا وَلَكِنَ الشَّعْرَاءُ
يَخْرُجُونَ دَائِمًا بِمَا يَحْرِزُهُ أَهْلُهُمْ مِنْ نَصْرٍ فَيَسْجُلُونَ الْوَقَائِعَ فِي شَعَارِهِمْ.
وَنَلَاحِظُ أَنَّ الشَّاعِرَ اسْتَعْمَلَ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ كَلِمَةً أَيَّامَ التِّي
كَانَ يَسْتَعْمِلُهَا الْعَرَبُ مِنْذِ الْجَاهِلِيَّةِ.

مِنْ ذَلِكَ كَاهِ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَقُولَ إِنَّ الْحَوَادِثَ السِّيَاسِيَّةَ الْمِصْرِيَّةَ،
وَالْحِروْبِ الدَّاخِلِيَّةِ التِّي كَانَتْ فِي هَذَا الْعَصْرِ، قَدْ أَثْرَتْ فِي الْأَدْبَرِ أَثْرًا
كَبِيرًا ، فَقَدْ اضْطَرَّ الشَّعْرَاءُ إِلَى أَنْ يَسْجُلُوا هَذِهِ الْحِروْبَ، وَأَنْ يَدَافِعُوا
عَنِ الْمُتَحَارِبِينَ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرُهُمْ شَعْرَ فَقْدٍ وَلَوْقَدْ هَذِهِ الشَّعْرُ الْبَقَاءُ
لِكَانَ أَصْدَقُ مِرْآةً لَهَذِهِ الْحَوَادِثِ الْكَثِيرَةِ الْمُضْطَرِبَةِ، وَلَكِنَّ الَّذِي
وَصَلَّنَا مِنْهُ قَدْرِ يَسِيرٍ ، يَعْطِينَا صُورَةً مُصْغَرَةً مُشَوَّهَةً لَهَذِهِ الْحَوَادِثِ

ب — فتنة العصبية العربية :

ولعل أصدق صورة لعصبية القبائل في مصر هي هذه الحادثة التي ظهرت فيها العادات الجاهلية القديمة بأجل مظاهرها . تلك هي حادثة « فرس مراد » المعروفة « بقضية جناح والزعفران » ، ذلك أن عشيرة « مراد » كان لهم فرس يفخرون بها ويسمونها الزعفران ، فأخرجت الفرس يوم الراهن ، كاً أخرىت عشيرة « يحصب » ، فرساً لهم تسمى الجناج ، وجعل كل فريق لصاحبه الفرس المسبوق ، وجعلوا للسباق غایته ، نخرج الطائفتان ومعهم عامة أهل مصر ، فكان السابق فرس مراد في أول الأمر حتى كادت تدخل الغاية ، نخرج كمین من يحصب وضرب وجه الزعفران فتحيرت الفرس ، فسبقتها الجناج إلى دخول الغاية . ساء مراداً ذلك واستلوا سيفهم واقتتل الطائفتان قتالاً عنيفاً حتى اضطر الأمير ليث بن فضل إلى أن يخرج إليهم ويحجز بينهم وأحال أمرهم إلى القاضي عبد الرحمن العمرى الذى ولى سنة ١٨٥٥هـ وقد عرف هذا القاضى بحبه للbial وأخذه الرشوة ؛ فأتت يحصب بأموال عظيمة إلى القاضى ، فحكم لهم بالفرس ودفع إليهم الزعفران ولكن استمر النزاع حتى ولى القضاة القاضى البكرى الذى ولى سنة ١٩٤٥هـ فرد الفرس إلى مراد . هذا الحادث يذكرنا بصورة لها في أيام الجاهليين هي قصة داحس والغبراء ، وكما كثر شعر الجاهليين في قصتهم أنشد المصريون شعرًا في قصتهم ولاسيما أن القاضى العمرى كان مكر وها من المصريين ، ونقم عليه الشعراً فأخذوا هذا الحادث وسيلة إلى هجائه ، فمن ذلك قول يحيى الخولاني^(١) .

(١) السكنى من ٤٠٢ وما بعدها .

إن كان مهر أخي زوف أفات به ريب الزمان عليه جور زنديق
 فكم يد لبني زوف وإخوتهم في آل فهر تعص الشیخ بالریق
 إن حاکم عمری جار في فرس فسوف يرجعه عدل ابن صدیق
 ومن الطبيعي أن نجد شعراء آخرين دافعوا عن القاضی العمری
 في هذه القضية ، فمن ذلك قول عبد الله بن بحیرة من ولد معاویة بن
 حذیج يرد على الشاعر يحيى الحولانی :

طلبت فانلت حسن الطلب
 وعوات هوتا على رميم
 فإن كان في فرس عتكم
 وإلا فهو كريم النجار
 فأجابه يحيى :

ألا أهياً الشاعر المتندب
يحمى عن العمرى العطب
ورامى مراد وخلوانها
بنبل الجهل غير الصيب
لعمرك ما أنقص العمرى.
ملا الأرض جوراً بأحكامه
وأغثر فيها جميع الريب

• • •

ومن العصبية القبلية أيضاً نفر الحضارمة إذا ولـ أحدهم في سنة
تسع وتسعين ومائة ولـ القضاء هليعة بن عيسى الحضرمي فقال شاعرهم
لقد ولـ القضاء بكل أرض من الغر الحضارمة الكرام
رجال ليس مثلهم رجال من الصيد الجحاجحة الضخام^(١)

وقال يزيد بن مقسم الصدفي

حضرموت هنئاما خصصت به من الحكمة بين العجم والعرب
الجاهلية والإسلام يعرفه أهل الرواية والتفتیش والطلب

ح — فتن بين العرب والمصريين :

ولون آخر من ألوان العصبية العربية هو سمو العرب بأنفسهم وتعاليهم على غيرهم من الشعوب ، حتى على من أسلم من هذه الشعوب ، فقد كون العرب في مصر طبقة ارستقراطية — إن صح هذا التعبير — لم تقبل أن سمو إليها المصريون ، ولذا كانت العلاقات بين العرب والمصريين سيئة في العصر العباسي وقام القبط بثورات عنيفة ابتغاء طلب المساواة بالعرب ولكن هؤلاء استطاعوا أن يخمدوا الثورات المتواتلة ، ونلمح من الأشعار التي وصلتنا عن هذه الاضطرابات كيف كان العرب يتذمرون على المصريين ، حتى اضطر من أسلم منهم إلى أن يتخذ لنفسه نسبة عربية حتى يتتساوی بالعرب ، ولكن عرب مصر رفضوا أن ينتسب غير عرب إليهم ، ولعل قضية أهل الحرث بين علاقة العرب بالمصريين تلك أن جماعة من القبط أسلموا وعرفوا بأهل الحرث ، تحرش بعرب بهؤلاء القوم وأذوهن بجمع أهل الحرث من بينهم نقوداً دفعوها إلى القاضي العمري ليثبت لهم نسبة عربية ، وخرج بعضهم إلى الرشيد ببغداد يدعون له نسبة ، كما أتوا بجمع من أعراب لحوف الشرقي وبعض أعراب الشام وروشم بالمال فشهدوا أمام القاضي أن أهل الحرث من العرب وأن نسبة لهم إلىبني حوشة من قضاعة) فقبل القاضي شهادتهم إلا شهادة حوى بن حوى بن

معاذ العذرى ، وسجل لهم نسباً بذلك فثار عرب مصر ، وقام
الشعراء بهجون القاضى وأهل الحرس ، من ذلك قول يحيى الخولانى
في هجاء حوى :

ياليت ألم حوى لم تلد ذكرأ
كسا قضاعة عارأ في شهادته
شهادة رجعت لونها قبلت لاحق الزور منها العير بالفرس
وقول يحيى الخولانى أيضاً :

ومن أبجع الأشياء أن عصابة من القبطينا أصبحوا قد تعرموا
وقالوا أبونا حوتك ، وأبوهم من القبط علجم جبله يتذبذب
وجاموا بأجلاف من الحوف فادعوا
بأنهم منهم سقاها وأجلوا
ألا لعن الرحمن من كان راضياً
بهم رغماً ما دامت الشمس تغرب^(١)

وقال معلى بن المعلى الطافى في هجاء القاضى العمرى :

كم كم تطول في قرائك والجور يضحك من صلاتك
تقضى نهارك بالموى وتبيت بين معنياتك
فأشرب على صرف الزما ن بما ارتشيت من الحوانك
إن كنت قد أخذتهم عرباً فزوجهم بناتك
وليسكشفن بما أتيست صدور قوم عن مسائقك
وكأنى بمنيصة تعى إليك بكف فائز

أفقرته من ماله
بقضية أو لم يتواتك
لا تعجلن أبا الندى
حتى تصير إلى وفاته
إن المقامع تطلقن
من الجحيم إلى مماتك
بل لو ملكت لسانك ثم ماوصلت إلى صفاتك^(١)

ونلاحظ أن الشاعر هنا كنى القاضي بأبا الندى وهى كنية اللص
الذى ظهر سنة أحدى وتسعين ومائة ، وشم تراه قد هم بالقاضى إذ دعاه
أن يزوج أهل الحرس من بناته ، وهو حكم وضعى سار عليه المسلمين
حتى أصبح من الأحكام الفقهية ذلك أن المولى لا يزوج عربية ، وبعد
أن عزل القاضى العمرى أرسل عرب مصر وفداً إلى الخليفة الامين
فذكر والله ما فعل العمرى بأهل الحرس فكتب الأمين إلى القاضى
البكرى يأمره أن لا يمنع أحداً من غير العرب للحاق بالعرب ، وأن
يرد أهل الحرس إلى ما كانوا عليه من أنسابهم ، فأمر البكرى أهل
الحرس باقامة البينة ، وجمع بعض أهل القناعة والعدالة من مصر
فشهدوا أن أهل الحرس من القبط الذين أسلموا ، فردهم القاضى
إلى أصلهم ومزق سجلهم ، ففرح عرب مصر بذلك و قال معلى الطافى :

بابى البظراء موتوا كمداً واسخنوا عيننا بترحيق السجل
لو أراد الله أن يجعلكم من بنى العباس طرا لفعل
لكن الرحمن قد صيركم قبط مصر من القبط سفل
كيف ياقبط تكونوا عرباً ومرىص أصلكم شر الجيل
وقال أبو رجب العلاء بن عاصم الخولاني

ولقد قعت بنى الخائث عندما
راموا العلا وتحوتوكوا وتعربوا
فرددتهم قبطا إلى آبائهم
ونسبت أصلهم الذي قد غيبوا
وتركتهم مثلاً لكل ملصق
نسبة إذا التقت المحاير يضرب
وقال يحيى الخولاني .

اشكروا الله على إحسانه فله الحمد كثيراً والرغم
رجوع القبط إلى أصلهم بعد خزى طوقوه وتعب
جائز قد كان فيما ينتصب ودنانير رشوها قاضياً
أخذ الأموال منهم خدعة وتولى عنهم ثم هرب
أبلغ البكري عن أنه عادل في الحكم فراج الكلب(١)
كانت روح العصبية العربية ظاهرة واضحة أيام الامويين
والعباسيين مما جعل القبط يثورون ، وكان أشد هذه الثورات أيام
المأمون ، إذ اضطر الخليفة نفسه إلى أن يحضر إلى مصر ، وأن يقمع
هذه الفتنة بشدة وحزم فلم يقم بعدها للمصريين قاتمة ، ثم أن العرب
وجدوا أنفسهم في عهد المعتصم محرومين مما كان لهم من مزايا
فخدمت روح العصبية وصار العرب كل المصريين سواء بسواء ،
وبالرغم من أن بعض العلباء عطفوا على من أسلم من المصريين
وعاملوهم كالعرب فولوا بعضهم الأعمال الهامة في الدولة ، ولكن
هذا لم يرض جمهور العرب فسخطوا ، من ذلك ما روى أن بعض من
أسلم من القبط وجد عطفاً من القاضي هيعة بن عيسى ، الذي ولـ

(١) راجع قضية أهل الحرس بكلاب الولاية والفتواة للكندى ص ٣٩٧ - ٢٩٩
ومن ص ٤١٣ - ٤١٥

قضاء مصر مرتين في عهد المأمون ، فقد فسح هذا القاضى مجلسه
للمصريين ، وألان جانبهم لهم وألحق طائفتهم بأعمال الدولة ، فأُسند
كتابة القضاء إلى سعيد بن تليد — وكانت كتابة القضاء في ذلك العهد
من أسمى ما يصبوا إليه الفقهاء — كما اتّخذ شهوداً جعلهم بطانته منهم
معاوية الأسواني وسلیمان بن برد وغيرهما في نحو من ثلاثين رجلاً
يقول العرب في القاضي مع علمهم بعلمه ودينه وسمو منزلته ، وقد ظهر
أقوال المصريين في أشعارهم من ذلك ما قاله الشاعر أبو شيب
أنيس بن دارم .

قبع الله زماناً راس فيه ابن تليد
بعد مفراض وخطب وأبيرات حديد
وأبو الزنابع خناق غراميل العبيد
بعد سيف خشبي وسهام من حدب
وابن تدراق الأفانين البليد بن البليد
وابن بكار كراكير وغطاس الثريد
وأبوالروس المرسي بن دباغ الجلود
واللقيط ابن بكر نطفة القدم الطريد
وابن سهم حارس الجزاية حلوان البريد
عصبة من طينة النيل ميامين الخدود
لبسووا بعد التبابين نفيسيات البرود
لازموا المسجد ضلا لامن الأمر الرشيد
لحوانيت بنوها بفنائل عمود

وتسموا وتكلموا بعد جرح وشنود
والأحوا بجها من نطاح الحمر سود
تحت أميال طوال كبراطيل اليهود
نصبوا كالقاعيد على روس الفرود
وترام للوصايا وعدالات الشهود
في مراء وجداول وقيام وقعود
وخشوع وابتهاج وركوع وسجود
على القسمة أضرى من تماسيح الصعيد
 وأشاروا للهدايا بأبي عبد الحميد^(١)

ومن ذلك أيضاً ماروى في قضية « ابن القطاس » فقد كان سعيد
ابن زياد الملقب بابن القطاس من عرف بين المصريين بالعلم والفضل
وكان أحد الشهود الذين قبل بعض القضاة أمثال هبعة بن عيسى
وابن المنكدر وغيرهما شهادته، كما كان أحد الذين يتولون التدريس
في المسجد، فلما ولى محمد بن أبي الليث قضاة مصر راه ابن القطاس
بالبدعة، ودعا عليه، فنقل ذلك إلى القاضى، وأُقِرَ إلى القاضى من
ذكر له أن ابن القطاس مولى لم يجر عليه عتق، وشهد آخرون بأنه
مولى رجل من الأزدي قال له ابن الأبرش، وادعى ابن الأبرش
رقبته، فأمر القاضى بحبس ابن القطاس خمسة أيام ونودى عليه في
سوق الرقيق فاشتراه القاضى بدينار وأعتقه، وفي ذلك قال الجل
في مدح القاضى .

ويطشت بالقطوس بطشة قائم بالحق غير مقصر ومبدر
ما زالت تفحص عن أمور شهوده في السر والعلن المبين الأظاهر
فربطته في رقة ومنعه وطاً الحرائر وهو غير محير
هذا النداء ، وهذه هاد لهم إن جاء فيه بغير فلس أقشر
يتفى وينظر في المكاتب داباً والعبد غير مكاتب ومدبر^(١)
وما لاشك فيه أن المصريين أنشدوا شعراً كثيراً جداً في
علاقة عرب مصر بالمصريين ولكن هذا الشعر فقد ولم يبق منه إلا
قدر يسير قد ذكرنا أكثره .

أثر حنة خلق القرآن

أصحاب مصر من فتنة خلق القرآن ما أصاب الأقطار الإسلامية
لآخرى ، فقد روى الكندي أن المؤمن طلب إلى أخيه أبي إسحاق
المعتصم أن يكتب إلى نصر بن عبد الله كيدر نائبه على مصر أن يتمتحن
بغضه والشهود فمن أقر منهم أن القرآن مخلوق وكان عدلاً قبلت
اتهادته وأقر بموضعه ، وكان القاضي بمصر إذ ذاك هرون بن عبد الله
تمتحن وأقر بأن القرآن مخلوق ، وتبعه عامدة الشهود وبعض الفقهاء
هرهوب منهم من لم يوافق ، وورد كتاب المعتصم على القاضي هرون
حمل الفقهاء في الحنة فاستعن هرون من ذلك ، فكتب ابن أبي
بزاد إلى محمد بن أبي الليث بالقيام في الحنة ، وذلك قبل ولادته
لتضليل ، فحمل البوطي وخشنام المحدث في جمع كثير غيرهما ، ولما

ولى الواثق سنة سبع وعشرين وما تين أمر أن يأخذ الناس بالمحنة
وورد كتابه على ابن أبي الليث الذي ولى القضاة سنة ست وعشرين
وما تين ، فلم يبق أحد من فقيه ولا محدث ولا معلم حتى أخذ بالمحنة
وهرب كثير من الناس وملئت السجون بمن أنكر المحنة ، كان «مطر»
غلام ابن أبي الليث يأخذ قلans العلامة أمثال هرون بن سعيد
الآيلى و محمد بن عبدالله بن عبد الحكم وغيرهما ويسوقهم بعائهم
وفي هذا كله أنشد شعراء مصر ، فمن ذلك ما قاله الحسين بن
عبد السلام المعروف بالجل الأكبر وكان منقطعاً إلى مدح القاضي
ابن أبي الليث في ذلك العصر .

خميست قول أبي حنيفة بالهدى
ومحمد والي وسفي الاذكر
وفتى أبي ليلى وقول فريقهم
وحطممت قول الشافعى وصحبه
والمالكية بعد ذكر شائع
أخلتها فكأنهم لم تذكرة
وأتك ألسنة أتك ضميرها
فأطففت بالآيلى ^(١) ينعق صالحها
ومحمد الحكى ^(٢) أنت أطافته
كل ينادى بالقرآن وخلفه
فسهرتهم بمقالة لم تشر
لم ترض أن نطق بها أفواهمهم
حتى المساجد خلقه لم تنكر ^(٣)
لما أریتهم الردى متتصوراً
زعموا بأن الله غير مصور ^(٤)

(١) هو هرون بن سعيد الآيلى (٢) هو محمد بن عبدالله بن عبد الحكم

(٣) أمر القاضي ابن أبي الليث أن يكتب على المساجد بالقسطاط لا إله إلا قرب الفرق
المخلوق فالشاعر أشار في هذا البيت إلى ذلك .

(٤) الكندي ص ٥٤٢ - ٤٥٣

وكان أَحْمَدُ بْنُ صَالِحٍ قد هَرَبَ إِلَى الْيَمِّ فِي هَذِهِ الْمَحْنَةِ، وَلَزِمَ
يُوسُفَ أَبْنَ أَبِي طَيْبٍ مَنْزَلَهُ وَلَمْ يَظْهُرْ، وَحَاوَلَ مُحَمَّدُ بْنُ سَالمَ الْقَطَانَ
الْهَرَبَ وَلَسْكَنَ ظَفَرَ بِهِ فَجَمِلَ إِلَى الْعَرَاقَ، وَهَرَبَ ذُو الْنُونَ الْمَصْرِيَّ
ثُمَّ رَأَى أَنَّ يَرْجِعَ فَأَقْرَبَ بِالْمَحْنَةِ وَإِلَى هَذَا كَاهَ أَشَارَ الْجَلَلَ بِقَوْلِهِ :

أَحْجَرْتِ يُوسُفَ فِي خَرَانَةِ يَيْتَهُ
كَفَرْتِ بِكَ الْأَرْضُونَ حِينَ سَأَلْتَهَا
فَطُورَتْهُ عَنْكَ وَطَالَ لَمْ يَحْجُرْ
خَبْرَ ابْنِ صَالِحٍ الْخَبِيثِ الْأَكْفَرِ
جَحْدَتْهُ اقْطَارُ الْبَلَادِ فَمَا عَلَى
حَرْكَاتِهِ وَسَكُونِهِ مِنْ مَظَاهِرِ
وَثَوَى ابْنُ سَالمَ خَفِيَّةً فِي يَيْتَهُ
ثُمَّ امْتَطَى غَلَسَ الظَّلَامِ الْأَسْتَرِ
فَانِي بِهِ كَعْرِيجٌ أَوْ كَأَبِي النَّدَى وَالنَّاسُ بْنُ مَهْلَلٍ وَمَكْبَرٍ^(١)
وَأَخْذَ الْقَاضِي فِي اضْطِهَادِ الْفُقَهَاءِ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْفُقَهَاءِ، وَشَيوخَ
مَصْرِ إِذْ ذَاكَ كَانُوا يَرْتَدُونَ الْقَلَانِسَ الطَّوَالِ وَيَبَالُوْغُونَ فِيهَا، فَأَمْرَهُمْ
ابْنُ أَبِي الْلَّيْثِ بَرِّ كَهَا؛ وَمَنْعِهمْ مِنْ لِبَاسِهَا وَأَمْرُهُمْ أَنْ يَتَشَبَّهُوا بِزَىِ
الْقَاضِي فَلَمْ يَأْبُهُوا بِأَمْرِهِ، فَانتَظَرْتُ حَتَّى أَنِي إِلَيْهِ عَدَدُهُمْ وَهُوَ فِي
مَجْلِسِ حُكْمِهِ فَأَمْرَ غَلَامِهِ عَبْدَ الْغَنِيِّ وَمَطْرَا أَنْ يَضْرِبَ رُؤُوسَ
الشَّيْوخِ حَتَّى أَقْوَى قَلَانِسَهُمْ عَلَى الْأَرْضِ، وَأَخْذَهُمُ الصَّيْانِ
وَالرَّاعِي يَلْعَبُونَ بِهَا وَفِي ذَلِكَ قَالَ الْجَلَلُ :

وَأَخْفَتِ أَيَّامَ الطَّوَالِ وَأَهْلَهَا فَرَمَوا بِكُلِّ طَوِيلَةٍ لَمْ تَقْصُرْ
مَا زَلتِ تَأْخِذُهُمْ بِطَرْحِ طَوَالِهِمْ وَالْمَشَى نَحْوَكَ بِالرُّؤُوسِ الْحَسَرِ
حَتَّى تَرَكْتُهُمْ يَرَوُنَ لِبَاسَهُمْ بَعْدَ الْجَمَالِ خَطِيَّةً لَمْ تَغْفِرْ
يَتْفَرَّعُنَّ بِكُلِّ قَطْعَةٍ خَرْقَةٍ يَمْحُدُونَهَا مِنْ أَعْيُنِ وَمَخْبِرِ

فإذا خلأ بهم المكان مشوا بها
وتابطوها في المكان الأعم
فلشن ذعرت طوالهم فلطالما
ذعرت ومن مروا بها لم يذعر
لبسو الطوال لكل يوم شهادة
ولقو اقضاء بمشية وتبختر
مال أراهم مطرقين **كأنما** دمعت رؤوسهم بمحمي خير^(١)

هذا بعض ما وصلنا عن مخنث الفقهاء في مصر ومن يدرى لعل
المصريين أنشدوا في ذلك شعراً كثيراً يخالفون به المعزلة لاسيما في
مسألة خلق القرآن ، إذ كان للعزلة في مصر حلقة زعيمها ابن صبيح^(٢)
كانت تدافع عن خلق القرآن ، ولكن يخيل إلى أن مذهب العزلة
لم يجد له مكاناً في نفوس المصريين حتى أن سيبويه المصري كان
يقف في جمع كثير ، وفي الحاضرين أبو عمران موسى بن رباح الفارسي
المتكلم وأحد شيوخ العزلة بمصر ، فكان سيبويه يصبح ويقول :
الدار دار كفر ، حسكم أنه ما بقي في هذا البلد العظيمة أحد يقول
القرآن مخلوق إلا أنا وهذا الشيخ أبو عمران ، فقام أبو عمران
يعدو حافياً خوفاً على نفسه حتى لحقه رجل ينعته^(٣)

بعض أغراض الشعر

لم تكن هذه كل أغراض الشعر المصري في هذا العصر بل نجد
بجانب ذلك شعراً قيل في المدح والهجاء والرثاء أى في الأغراض
التي لا تصل إلا بالشاعر وعواطفه وميوله ، وليس بعجب أن نرى
هذه الأغراض في الشعر المصري ، فكل الشعر العربي في جميع
عصوره لم يخل منها ، في الجاهلية نرى الشعراء يمدحون ولكن

(١) الكندي ص ٤٦١ (٢) الفضة للKennedy من ٤٥٢

(٣) أخبار سيبويه المصري لابن زولاق ، نسخة خطية بدار السكتب المصرية.

مدحهم كان أقرب إلى الواقع ، وأبعد عن المبالغة ، ثم أخذ المدح يزداد مبالغة بازدياد الحضارة والرُّكُون إلى الرِّخاء وأضطر الشعراء إلى التزلف والهُنْقَلَق حتى ينالوا حظوة عند الأمراء والخلفاء . وفي الشعر المصري نجد بعض الشعراء يقربون من شعراء الجاهلين في صدق مدحهم ولا يسرفون في وصف المدح بما ليس فيه ، فشعر سعيد بن عفیر كان قريباً للشبيه من شعر زهير بن أبي سليم الجاهلي كلَّا هما لم يمدح بقصد النوال ، وكلَّا هما كان يمدح خصال الرجل وخلقه أكثر من أي شيء آخر ولا لشيء ، ففي مدح سعيد هبيرة ابن هشام الذي عذب وكاد يقتل لأنه أجار إبراهيم الطافى التائز على الوالى المطلب الخزاعى ولم يقبل هبيرة أن يسلم إبراهيم للوالى ، نرى الشاعر قد شبه هبيرة بالسموأول بن عاديا في الوفاء . ومدحه بحمله على تحمل العذاب في سبيل ذلك الوفاء

لعمرى لقد أوفي ، وفاق وفاوه هبيرة في الطافى وفاء السموأول
وفاه المنايا إذ أتاه بنفسه وقد برقت في عارض متهل
فما انفك محبوساً ومطلوب له عليه قصييف بالوعيد المهوول
فازاده الإبعاد إلا توقداً وصبراً ولم يخشع ولم يتفلكل
إلى أن تجلت عنه أبيض ماجد كريم الثنافى المشهد المتدخل^(١)
فسعيد هنا يمدح رجلاً كريماً وفياً ، ليس له سلطان ولا إمرة ،
ولم يطمع فيها كانت تصبو إليه نفوس الشعراء الآخرين . ونجده من
ناحية أخرى بين الشعراء المصريين من تكسب بشعره كالشاعر المعلى
الطافى الذي اتصل بكثير من الولاة والأمراء ومدحهم ، بل كان

لَا يترجح منْ أَنْ ي مدح أحدهم ثمْ ي مدح عدوه إِذَا صار الْأَمْرُ ييد ذلك
العدو ، من ذلك ما قيل إِنَّه اتصل بالسرى وابنه ومدحهما ، وكأنما
ثائرين على الولاة ، ثُمَّ وقف بين يدي عبد الله بن طاهر تحت المنبر
و قال له : أَصْلَحْتَ اللَّهَ الْأَمِيرَ أَنَا الْمَعْلُى الطَّانِي ، وقد بلغ مني من جفاه
و غلظ فلا يغلوظ على قلبك ، ولا يستخفنك الذي يبلغك ، أنا
الذى أقول :

يَا أَعْظَمَ النَّاسِ عَفْوًا عِنْدَ مُقْدَرَةِ
وَأَظْلَمَ النَّاسَ عِنْدَ الْجُودِ لِلْمَالِ
لَوْ أَصْبَحَ النَّيلَ يَجْرِي مَأْوَهَ ذَهَبًا
لَمَا أَشْرَتْ إِلَى خَزْنَ بَمْتَقَالِ
تَغْلِي بِمَا فِيهِ رَقُ الْحَدِ تَمْلِكَهِ
وَلِيُسْ شَيْءٌ أَعْضَضُ الْحَمْدَ بِالْغَالِ
تَفْكِكُ بِالْيُسْرِ كَفُ الْعَسْرِ مِنْ زَمْنِ
إِذَا اسْتَطَالَ عَلَى قَوْمٍ يَاقْلَالِ
لَمْ تَخْلُ كَفُكَ مِنْ جُودٍ لَمْ تَخْبِطْ
وَمَرْهُفٌ قَاتِلٌ فِي رَأْسِ قَتَالِ
وَمَا بَثَثَتْ رَعِيلُ الْخَيْلِ فِي بَلْدٍ
إِلَّا عَصْفَنٌ بِأَرْزَاقِ وَآجَالِ
إِنْ كَتَتْ مِنْكَ عَلَى بَالِ مِنْتَ بِهِ
فَإِنْ شَكَرْكَ مِنْ قَلْبِي عَلَى بَالِ (١)

(١) زهر الآداب ج ٢ ص ١٨١ (المطبعة الرحمانية) .

فسر الوالى وأجزل عطاءه ، فالشاعر مدحه لجوده وطعمه في
صلاته . ولعل أكثر شعراء هذا العصر تكتسبا بالشعر هو الحسين
ابن عبد السلام الشهير « باملل الأكبر » إذا تصل بالقاضى محمد
بن أبي الليث ومدحه ولم يأبه لصوت المصريين الذين سخطوا على
القاضى لسوء معاملته — وقدمنا مثلا من ذلك كله في حديثنا عن منه
خلق القرآن — ثم فراه يتصل بأحمد بن المدب والى خراج مصر
، ويطلب منه العطاء كا كان يفعل مروان بن أبي حفصة مع معن بن
زاندة الشيباني ، فقد قيل إن ابن المدب كان من عادته أنه إذا مدحه
شاعر لم يرض بشعره ، أمر من يحمله إلى المسجد ويا أمره أن يصلى
عدها معلولا ما يفرضه عليه ، فعرف الشعراء ذلك فدخل عليه الجمل
الأكبر وأنشده :

قصدنا في أبي حسن مدحنا
قالوا يقبل المدحات لكن
فقلت لهم وما تغنى الصلة
فاما إذ أبي إلا صلائق
فيأمر لى بكسر الصاد منها
ويصلح لى على هذا حيائى
وظل هذا الشاعر يتكتسب بالمدح حتى ولى أحمد بن طولون
فأثاره بمدحه وأخذ عطاءه ، فاعتبره كثيرون من المؤرخين شاعر ابن

(١) زهر الآداب ج ٢ ص ١٨١ (المطبعة الرحمانية) وتحفة المجالس السبوطى

طولون ولكن المنية عاجلت الشاعر في أوائل حكم الطولونيين أي
في سنة ثمان وخمسين ومائتين .

لأنكاد نجد بين أيدينا من الشعر الذي يقى لنامن هذا العصر معانى
جديدة في المدح بل اتخد شعراه مصر نفس المعانى الى اتخدتها غيرهم
من شعراء العرب من وصف الممدوح بالجود والكرم والشجاعة ،
ولأنكاد نجد إلا أثرا قليلا لمصر في هذا الشعر الذي رأيناها في شعر
المعلى من ذكر ، النيل ولعل روح الفكاهة المصرية قد أثرت أيضاً في
شعر الشعراء كالذى نراه في الأبيات التي رويناها للجمل في مدح ابن المدبر
كذلك نستطيع أن نقول عن الهجاء نقدر أينا كيف كان الشعراء
يجهون الولاة والقضاة في مصر ، ويخصون مساوئهم وأكثر شعراه
هذا العصر هجاء هو الشاعر يحيى الخولاني الذي وقف بالمرصاد
للقاضى العمرى فرمأه بالرشوة ، وكناه أبا الندى . وهى كنية مصرية
خالصة لم يعرفها شعراء العرب ، ولم يذكرها إلا المصريون ، وهجاء
أيضاً بأنه كان يحب سماع الغناء وفي ذلك يقول الشاعر يحيى .

مربنا راكب على فرس
يامن رأى هربذا^(١) على فرس
فقلت : من ذا اللعين ؟ قيل أبو
الندا غدا مسرعا إلى عرس
كيمابرى قينة ذكرت بها
تشدو بصوت يخال كالجرس
أصبح في المخزيات منغمسا
وليس في غـيرها منغمس^(٢)

(١) هربذا كبرج مفرد هرابذة قومه بيت النار للهند وخدم نار الجبوس .

(٢) الولاة والقضاة من ٤٠٠

كذلك الشاعر يحيى بن الفضيل الذي هجا الوالي عنترة بن اسحق
الضي، ورماه بدين الخوارج وبالجنون لأن الوالي كان يذهب
إلى المسجد وهو ينادي في شهر رمضان بالسحور، فلم يعجب الشاعر
ذلك وأرسل إلى الخليفة يقول:

من فتي يبلغ الإمام كتابا عريسا ويقتضيه الجوابا
بنس والله ما صنعت إلينا حين ولتنا أميرا مصابا
خارجيا يدين بالسيف. فيما ويرى قلنا جميعا صوابا
مر يمشي إلى الصلاة نهارا وينادي السحور ضل وخابا^(١)
والشاعر اسحق بن معاذ بن مجاهد هجا القاضي المفضل بن فضالة
 فقال :

خف الله وارقد واتند يا مفضل
فإنك عن فصل القضاء ستسأل
وإنك موقوف به ومحاسب
فدونك ، فانظر كيف في الحكم تفعل
أفي العدل أن أقصى وأخرج متبعا
وتدعى بفضل منك خصمي وتدخل
ويفتح إن يدنو له الباب جهرة
ويغلق دوني إن دنوت ويغفل
وتقبل منه في مغيبي شهوده
ويبني لىست إذا غاب تقبل
فها أنت أصبحت خصمك في الذي
قضيت به الحق ما ليس بمحمل

فاصغ إلى السمع منك وأبني
بأي وجوه الفقه أصبحت تعمل^(١)

وقول سعيد بن عفير في هجاء الوالي الحسين بن جعيل سنة
تسعين ومائة

ما كنت أحسب أن الحين يجمع ما
أمسى بمصر من الاندال في الامر

أما الأمير فحتاج وصاحبه

على الخراج سوادي من الأكر

هذا الهناني^(٢) من الفسطاط يخلفه

والباهلي^(٣) على أعماله الآخر

كل لصاحبه شكل يلائمـه

فهم سواسية في اللؤم كالخر

وما هناء إلا خلف ذي يمن

والباهليون مأوى اللؤم من مصر

فما يسوع لنا عيش . فينفعنا

مع مازى لهم من رقة الخطر^(٤)

ولم يصلنا شيء من الهجاء بين الشعراء كالذى نراه بين شعراً

(١) الكندي ص ٣٨٠—٣٨١

(٢) الهناني هو كامل الهناني الذى ولى الفرطه في ذلك الوقت

(٣) الباهلي هو معاوية بن صرد الذى ولى الشرطه بعد الهناني

(٤) الكندي ص ١٤٢—١٤٣

لأقطار الإسلامية الأخرى ، والهجاء الذي وصلنا يكاد يكون ذمًا
يجو دون تعريض بأسرته ، فلم يسرفوا في الهجاء كما لم يسرفوا
المدح .

أما الرثاء ، فالممعروف أن من عادة المصريين منذ القدم الإسراف
البكاء والتنجيب والعويل حزناً لوفاة قريب أو صديق ، وشعراء
عرب كانوا يسرفون في الرثاء ويكون ، ولكن ما وصلنا من الشعر
نطري في الرثاء مختلف تمام الاختلاف عن عادة المصريين وشعراء
عرب ، فقد قصر شعراء مصر رثاءهم على سرد مناقب الميت ،
كيف لaci الموت بشجاعة وجلد ، ويتلقى الشاعر نعي الميت بصبر ،
لما أن هذا مصير كل حي كقول الشاعر سعيد بن عفیر .

افت عمير إلى مصر منيته يامرة لم يكن فيها بمسعود
في أنته المانيا وهو ملتحف ثوبين من حبرات البأس والجود
ذهب حميداً فلا تبعد فكل في يوما وإن كرمت فأعالله يودي^(١)
وقول سعيد أيضاً في رثاء هبيرة بن هشام بن حدیج الذي قتل
حر وبه مع السرى سنة ماتتين :

لَعَمْرِي لَقَدْ لَاقَ هُبَيْرَةَ حَنْفَةَ
بِأَفْضَلِ مَا تُلْقِي الْخَوْفُ السَّوَارِعُ
بِأَنْفِ حَمِيِّ لَمْ تَخَالِطْهُ ذَلَّةَ
وَعَرَضَ نَقِيَّ لَمْ تَشِّنِهِ الْمَطَامِعُ

عَشِيَّةً يَسْتَكْفِيهِ مُطْلَبُ الْذِي
بِهِ ضَاقَ ذِرْعَاً وَالْمَنَابِيَا كَوَارِعَ
فَا أَنْفَكَ يَحْمِيهِ وَيَجْعَلُ نَفْسَهُ
لَهُ جُنَاحَةً حَتَّى احْتَوَتِهِ الْمَصَارِعُ
فَلَاقَ الْمَنَابِيَا فَوْقَ أَخْرَدَ سَابِعَ
وَفِي الْكَفِ مَأْثُورٌ مِنَ الْهَنْدِ قَاطِعٌ
فَبَيْنَا يَخْوُضُ الْهَوْلَ مِنْ غَمَرَاتِهِ
وَأَعْدَاؤُهُ مِنْ حَوْلِهِ قَدْ تَجَاهَسُوا
تَقْطَرَ فِي أَهْنَوْيَةٍ عَنْ جَوَادِهِ
فَصَادَفَهُ سَحْنٌ مِنَ الْمَوْتِ وَاقِعٌ
فَلَمْ أَرْ مَقْتُولًا أَجْلَ مَصَابِهِ
عَلَى مَنْ يَعْادِي وَالَّذِينَ يَجْمَعُونَ
مِنْ أَبْنَ حَدِيجِ يَوْمِ أَعْلَنَ نَعِيَّهُ
وَقَامَ بِهِ فِي النَّاسِ رَاءُ وَسَامِعُ^(١)
وَقَدْ حَفِظَتْ قَصِيدَةً فِي الرِّثَاءِ تَكَادُ تَكُونُ كَامِلَةً أَنْشَدَهَا الشَّاعِرُ
الْمَعْلَى الطَّائِي يَرْثِي جَارِيَةً لَهُ قِيلَ إِنَّهُ كَانَ يَحْبِبُهَا لِأَدْبَرِهَا وَعَلَمَهَا، وَكَانَتْ
شَاعِرَةً، وَقِيلَ أَيْضًا إِنَّ الْمَعْلَى بَاعَهَا بِأَرْبَعَةِ آلَافِ دِينَارٍ، فَلَمَّا دَخَلَ
عَلَيْهَا قَاتَلَتْ لَهُ : بَعْتَنِي يَا مَعْلِي؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَتْ : وَاللهِ لَوْ مَلَكْتُ
مِنْكَ مِثْلَ مَا تَمْلِكُ مِنِّي مَا بَعْتَكَ بِالْدُّنْيَا وَمَا فِيهَا . فَاضْطَرَرَ الْمَعْلَى إِلَى
أَنْ يَرِدَ الدُّنَانِيرَ وَأَنْ يَسْتَقِيلَ صَاحِبَهُ وَيَعْتَذِرَ إِلَى صَاحِبِتِهِ^(٢) وَتَوَفَّتْ
هَذِهِ الْجَارِيَةَ بَعْدَ ثَمَانِيَّةِ أَيَّامٍ مِنْ هَذَا الْحَادِثِ فَرَثَاهَا الْمَعْلَى بِقَصِيدَةٍ

(١) السكندي ص ١٦٠ (٢) العقد الفريد ح ٢ ص ١٧٩

أرى أنها من آيات الشعر بجمال معناها ، وسموع اعطفتها ، ورشاقة لفظها .
 أخذ الشاعر ينادي الموت ويعبّأ به كأنه شخص ماثل أمام عينيه ،
 ويتحدث إليه كما يتحدث إلى شخص يعرفه ، فهو يلوم الموت لأنّه
 اقتضى جاريته التي عبر عنها بشيق نفسه ، فهو لا يستطيع أن يهنا
 بالنصف فقط ، وهو يلوم الموت ويستعطفه استعطافاً أمهلاً عليه
 حزنه لفقدانها وحبه لها ، فقال إن الموت لم يرحم شبابها ، ثم يأخذ
 في وصف عظامها اللينة ، وشعرها وعينيها ومشيتها ، ويترحم على
 ذلك كله وأخيراً يعاتب الموت مرة أخرى لأنّه ترك حبيبته في قبر
 تلub الريح بترابه ، ومتندإليه يد البلى ، وأن أحداً لا يستطيع زيارته
 لهذا القبر لأنّ في زيارته الالحاظ ثم يناد القبر أن يبق على محاسنها ،
 ويحفظ يرها وظرفها . فالشاعر في هذه القصيدة حزين حقاً ، متآلم
 أشد الألم لفارق جاريته ، ولكنه حزن هادئ — إن صح هذا
 التعبير — لم يرسل الدمع ، ولم ينتحب ، وهو في هذا الحزن يذكر
 أنه سيلتقي بها يوم القيمة :

بما موت كيف سلبتني «وصفا»
 قدّمتها وتركتني خلفاً
 دلاً ذهبت بنا معاً فلقد
 ظفرت يداك فسمتني خسفاً^(١)
 وأخذت شق النفس من بدن
 فقيرته وتركت لي النصفا
 غليلك بالباقي بلا أجل
 فالموت بعد وفاتها أعنف^(٢)
 ممات مات أبقيت لي أحدا
 لما رأفت إلى البلى «وصفا» ،
 دلاً رحمة شباب غانية ريتا العظام وشعرها الوحشا^(٣)

(١) الخسف الذل والهوان

(٢) أعنفه من الأمر برأسه

(٣) الوحف الشعر السكريبيف الأسود

(١) الخشاف مثلاة: ولد الغلي أول ما يولد

(٢) حار بحار و يختار واستختار : نظر إلى الشيء

(٣) مساجر جم محجر : مدار بالمين

(٤) الوظف: كثرة شعر الحاجين والمعينين

(٥) الوكف : الام (٦) العقد الفريد ج ٢ ص ١٧٩

في الرثاء بدون دمع متهم ، فالبكاء عند الشعراء مظاهر من مظاهر الحزن وهو أيضاً يدل على بساطة في الحياة وسذاجة في الشعور ، فكما أن الطفل الصغير يبكي إذا تألم ، والمرأة تبكي إذا أغضبتها شيء .
كذلك شعراء العرب كانوا يبكون إذا رثوا ، ولا أدرى لم لم يتبع شعراء مصر في هذا العصر سنة شعراء العرب أو طريقة المصريين في المآتم . ومن يدرى لعل للمصريين في الرثاء أشعاراً كثيرة فيها
هذا اللون من البكاء والنحيب ولكن الشعر فقد

أما حياة اللهو والمحنون وبمحالس الحزن والغزل فلا أجد لها ذكرآ فيها وصلنا من الشعر في هذا العصر ، ولا أستطيع أن أقول إنه لم يوجد في مصر شعراء هوا كاها غيرهم ، وتغزلوا كاتغزل غيرهم ، وحياة مصر وأعيادها كانت تدعوه إلى أن يتحدث عنها الشعراء ، ويكتفى أن أنقل شيئاً مما ذكره المقريزى عن أعياد المصريين ، فقد قال في حديثه عن عيد الشهيد ، « وما كان يعمل بمصر عيد الشهيد وكان من أئمه أفراح مصر وهو الشامن من بشنس ويكون لذلك اليوم عيد ترحل إليه النصارى من جميع القرى ، ويركبون فيه الخيل ، ولعبون عليها ، ويخرج عامة أهل مصر على اختلاف طبقاتهم ، وينصبون الخيم على شطوط النيل وفي الجزائر ولا يبق معن ولا معنية ، ولا صاحب هو ، ولا رب ملعوب ، ولا بغي ، ولا مخنث ، ولا ماجن ، ولا خليع ، ولا فاتك ، ولا فاسق ، إلا وخرج لهذا العيد فيجتمع عالم عظيم لا يحصيهم إلا خالقهم ، وتصرف أموال لا تنحصر ، ويتجاهر هناك بما لا يتحمل من المعاصي والفسوق ،

وتثور فتن ، وتنقتل أناس ، ويياع من الخر خاصة في ذلك اليوم
وكان اجتماع الناس لعيد الشميد دامماً بناحية شبرا^(١) .

وقد ظل هذا العيد بمصر إلى أن أمر بإبطاله الأمير بيبرس
سنة ٧٠٢ هـ . ومن هذه الأعياد أيضاً عيد الغطاس وفيه يشارك
المسلمون النصارى ، وفي هذا العيد لا يتناكرون كل ما يمكّنهم إظهاره
من المأكل والمشارب والملابس وألات الذهب والفضة والجوهر
والملائكة والعزف والقصف ، وهي أحسن ليلة تسكون بمصر
وأشملها سروراً^(٢) وقد شاهد المسعودي الغطاس سنة ثلثين وثلاثمائة
هجرية ووصفها ، ومنع المصريون سنة سبع وستين وثلاثمائة من
إظهار ما كانوا يفعلونه في الغطاس ، ثم سمح لهم سنة ثمان وثمانين
وثلاثمائة . وكذلك عيد الصليب ، وفيه كان المصريون يخرجون إلى
خارج القسطاط ، ويتظاهرؤن بالمنكرات والمحرمات وقد أبطل
هذا العيد سنة اثنين وأربعين أيام الحاكم الفاطمي^(٣) .

من الطبيعي أنه كان بين الشعراء في هذا العصر من شارك الناس
في لهوم وعيتهم ، وأنشد شعرآ في هذه الحياة الصاخبة الماجنة
ولكن هذا الشعر فقد ولم يبق منه ما يدل عليه ، فلم يروه الرواة ، ولم
يذونه المؤرخون ، ولا أستطيع أن أعمل ذلك . وكذلك لم يصل
شعر في وصف الخمر مع أن الكندي يحدّثنا أن العلوين خرجوا
بمصر أيام الوالي يزيد بن حاتم ، فأرسل الوالي إلى أصحابه ، بجعلوا
يأتونه سكارى ، فقال لهم : إن نضو حكم الليلة لكثير^(٤) . وحتى

(١) المقرئي ج ١ ص ٢٦

(٢) المقرئي ج ٢ ص ٢٩

(٣) المقرئي ج ٢ ص ١١٣

والى على بن سليمان عاقبة انتشار الخمر بين المصريين فأمر بمنع الملاهي والخمور في أيامه^(١) ، ومع ذلك كله لم يصلنا شعر في مجالس الخمر ولا في وصفها . وكان بمصر قيام ومعنون شأنها في ذلك شأن كل لقطار الإسلامية ، ويحدثنا السكندي أن القاضي العمرى كان يشدو أطراف الغناء على مغاف أهل المدينة ، ويزور كثيراً في مجالسه ، ولا يتحاشى أن يقول هذا غنى به ابن سريح ، وهذا به الدلال وهذا من جيد غناء الغريض ، ولم يكن بمصر مسمعة إلا ركب إليها ، وسع غناءها ، وربما قوم ما انكسر من غنائهما ، ويرى ذلك من من الدين^(٢) وقد هجاه خصوصه بذلك فقال يحيى الخولاني :

ألا قم فاندب العربا وبك الدين والحسبا
ولا تنفك تبكي العد ل لما بان فاغتربا
لقد أحدثت قاضى السو في فسطاطنا عجبا
يظل نهاره يقضى بغير العدل منتصبا
ويشهر ليله لسما عنه القينات والطربا
ويشربها معتمدة عقاراً تشبه الذهبها
ويعجبه سماع العود والمزمار يابعجا
فيا للناس من قاض يحب اللهو واللعبة^(٣)

نستطيع أن ندرك كيف أخذ المصريون على القاضي كلفه بالغناء إيجابه سماع العود والمزمار ، وشرب الخمر ، في حين أن خلفاء

(١) السكندي ص ٢٣٩

(٢) السكندي ص ١١٣

(٣) شرحه ص ٤٠٠

العباسيين في بغداد كانوا يلمون ويجهرون . ويظرون الملو والمحون
ويشاركون في هذه الحياة الشعراه والتدماء .

الشعراء الواقدون

لم ينقطع في هذا العصر أيضا وفود الشعراء على مصر لمدح
الولاة والأمراء ، بل كان بين الولاة أنفسهم من أنشد الشعر
كالوالى الفضل بن صالح المتوفى سنة ١٧٢ هـ فقد كان شاعرآ فصيحاً
أديباً ومن شعره :

عاش الموى واستشهد الصبر وعاث في الحزن والغم
وسهل التوديع يوم نوى ما كان قد وعره المجر (١)
والوالى عبدالله بن طاهر الذى ولى مصر سنة إحدى عشر
ومائتين كان بارع الأدب حسن الشعر (٢) ومن شعره ما أرسى
للخليفة المأمون وقد أمره بالزيادة في الجامع العتيق فكتب له ابن طاهر
أخي أنت ومولاي ومن أشكر نعماته
فما أحبت من شيء فإني الدهر أهواه
وما تكره من شيء فإني لست أهواه
للك الله على ذاك لك الله لك الله (٣)
وكان الوالى يزيد بن حاتم الذى ولى مصر سنة أربع وأربعين

(١) النجوم الظاهرة ج ٢ ص ٦١ (٢) شرحه ج ٢ من ١٩٢

(٣) شرحه وقد وردت هذه الأبيات في كتاب الولاة لـ الكندى ص ١١
مع اختلاف يسير ولكن الكندى روى أن ابن طاهر أرسل هذه الأبيات
طلب الأمان لعبد الله بن السرى الذى تحدثنا عنه .

ومائة مقصدا للناس لكرمه ، محبا للشعر وأهله^(١) ، قصده كثير من الشعراء منهم ربيعة بن ثابت الرقي ، قيل إنه مدح زيد ، فتشاغل هذا عنه ببعض الأمور ، واستبطأه ربيعة فرحل عن مصر وقال : أرانى ولا كفران لله راجعا بخفي حنين من نوال ابن حاتم بلغ هذا القول زيد ، فأرسل في استدعاء الشاعر ورده إلى مصر ، فلما دخل عليه قال له : أنت القائل « أرانى ولا كفران ؟ » قال : نعم قال هل قلت غير هذا ؟ قال : لا . قال : والله لترجعن بخفي حنين ملوءة مالا ! فأمر بخلع خفيه ، وأن تملأ له مالا ، ثم قال له أصلح ما أفسدت من قولك . فيما قاله الشاعر في مدح زيد لما عزل عن مصر :

بكي أهل مصر بالدموع السواجم

غداة غدا منها الأغر ابن حاتم^(٢)

ويذكر السمعاني أن المسهر التيمى الشاعر وفد أيضاً على ابن حاتم ومدحه وأجزل الأمير عطاه ، كما قصده الشاعر محمد بن عبد الله بن مسلم المعروف بابن المولى ومدحه بقصيدة طويلة منها :

وإذا تباع كريمة أو تشتري

فسواك بائها وأنت المشتري^(٣)

ومن قوله أيضاً في مدح زيد :

يا واحد العرب الذي أضحى وليس له نظير

(١) التجوم الراحلة ج ٢ ص ٢

(٢) العقد الفريد ج ١ ص ١٥٦ والتجوم الراحلة ج ٢ ص ٢

(٣) التجوم ج ٢ ص ٢

لو كان مثلك آخر ما كان في الدنيا فغير
ويحدثنا الطبرى أن البطين الحمى الشاعر وفد على مصر بصحبة
الوالى عبد الله بن ظاهر^(١).

أبو نواس في مصر :

وفي هذا العصر وفدا أبو نواس على مصر ، ولمكانة أبي نواس في
الشعر ، ولكثره ما حفظ لنا من شعره في مصر رأينا أن نطيل
بعض الشيء في حديثنا عن وفوده على مصر .

حدثنا جامع أخبار أبي نواس^(٢) أن الشاعر خرج إلى مصر
متذكرًا في زي الشطار مع سليمان بن أبي سهل ، فلما دخل على
الخصيب ازدراه واستخف به ، ثم أرسل أبو نواس كتبًا إلى
الخصيب فلم يستشده ، فكان ينصرف مهوما ، وعلم المصريون
بوجود أبي نواس بينهم ، فهرعوا إليه واستمعوا إلى شعره وكتبوه
فأنشد بعضهم هذا الشعر إلى الخصيب فاستحضره وأنشد له قصيدة

التي مطلعها :

أجرة ييتينا أبوك غبور ويسور مايرجى لديك عسير
ونحن لا نستطيع أن نقبل هذه الرواية إذ كيف يرفض أمير أن يستمع
لأبي نواس مع مكانته في عالم الشعر إذ ذاك ! ففي الوقت الذي كان
ينشد فيه أبو نواس الخليفة في بغداد ، وينادم ولـى العهد ، يرفض
أمير مصر أن يستمع إليه ؟ . وهناك رواية أخرى ذكرها صاحب

(١) تاريخ الطبرى وحوادث سنة ٢١٠ هـ

(٢) أخبار أبي نواس نسخة خطية بدار الكتب المصرية

أخبار أبي نواس أيضاً تحدثنا أن الخصيب هو الذي استزار أبي نواس فشخص هذا إليه وبينما هو في طريقه صادف قوماً من أهل الأدب لهم شرف وهيبة، فأنسهم ومضوا جميعاً حتى دخلوا معه مصر، فسار أبو نواس إلى الخصيب الذي أحسن مقابلته وسأله عن خبره في رحلته واستئشده. هذه الرواية تناقض السابقة، وهي أقرب إلى الصواب لأن أبي نواس كان معروفاً في ذلك العصر في كل البلاد الإسلامية وينشد شعره الأدباء بل نرى بعضهم قد تتبع أخبار أبي نواس كالذى قيل إن النضر بن أمية الحمصي الشاعر قال: لما خرج أبو نواس من بغداد إلى مصر، كتب الناس ببغداد إلى أهل الشام بذلك، فلم يزل القوم في الشام يرقبون قدومه حتى قدم. وبحديث السيوطي أن أهل الأدب بمصر لا يعرفون قدوم أبي نواس هرعوا إليه واستئشدوه، فكان يجلس في المسجد الجامع والناس حوله ينشدُهم أشعاره وهم يكتبون^(١) فهذا يدلنا على أن أبي نواس لم يكن بالشاعر المجهول عند المصريين وغير المصريين، ولذلك فإني أرجح هذه الرواية الأخيرة أما الخصيب الذي استقدم الشاعر فلا نكاد نعرف عنه شيئاً ولم يذكره المؤرخون بين ولادة مصر وأمرائها. ولكن جامع ديوان أبي نواس قال: هو الخصيب بن عبد الحميد العجمي ثم المرادي أمير مصر، وهو دهقان من أهل المزار شريف الآباء، وكان رئيساً في أرضه فاتَّقل إلى بغداد وصار كاتب مهرويه الرازي ثم انتقل إلى الامارة^(٢). وفي حديث المقرizi عن المدن قال: منية

(١) تحفة المجالس السيوطي ص ٣٣٢

(٢) ديوان أبي نواس ص ٧٧ ، طبع مصر سنة ١٣٢٢

الخصيب ، هذه المدينة تنسب إلى الخصيب بن عبد الحميد صاحب خراج مصر^(١) ، ولكن كتب التاريخ لم تذكر الخصيب أيضاً بين ولاة خراج مصر ، وإذا أمعنا في دراسة ولاة مصر وأمرائها في عصر الرشيد ، نجد المؤرخين قد أهملوا ذكر صاحب الخراج في سنة ١٨٠ هـ وسنة ١٨٣ هـ وسنة ١٨٩ هـ أي أن الخصيب كان أميراً على خراج مصر في إحدى هذه السنين ، والذى أرجحه أنه كان في سنة ١٨٩ هـ إذ هي السنة التي ول فيها عبد الله بن محمد على مصر وفي سنة ١٩٠ هـ جعل على الشرطة أحمد بن حوى ، وعلى الصلاة هاشم بن حدبيج ، وقد ورد ذكر هذين الأميرين في شعر أبي نواس ، وإن فقدم كان أبو نواس في مصر سنة ١٩٠ هـ

تكاد تجمع الروايات على أن أول قصيدة أنشدها أبو نواس في مصر هي قصيده الرائية .

أحارة ييتينا أبوك غivor ومهسور مايرجي لدليك عسير
وفيها يقول :

تقول التي عن بيتها خف مركي
عزيز علينا أن نراك تسير
أما دون مصر للغنى متطلب
بلي .. إن أسباب الغنى لكثير
فقلت لها واستعجلتها بواردر
جرت فجرى في جريهن عبر

(١) خلط المفرizi ج ١ ص ٢٣١

ذريني أكثر حاسديك برحله

إلى بلد فيه الخصيب أمير^(١)

وهو في هذه القصيدة يصف رحلته من العراق، ويدرك المدن
التي مر بها ثم يحدثنا عن طمعه في نوال الخصيب، بل هو في كل
شعره الذي أشده في مدح الخصيب كان يتحدث دائمًا عن أمله في
العطاء الجزيل، وينفي نفسه بالمال الكثير :

يابنتي أبشرى بعمره مصر وتمسني وأسرني في الأمانى
أنا في ذمة الخصيب مقيم حيث لاتعتدى صروف الزمان
قد علقتنا من الخصيب حبالاً آمنتنا طوارق الحدثان^(٢)
وقوله أيضًا :

ولما جدير إذ بلغتك بالمنى
وأنت بما أملت منك جدير

وفي قصيدة أخرى قال :

أنت الخصيب وهذه مصر

فتدعها فكلا كا
بحر لا تقعدا بي عن مدى أملي
 شيئاً فالكا به عذر
ويحق لي إذ صرت بينكما
ألا يحمل بساحتى فقر

(١) ديوان أبي نواس ص ٨٠ وأخبار أبي نواس لابن منظور ص ٣٣٧

(٢) ديوان أبي نواس ص ٧٨

النيل ينش مأوه مصر
وندك ينش أهله الغمر ^(١)

فولا هذا الطمع في المال مأوى أبو نواس من بغداد إلى مصر
وقد ولد الأمل في نفسه ثقة بأن الخصيب سيغدق عليه العطاء فإذا
الشاعر صادق في مدحه للخصيب مغبظ بحضوره إلى مصر ، عظيم
الأمل في الثروة ، والخصيب كان يعطف على الشاعر ويعطيه ، حتى
قال ابن منظور إن الخصيب أعطاه أول يوم ألف دينار ، وأعطاه
مثلاً ثان يوم ، وأعطاه أخرى ثالث يوم ، وقربه الخصيب
إليه ونادمه .

وهذا المدح الذي أنسده أبو نواس للخصيب يشبه مدح المتنبي
لكافور الأخشيدى ، فكلاهما وفد على مصر بسبب النوال والغنى
وإن كان المتنبي قد طمع أكثر مما طمع فيه أبو نواس وكانت
نهاية أيام الشاعرين في مصر تقاد تكون واحدة ، إذا اضطر أبو
نواس أخيراً إلى أن يهجو الخصيب ، وأن يرميه بالبخل ، وقيل
إن سبب هذا الهجاء هو أن أبو نواس كان يكره شراب مصر
وكان الخصيب يخص نفسه بشراب يحمل إليه ، فغضب أبو نواس
وهجاه بقوله :

يخص خصيب بالشراب ويرتجى
لديه نوالاً إن ذا لعجب
وليس خصيب بالخصيب لضيقه
واسكنه وعر المحل جديب

فَنْ كَانَ ذَا أَهْلِ بَمْصُرْ وَثُرُوَةَ
 فَإِنِّي بِهَا صَفَرَ الْيَدِينَ غَرِيبَ
 وَهِجَاهَ مَرَةً أُخْرَى بِقَوْلِهِ :
 نَفْسُ الْحَصِيبِ جَمِيعَهُ كَذَبَ
 وَحَدِيثُهُ جَلِيلُهُ كَرْبَلَةَ
 تَبَكَّى الْثَيَابُ عَلَيْهِ مَعْوَلُهُ
 أَنْ قَدْ يَمْرُرُ ذِيْوَلَهَا كَلْبَ
 وَقَالَ مَرَةً أُخْرَى :

خَبِيزُ الْحَصِيبِ مَعْلُقٌ بِالْكَوْكَبِ
 يَحْمِي بِكَلْمَنْ مَثْقَفٍ وَمَسْطَبٍ
 جَعْلُ الطَّعَامِ عَلَى بَنِيهِ حَمْرَاهَا
 قَوْتَأَ وَحَلَّهُ لَمْ يَسْعَبْ
 فَإِذَا هُمْ رَأَوُا الرَّغِيفَ تَطَرَّبُوا
 طَرَبُ الصَّيَامِ إِلَى أَذَانِ الْمَغْرِبِ (١)

وَهَكَذَا اتَّنَقَلَ أَبُو نُوَاسَ مِنْ مَدْحُ الْحَصِيبِ إِلَى هِجَاهَهُ ، وَيَغْلِبُ
 عَلَى ظَنِّي أَنَّ الْحَصِيبَ لَمْ يَفِ بِوَعْدِهِ لِأَبِي نُوَاسَ ، أَوْ أَنَّ أَبَا نُوَاسَ
 كَانَ يَطْمَعُ فِي أَضْعافِ مَا نَالَهُ مِنَ الْحَصِيبِ ، كَمَا كَانَ الْحَالُ بَيْنَ كَافُورِ
 وَالْمَتَنِي بَعْدَ ذَلِكَ بَقْرَنْ وَنَصْفَ تَقْرِيَّاً .

وَنَجَدَ فِي دِيْوَانِ أَبِي نُوَاسَ بَعْضُ قَصَائِدَ فِي هِجَاهِ هَاشِمِ بْنِ حَدِيدِ

الكندي ، وفي كتاب أخبار أبي نواس عدة أبيات في هجاء معاوية ابن حديج الفيلسوف ، مما يدل على أن أبو نواس كان على صلة ببني حديج الذين كان لهم شأن كبير في تاريخ مصر الإسلامية ، ومؤسس هذه الأسرة في مصر هو معاوية بن حديج التجيبي الكندي ، وقد دخل مصر في جيش الفتح ، وكان رسول عمرو بن العاص إلى الخليفة بشيره بفتح الإسكندرية ، وكان رابع أربعة عينهم عمرو على خطط الفسطاط وبعد مقتل الخليفة الثالث كان ابن حديج زعيم العشانة بمصر ، إذ بايعه المصريون على الطلب بدم الخليفة المقتول ، فقام محمد بن أبي حذيفة واسكن ابن حديج اضطر إلى أن يهرب إلى دمشق ، ثم عاد إلى مصر لافتزاعها من أيدي العلوين ، وهو الذي قتل محمد بن أبي بكر وألقاه في جيفة حمار وأحرقه . كان هذا الرجل رأس أسرة بنى حديج الذين أصبح منهم بعض الأمراء والقضاة كعبد الرحمن بن معاوية ابن حديج الذي خرج ببيعة أهل مصر للوليد بن عبد الملك الأموي وعبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية الذي ول مصر من قبل أبي جعفر المنصور سنة ١٥٢ ، وفي سنة ١٩٠ — وهي السنة التي فيها كان أبو نواس في مصر كما رجحت — صرف عبد الله بن محمد العبامي عن ولاية مصر ، نخرج واستخلف عليها هاشم بن عبد الله بن عبد الرحمن ، وهو الذي هجاه أبو نواس .

أما سبب هذا الهجاء فقد ذكر جامع ديوان أبي نواس أن الشاعر مدح هاشماً فلم يعطه شيئاً في هجاه ، ونقل عن كتاب الروضة للبرد أن هاشماً أراد أن يستبيق أبو نواس عنده في مصر فرفض هذا البقاء

وخرج من مصر يهجو هاشما ويهجو المصريين .

قفوا عشر الراحلين اسمعوا أبنكم عن بنى كنده
 وردننا على هاشم مصره فبارت تجارتنا عنده
 رأيتك عند حضور الخوا نشديدا على العبد والعبد^(١)
 وزراه في هذا الهجاء يغير بنى حديث بقتل محمد بن أبي بكر الصديق .

فإن حديثا له هجرة ولكنها زمان الردة
 وما كان إيمانكم بالرسول سوى قتلكم صهره بعده
 وما كان قاتله في الرجال بحمل لطهرو لارشده^(٢)

وقوله :

يا هاشم بن حديث ليس خرك
 بقتل صهر رسول الله بالسد
 أدرجتم في اهاب العير جشه

فليس ما قدمت أيديك لعد

ولكن يخيل إلى أن هناك سببا آخر لهجائه بنى حديث يضاف
 إلى ما ذكره جامع ديوان أبي نواس ، فقد كانت المنافسة التي بين
 أحمد بن حوى العذري وهاشم بن حديث شديدة جداً ، وتجملت
 هذه المنافسة في قضية أهل الحرس التي تحدثنا عنها ، وكان أبو نواس
 شديد الصلة بابن حوى حتى أن الشاعر هجا كل المصريين إلا
 بن حوى .

(١) ديوان أبي نواس ص ١٣٨ (٢) شرحه ص ١٣٩ .

دم المكارم بالفساطط مسروح
والجود قد ضاع فيها وهو مطروح
يا أهل مصر لقد غبت بأجمعكم
لما حوى قصب العباق المساميح
أموالكم جمة والبخل عارضه —
والنيل مع جوده فيه التماسيح
لولا ندى ابن حوى أحمد نطق
منى المفاصل فيكم والجوارح^(١)
وفي قصيده السينية التي بحجا بها هاشم بن حديج قال :
ما منك سلى ولا أطلالها الدرس
ولا نواطق من طير ولا خرس
يا هاشم بن حديج لو عدلت أبا
مثل القليس لم يعلق بك الدنس
إذ أصبح الملك النعان وافده
ومن قضاعة أسرى عنده حبس
فابتاعهم بإخاء الدهر ما عمروا
فلم ينزل مثلها من مثله أنس
أورحت مثل حوى في مكارهه
هيئات منك حوى حين يتلمس^(٢)

(١) ديوان أبي نواس ص ١٢٧—١٢٨.

(٢) ديوان أبي نواس ص ١٣٩.

ومع ذلك كله فقد عاد أبو نواس إلى نفسه، وذكر نسبة في
اليمنية وأن اليمنية تجتمع بيته وبين هاشم بن حديج ، فعاتب نفسه
واعتذر إلى هاشم عن هذا الهجاء .

أهاشم خذ مني رضاك وإن أني
رضاك على نفسي فغير ملوم
فأقسم ما جاوزت بالشتم والدى
وعرضى وما مزقت غير أديمى
فعذت بحقوى هاشم فأجارنى
كريم أراه فوق كل كريم
وإن امرأ أغضى على مثل زلتى
وإن جرحت فيه لعين حليم
تطاول فوق الناس حتى كأنما
يرون به نجماً أمام نجوم (١)

أما صلة أبي نواس بشعراء مصر، فقد ثنا السيوطي أن أدباء مصر
وشعراءها تسايقوا المصاحبة أبي نواس ، وكتابة شعره ، وكان بينهم
رجل يعرف بالحسن بن عمر الأجهري ، كان شاعراً ضعيف الشأن
فأراد أن يعلى شأنه ، فهجا أبي نواس بقوله

الآن للنواصي الضعيف الحال والقدر
خبرنا منك أحوالاً فلم نحمدك في الخير
وما إن ذدت بالنظر ولكن ذدت بالذكر

وكان هذا الشاعر من أوحش الناس صورة ، فنظر إليه النواسى
وقال بماذا أهجوك ، وبأى شيء أصفك ، وقد سبقنى الله تعالى إلى
توحيد منظرك ، وتبنيع مخبرك ، وهل أكون إن قلت شيئاً إلا
سارقاً من ربِّي ، ومتكلفاً ما قد كفاني . فقال له بعض من معه من
المصريين : على كل حال لا يقول هذا إلا إنه أخْمَك ، فقال النواسى

بما أهجوك لا أدرى لسان فيك لا يجرى
إذا فكرت في هجو لك أبقيت على شعرى

وحدثنا صاحب أخبار أبي نواس قصة دعابة أبي نواس وهو
مع الفتىَان الثلاثة ، وهذا الشعر الذي أنشده في أصحابه هؤلاء ، كل
هذا يدلنا على أنَّ أبي نواس اشتراك مع الشعب المصري في لهوه ومجونه.

لأبي نواس أشعار كثيرة قيلت في مصر ولكنها لم تصل إلينا
فيقول جامع شعره إنَّ لأبي نواس بمصر قصائد لا يعرفها أهل العراق
ويروى ديك الجن وقد دخل مصر بعد أنَّ رَكَّا أبو نواس أنه
وجد للناسى أشعاراً كثيرة منها .

إذا ذُكرت بغداد لي فكأنما تحرك في قلبي شاه سنان
وأوبة مشتاق بغير دراهم إلى أهله من أعظم الحدثان
وروى حمزة الأصفهانى أنه وجد رسالة في شعر أبي نواس وقد
سقط منها الشعر الذى قاله بالشام ومصر ، مع أنَّ المصريين يروون
للناسى أشعاراً كثيرة لم تقع إلى أهل العراق ، قال وقدم علينا
رجل من حمص حافظ لشعر أبي نواس وزعم أنَّ أباً به كان قد لقى
أبا نواس بحمص فكتب عنه قصائد له أنشدها في مصر .

وفي كتاب أخبار الحسن بن هانئ لابن منظور نجد روایات
كثيرة تدلنا على أن أبو نواس كان صديقاً لأحمد بن يوسف المعروف
بابن الداية . ولكنني أعتقد أن أحمد بن يوسف هذا لم يقابل أبو
نواس لأن ابن الداية توفي بمصر بعد وفاة أبي نواس ب نحو قرن ،
أي بعد انتهاء الدولة الطولونية . فقد وهم إذن ابن منظور حين
روى عن ابن الداية أنه كان صديقاً لأبي نواس ، وربما كان أحمد
بن يوسف كاتب العباسين المعروف هو صاحب أبي نواس فوهم
ابن منظور وظن أنه ابن الداية لتشابه اسميهما .

خرج أبو نواس من مصر بعد أن مكث فيها سنة كا ذكر
صاحب أخباره ، وقد هجا مصر والمصريين بالأبيات التي ذكرتها
سابقاً ، ثم زراه يهجو النيل أيضاً .

أضمرت للنيل هجرانا وقليلية إذ قيل لي إنما المساح في النيل

وفي شعر أبي نواس في مصر ، نجد أثر مصر واضحأ قوياً ،
فثلا هو يذكر دائماً قصة (موسى وفرعون) التي كانت في مصر ،
فزراه قد شبه شعره بعضاً موسي تلتف ما يقول غيره من الشعراء .
فقد قيل إن أبو نواس لما دخل لأول مرة عند الخصيف رأى
جاعة من الشعراء أسن منه ، فطلب من الخصيف أن ينشدوا قبله ،
فلا أنشدوا تبسم أبو نواس وقال : أنشدك أنها الأمير قصيدة هي
بمنزلة عصى موسي تلتف ما يفكرون ، ثم أنشده قصيده الرائية
وفيها يقول :

وأطرق حيات البلاد حية خصيبيه التصميم حين تصور

ومدح الخصيـب مـرة أخـرى بـقوله :

حيـة تـصرـع الرـجـال إـذـا مـا صـارـعـوا رـأـيـه عـلـى الأـذـقـان

وـحدـرـ المـصـرـيـن مـنـ الـاسـتـمـرـارـ فـيـ الـفـتـنـةـ وـالـثـورـةـ بـقولـهـ :

مـنـحـتـكـ يـاـهـلـ مـصـرـ نـصـيـحـتـيـ أـلـاـ خـذـواـ مـنـ نـاصـحـ بـنـصـيـبـ

فـيـانـ يـكـ باـقـ اـفـكـ فـرـعـونـ فـيـكـ

فـيـانـ عـصـىـ مـوـسـىـ بـكـفـ خـصـيـبـ

رـمـاـكـ أـمـيـرـ الـمـؤـمـنـيـنـ بـحـيـةـ أـكـولـ لـحـيـاتـ الـبـلـادـ شـرـوبـ

وـلـأـكـادـ أـعـرـفـ لـأـبـيـ نـوـاـشـ شـعـرـآـ فـيـ هـذـاـ الـمعـنـىـ أـنـشـدـهـ فـيـ غـيرـ

مـصـرـ مـاـ يـدـلـ عـلـىـ أـنـ هـذـاـ الـمـعـنـىـ مـنـ أـثـرـ مـصـرـ فـيـ شـعـرـ أـبـيـ نـوـاـشـ ،

ثـمـ ذـكـرـ النـيلـ مـرـارـآـ وـمـاـ بـهـ مـنـ التـماـسـيـحـ ، وـهـوـ مـعـنـىـ مـصـرـ لـاـ يـتـائـقـ

لـشـاعـرـ لـمـ يـرـ النـيلـ ، وـمـاـ بـهـ مـنـ التـماـسـيـحـ .

٠٠٠

وـوـفـدـ عـلـىـ مـصـرـ أـيـضـاـ الشـاعـرـ الـهـجـاجـ دـعـبـلـ بـنـ عـلـىـ الـخـزـاعـىـ طـمـعـاـ

فـنـوـالـ أـحـدـ أـقـارـبـهـ الـمـطـلـبـ بـنـ عـبـدـالـهـ الـخـزـاعـىـ وـالـىـ مـصـرـ ، وـمـدـحـهـ

دعـبـلـ أـولـاـ بـقـصـيـدـهـ الـتـىـ فـيـهـ :

أـبـعـدـ مـصـرـ وـبـعـدـ مـطـلـبـ تـرـجوـ الغـنـىـ إـنـ ذـاـ مـنـ العـجـبـ

إـنـ كـاثـرـوـنـاـ جـتـنـاـ بـأـسـرـتـهـ أـوـ وـاحـدـوـنـاـ جـتـنـاـ بـمـطـلـبـ

فـوـلـاهـ الـمـطـلـبـ إـقـلـيمـ أـسـوانـ فـكـثـ بـهـ أـيـامـاـ وـلـعـلـهـ لـمـ يـرـضـ

نـالـهـ فـغـضـبـ ، وـلـمـ يـنـجـ المـطـلـبـ مـنـ هـجـانـهـ إـذـ قـالـ فـيـهـ :

أـمـطـلـبـ أـنـتـ مـسـتـعـدـ حـمـياـ الـأـفـاعـىـ وـمـسـتـقـبـلـ

وـعـادـيـتـ قـوـمـاـ فـاـ ضـرـهـ وـشـرـفـتـ قـوـمـاـ فـلـمـ يـنـبـلـوـاـ

فـاضـنـطـرـ الـوـالـىـ إـلـىـ أـنـ يـعـزـلـهـ وـكـانـ الـمـطـلـبـ يـقـولـ كـلـاـ قـابـلـ دـعـبـلـ

ما تفكرت في قوله فقط ، وإن كانوا جنبا بأمره ، إلا كثيرون
الناس إلى ، ولا تفكرت والله في قوله ، وعاديت قوما ، إلا كثيرون
بعض الناس إلى (١)

وحدث أنه عزل المطلب عن مصر فلم يقبل أن يسلها لمن خلفه
فتحار با فانهزم المطلب واضطرب إلى أن يفر إلى مكة فقال دعبل في ذلك :
فكيف رأيت سيف الحريش ووقيعة مولى بنى ضبة
أحجتك أسيافهم كارها وما لك في الحج من رغبة (٢)
يريد بمولى بنى ضبة السرى بن الحكم الوالى الذى جاء بعد المطلب
ولقد سعدت مصر سنة تسعه وتسعين ومائة بوفود الإمام محمد بن
إدريس الشافعى على مصر بصحبة عبد الله بن الوالى العباس بن
موسى وقيل إن الشافعى قدم مصر بعد أن أحس بالشر فى بغداد ،
فقد اشتتدت الفتنة فى إظهار القول بخلق القرآن فهرب من بغداد
إلى مصر (٣) ومهما يكن السبب الذى جاء من أجله الشافعى إلى مصر
فإنما أقام بها ناشرا لآرائه وعلمه ملازملا للاشتغال بجامع عمرو
بزواية الخشائية التى عرفت به (٤) .

كان الشافعى شاعرا ويحدثنـا السيوطي أن الشافعى اجتمع بعد
الله بن هشام صاحب السيرة وتناشدـا من أشعار العرب أشياء
كثيرة (٥) ومع ذلك فالشافعى كان يتم بالفقه أكثر من اهتمامه
بالشعر ولأنه كان يقول :

(١) تراجع أخبار دعبل يعمر ج ١٨ ص ٤٨ من كتاب الأعاني .

(٢) الولاة والقضاة لـ لكندى ص ٦٦ .

(٣) نبرات الأوراق مطبوع على هامش محاضرة الأدباء ص ٤٤ .

(٤) الانتصار بواسطة عقد الأمصار لابن دقاق ج ٤ ص ١٤٠ .

(٥) حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٠٦ .

ولولا الشعر بالعلماء يزري لكنتاليومأشعرمنليد^(١)

كان مجىء هؤلاء الشعراء إلى مصر من العوامل التي ساعدت روح الشاعرية المصرية وأيقظت ما كن منها ، ومن الجائز أن بعض الشعراء المصريين كانوا يحاولون تقليد الشعراء الوفدين ، وقدرأينا كيف كان يجتمع المصريون في المسجد الجامع لاستماع شعر أبي نواس وكيف اهتموا به ، فهذا يدل على نمو الروح الأدبية في مصر وتطورها .

شعراء مصريون راحلون

يمتاز هذا العصر أيضاً بظهور شعراء مصريين ، أو من أخذوا بحظ من الثقافة في مصر ، وقضوا فيها شطراً من حياتهم الأولى ، ثم غادروها إلى مقر الخلافة ، حيث اتصلاً بال الخليفة ورجاله ، ومع أننا نستطيع أن نسمى هؤلاء الشعراء المصريين أو متصرفين — إن صح هذا التعبير — فإن شعرهم اصطبغ بصبغة البلاد التي حلوا بها فلم يعد لهم أية صلة بمصر ، ولذلك لا يعدهم الأدباء من المصريين ، فشاعر كأبي تمام مما قيل عن أصله وموالده ، فلا شك أنه جاء مصر وهو صغير ، وكان يسقى الماء في المسجد الجامع ، وجالس الأدباء والعلماء في مصر ، وحفظ في مصر الآلاف من الأراجيز والقصائد التي ساعدته على تهيئة ملحة الاختيار من شعر العرب ، وجعلته يجمع منها حماسته ، وفي مصر قال أبو تمام أول شعره ، وما زال في مصر حتى شاع ذكره فبلغ الخليفة العباسي المعتصم خبره

(١) راجع ما كتبناه آنفاً عن الشافعي .

فاستقدمه وأحسن إليه^(١) ومكث أبو تمام بالعراق وخراسان حتى
آخر أيام حياته .

لم يكن أبو تمام مصرى المولد ولكنه قضى شطرا من حياته فيها كا قضى أكثر أيام حياته بعيدا عنها ، ومع ذلك فالصريون يعتبرونه واحدا منهم بل يغالون ويدعون أنه شاعرهم الأكبر ، ويفخرون به حتى عده الكندى أحد فضائل مصر (٢) وذلك لنبوغه وشهرته الواسعة وكثرة الشعر الذى أنشده ، ولعله أول رجل تخرج في المدرسة المصرية تروى له هذا العدد الكبير من القصائد .

وحياة أبي تمام في مصر غامضة أشد الغموض فلم تصلنا أخباره
ولا نعرف شيئاً عن أستاذة الذين أخذ عنهم ، ويغلب على ظني
أن أبو تمام قد استمع إلى هذه الدروس التي كانت تلقى في حلقات
المسجد الجامع بالفسطاط ، وكان في ذلك الوقت الشافعى وابن
هشام روای السيرة وابن عبد الحكم والليث بن سعد ، ممن يلقون
علومهم في هذه الحلقات ، ولعل أبو تمام قد أدرك سعيد بن عفیر
والملعى الطافى ويحيى الخولاني والحسين بن الجل الأكبر ويوسف
السراج وغيرهم من شعراء مصر في هذه الفترة ، فاستفاد مما سمعه من
علوم أولئك وشعر هؤلاء حتى نمت ملكة الشعر عنده فأنشد هذا
الشعر الذى استطاع به أن يحمل شعراء عصره .

وأول ما نعرفه عن تكبيه بالشعر في مصر فهو اتصاله

(١) حسن المخاضرة لابن عطاء ج ١ ص ٣٢٢.

(٢) فضائل مصر لــكتاب نسخة خطية بدار السكتب المصرية رقم ٤٢٢ :اربعين .

بعياش بن هعيه والتاريخ لا يذكر عياشا إلا أنه كان صاحب الشرطة في مصر سنة ٢٠١ هـ وأن أباه هو القاضي هعيه بن عيسى الحضرى الذى ولى القضاء مرتين الأولى سنة ١٩٦ هـ إلى أن عزل سنة ١٩٨ هـ . ثم ولها مرة أخرى في المحرم سنة ١٩٩ وظل في منصبه إلى أن توفي سنة ٤٢٠ هـ ، أما ابنه عياش فقد انقطعت أخباره ولا نعلم عنها شيئاً ، وينظر الرواة أن أبا تمام أول ما قال الشعر فهو في عياش .

تفى جحاتى لست طوع مؤبى
وليس جنبي إن عذلت بمصحبى
فلم توقدى سخطا على متنصل
ولم تنزلى عتابا بساحة معتب
رضيت الهوى والشوق خدنا وصاحبنا
فإن أنت لم ترضى بذلك فاغضبى
إلى أن يقول :

تركت حطاما منكب الدهر إذ نوى
زحامي لما أن جعلتك منكبي
وما ضيق أقطار البلاد أضافى
إليك ولكن مذهبى فيك مذهبى
وأنت بمصر غايتك وقرابتك
بها وبنو الآباء فيها بنو أبي
ولا غرو أن وطأت أكنااف مرتعى
لهمعل أحفاضى ورفعت مشربي

فقومت لى ما أتعوج من قصد همتى
ويضت لى ما أسود من وجه مطلي
فاعطاه عياش وأجزل مكافأته ، وظل الشاعر متصلًا بعياش
إلى أن فسد ما بينهما فنرى الشاعر حينا يعاتبه وأخرى يهجوه حتى
مات عياش . ولا ندرى سبب هذا التحول من المدح إلى الهجاء إلا
ما يرويه ابن عبد ربه أن أبو تمام استخلف عياشا ماتى مثقال فشاور
فيه زوجته فقالت « هو شاعر يمدحك اليوم وبهجوك غدا فاعتقل
عليه واعتذر إليه ولم يقض حاجته »^(١) فعاتبه أبو تمام بقصيدة له
التي أولها :

صدقَتْ هُنْيَا قلبي المستهتر فبقيتْ نَهْبَ صِبَابَةٍ وَتَفَكِّرَ
وَالَّتِي يَقُولُ فِيهَا :

الفطر والأضحى قد اسلخا ولی
أمل بيابك صائم لم يُفطر
حول ولم يفتح نداك وإنما
تتوقع الخبر لتسعة أشهر
حش لي بحر واحد أغرقك في
مدح أجيال له بسبعين أحمر

ويفهم من شعر أبي تمام أن بعض القوم سعوا به عند عياش ،
ومن يدرى لعل بعض شعراء مصر حسدوه هذا الشاب على صلته
بالأمير ، فأوقعوا بينهما مما أدى الشاعر إلى أن يقول .

أظن عندك أقواما وأحسهم
لم يأتلوا في ما أعدوا وما ركبوا
يرهون بيون حشوها شزر
نواطق عن قلوب حشوها مرض
لولا صيانة عرضى وانتظار غد
والكمزم حتى على الدهر مفترض
ما فككت رقاب الشعر عن فكري
ول라 رقامهم إلا وهم حيض
ولكن العلاقة بين عياش وأبي تمام فسدت نهائيا فهجاه الشاعر
بعدة قصائد منها قوله :

النار والعار والمكره والعطب
والقتل والصلب والمران والخشب
أحلى وأعذب من سيل تجود به
ولن تجود به يا كلب يا كلب
ويتوعده مرة أخرى بقوله :

ولأشهرن عليك شنع أوابد
يحسبن أسيافا وهن قصائد
فيها لاعناق اللئام جوامع
تبقى ، وأعناق الكرام قلائد
يلزمن عرض قفاك وسم خزالية
لم يخزها بأبي عينة خالد

وظل يهجو عياشا إلى أن مات عياش فلم يتورع أمام الموت
يل هجاه بقصيدة منها .

فَكَتْ أَكْفَ المَوْتُ غَلَ قَصَانِدِي
عَنْهُ وَضَيْغَمَاهَا عَلَيْهِ يَزِيرُ
مَا زَالَ غَلَ المَوْتُ ثَانِي عَطْفَهُ
حَتَّى أَتَاهُ الْمَوْتُ وَهُوَ أَسِيرٌ
مِنْ بَعْدِمَا نَزَهَتْ فِي سَوْءَاتِهِ
حَسَنَاتِ شَعْرٍ بَحْرَهُنْ بَخْسُورٌ
يَا خَلْقَةَ اللَّهِ الَّتِي مِنْ طَرْزِهَا
نَشَـآ فَكَانَ الْقَرْدُ وَالْخَنْزِيرُ

لم يحفظ لنا التاريخ شيئاً عن علاقة أبي تمام بشعراً مصري هذا
الورقت إلا ما رواه ابن رشيق صاحب العمدة إنـ أبو تمام هاجـي
السراج (١)، وما جاء في الوساطة، وما عدـوتـ في هذا الفصل قضـية
أبي تمام ولا خرجـتـ عن شـرطـهـ أنـ يقولـ في يوسف السراجـ شـاعـرـ
مـصـرـ فـيـ وـقـتهـ

فلو نبش المقابر عن زهير لعول بالبكاء وبالتحبب
متى كانت معانيه عيالها على تفسير بقراط الطبيب
وكيف ولم يزل للشعر ماء يرف عليه ريحان القلوب (٢)
ويفهم من هذا أنه كانت هناك منافسة فنية في الشعر بين شاعر
مصر يوسف السراج وبين أبي تمام وأن أبو تمام كان يعيّب على السراج

فنه وشعره ، فهو يأخذ على شاعر مصر معانيه الفلسفية التي لم تعرف
عند زهير أى عند القدماء كما يأخذ عليه الغريب والتعقيد في شعره
بينما الشعر في نظر أبي تمام يجري كلامه السلس الذي يرف عليه ريحان
القلوب ، والغريب أن أبو تمام الذي ينقد شاعر مصر على هذا التحو
هو نفسه من أشد الشعراء إغراقاً في التعقيد المعنوی واللفظی ، ومن
أكثر الشعراء استعمالاً للغريب فهل نستطيع أن نقول إن فن أبي
تمام هو آخر من آثار مصر .

ونرى أن أبو تمام يتصل بالأمير عبد الله بن طاهر حين قدم مصر
وهرم عبيد الله بن السري الثائر بمصر سنة ٥٢٤ ومدحه بقصيدة منها

لعمري لقد كانت بمصر وقيمة

أقامت على قصد الهوى كل مائل

على الخندق الأقصى وما كان حوله

وما قد يليه من فضاء وساحل ^(١)

وأنشد أبو تمام شعراً في الحروب التي كانت بمصر في هذا العهد
من ذلك قصيده في رثاء عمير بن الوليد الذي قتل يوم الثلاثاء لثلاث
عشرة من ربيع الآخر عام أربعة ومائتين وقد قتل في حرب بينه
 وبين أهل الحوف وفي هذه القصيدة ظهر أثر حفظه للأشعار ولعادات
الجاهلية من بكاء على الميت ولطم الخندود ، وهي نفس عادات
المصريين التي لم يشر إليها الشعراء المصريون وإنما تشاهد كل يوم
أعيدي للنوح معلولة أعيدي وزيدى في بكائنك ثم زيدى

(١) الولادة لا - كندى س ١٨١

خوامش للنحور وللخدود
وقال لأعين الثقلين جودي
غداة ثوى عمير بن الوليد
ألا رزئت خراسان فتاهما
ألا رزئت بمسئول منيل
بحيث حللت من حفر الصعيد
بنفسى أنت من ملك رمته منيته بسمهم ردى سديد
واستمر في بكائه وتحيه ثم انتقل إلى ذكر الميت فوصفه بالشجاعة
في القتال والجود والسخاء .

ويا يوم الثلاثاء اعتمدنا بفقد فيك للسندي العميد
فكم أختت علينا من عيون وكم أغثت علينا من جدود^(١)
ضاق أبو تمام ذرعا بما هو فيه من فقر وإملاق وكان يطمع في
المال السκثير :

لقد طلعت في وجه مصر بوجه
وساوس آمال ومذهب همة
نجيمة بين المطية والرجل
نأيت فلام حويت ولم أقم فامتع إذ بعثت بالمال والأهل
لشام طعام أو كرام بزعمهم

سواسية ما أشبه الحول بالقبل^(٢)

واضطر إلى أن يرحل من مصر غير آسف على فراقها وإن حن
إليها بعد خروجه منها فذكر إخوانه بالفسطاط

(١) الكندي من ١٨٦ وديوان أبي عام (طبعه محمد جمال ترخيص نظاره
ل المعارف بغرة ٤١٣) والجزء الخامس من نهاية الأربع من ٢٠٤ .

(٢) ديوان أبي عام من ٤٢١ .

بالشام أهلی وبغداد المھوی وأنا
بالرقتین وبالفسطاط إخوانی
وما أظن النوى ترضی بما صنعت
حتی تشفافه بی أقصی خراسان
خلفت بالأفق الغربی لی سکناً
قد کان عیشی به حلو آ محلوان^(۱)

مانی الموسوس:

وهناك شاعر آخر يختلف عن أبي تمام اختلافاً تاماً ذلك هو محمد بن القاسم ويكنى بأبي الحسين ، ويعرف بـأبي الموسوس لأنـه كان بعقلـه شيء من الجنـون ، هذا الرجل مصرـي المولد والنشأة ، لكنـه خرجـ من مصرـ ولمـ نعرف متـى خرجـ ، إذـ لمـ نعثـر على شيءـ منـ أخبارـه غيرـ أنـ أبو الفرجـ يـحدثـنا أنـ هذا الشاعـر « قـدم مدـينة السلامـ ولـقيـه جـمـاعةـ منـ شـيوـخـناـ مـنهـمـ أبوـ العـباسـ بنـ عـمارـ وـأـبـوـ الـحـسـنـ الأـسـدـيـ وـغـيرـهـماـ (٢)ـ وـقـدـ وـصـفـهـ أـحـدـ الـأـدـيـاءـ مـحـمـدـ بنـ عـبـدـ اللهـ بنـ طـاهـرـ وـقـدـ طـلـبـ أـحـدـ لـمـنـادـمـتـهـ فـقـالـ لـهـ :ـ قـدـ خـطـرـ يـبـالـيـ مـنـ لـيـسـ عـلـيـنـاـ بـمـنـادـمـتـهـ ثـقـلـ ،ـ قـدـ خـلاـ مـنـ إـبرـامـ الـجـالـسـينـ ،ـ وـبـرـىـءـ مـنـ ثـقـلـ الـمـؤـانـسـينـ ،ـ خـفـيفـ الـوـطـأـ إـذـاـ دـنـيـتـهـ ،ـ سـرـيعـ الـوـبـةـ إـذـاـ أـمـرـتـهـ (٣)ـ .ـ

لم يصلنا عن هذا الرجل سوى أخبار في جنونه ، وأبيات قليلة
بعضها في كتب الأدب تحملنا عن القول بأن الشاعر كان كلفا
بالغزل ووصف مجالس الخمر واللهو ، وبرع في هذه الفنون ، وقد

(١) شرحه ص ٣٢٦ (٢) الأغاني ج ٢٠ ص ٨٤ .

(۳) ذبیل ان خلکان ج ۲ ص ۲۶۲ .

تأثر بالقدم فوقف على الديار وبقى الأطلال . وكان يحفظ كثيرا من الشعر ويرويه لأبي العباس ابن عمار وهذا يكتب عنه ، قال ابن عمار (١) كان « مان » يألفنى ، وكان مليح الإنشاد حلوه ، رقيق الشعر غزله ، فكان ينشد في الشيء ثم يخالط فيقطعه ، وكان يوما جالسا إلى جنبي فأنشدني للعريان البصري قوله :

ما أنسفتك العيون لم تكف

وقد رأيت الحبيب لم يقف

إلى آخر القصيدة فسألته أن يعليها على فعل ، ثم قال : أكتب فعارضه أبو الحسين المصري يعني مانا نفسه فقال :

أفتر معنى الديار بالنجف

وحلت عما عهدت من لطف

طويت عنها الرضا مذمة

لما انطوى غصن عيشها الألف

حللت عن سكرة الصباية من

خوف إلهي بمعرك قذف

ستمت ورد الصبا فقد يبست

مني بنات الخدور والخذف

سلوت عن نهد نسين إلى

حسن قوام واللحظ في وطف

وتوفي هذا الرجل سنة خمس وأربعين ومائتين .

لحمة عن أشهر الشعراء في ذلك العصر

١ - سعيد بن عفیر

هو سعيد بن كثير بن عفیر بن مسلمة بن يزید بن الاسود الانصاری
ويکنی بابی عثمان ، ولد بمصر سنة ست وأربعين و مائة ، وأتم علوه
الدینیة بمصر ، ثم رحل إلى بغداد فالمدينة حيث سمع الموظمن الامام
مالك وعاد إلى مصر فروى الحديث عن الليث بن سعد ، وابن هبیعه ،
وصار أحد المحدثین الثقة ، وعنہ أخذ البخاری والنسافی ، وابن عبد
الحکیم وبکار بن قتیبه وغيرهم^(١) وأخذ بحظ وافر من العلوم الأدیة
فدرس علم الأنساب والتاريخ وحفظ أيام العرب وما ثرها ووقايتها ،
والمناقب والمثالب ، وكان في ذلك كله علماً كبيراً « وكان أديباً فصیح
اللسان حسن البيان ، لا تمل مجالسته . ولا ينزف عليه ، ويقال إن
مصر لم تخرج أجمع للعلوم منه »^(٢) وكان عبد الله بن طاهر يقول :
رأیت بمصر من عجائب الدنيا ثلاثة أشياء ، النيل والهرمين ، ابن
عفیر^(٣) . وبجانب هذا كله كان الشاعر ذكيأ سریع البديهة ، حاضر
الجواب فقد حدثنا ابن زولاق أن المأمون لما قدم مصر سنة سبع عشرة
ومائتين جلس بقية الهواء وبخضرة سعيد بن عفیر ، فقال المأمون :
لعن الله فرعون حيث يقول : أليس لي ملك مصر ، فلو رأى العراق
وخصبها !!!، فقال سعيد بن عفیر : يا أمیر المؤمنین لا تقل هذا فإن الله

(١) حسن المعاشرة في مواضع منفرقة ، ومسالك الأبصراء للعمري في باب
المحدثین (نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية) .

(٢) تهذیب التهذیب ج ٤ ص ٧٤ . (٣) البلدان للمهدانی ص ٦٨ .

عزوجل قال : « ودمروا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا
يعرشون ، فما ذنك يا أمير المؤمنين بشيء دمره الله هذا بقيته !! ١) . »

وبحديثنا السيوطي ٢) أن ابن عفيف وللنكتي لم أجد له
ذكرآ بين القضاة في كتاب النكتي ، ولا في رفع الإصر عن قضاة
مصر لابن حجر العسقلاني ، ولكنـه كان صديقاً للقضاة ، وكـانوا
يرجعون إليه في كثير من المسائل الفقهية ، ويـثـقـونـ بشـاهـادـتـهـ ،ـ كـاـكـانـ
أـحـدـ الـذـيـنـ جـعـلـ إـلـيـهـ التـحـكـيمـ فـيـ قـضـيـةـ أـهـلـ الـحرـسـ الـتـىـ مـرـ ذـكـرـهـ ،ـ كـاـكـانـ
كـاـكـانـ لـهـ رـأـيـ فـيـ اـخـتـيـارـ قـاضـيـ مـصـرـ سـنـةـ اـلـثـنـيـ عـشـرـ وـمـاتـيـنـ ،ـ فـقـدـ
قـبـلـ إـنـ عـبـدـ اللـهـ بـنـ طـاهـرـ أـمـرـ يـاـخـضـارـ وـجـوـهـ أـهـلـ مـصـرـ ،ـ فـخـضـرـ عـدـدـ
كـبـيرـ بـيـنـهـمـ سـعـيدـ بـنـ عـفـيـفـ ،ـ فـطـلـبـ إـلـيـهـ اـبـنـ طـاهـرـ أـنـ يـخـتـارـ وـاـقـاضـيـاـ
مـنـ بـيـنـهـمـ ،ـ فـرـشـحـ بـعـضـهـمـ أـصـبـغـ بـنـ فـرجـ الـفـقـيـهـ الـعـالـمـ ،ـ فـعـارـضـهـ سـعـيدـ
ابـنـ عـفـيـفـ وـقـالـ :ـ لـيـسـ هـذـاـ الرـجـلـ كـاـوـصـفـ ،ـ هـذـاـ رـجـلـ بـذـىـ طـوـيلـ
الـلـسـانـ ،ـ وـسـجـعـ سـعـيدـ فـيـ وـصـفـهـ .ـ فـقـامـ أـصـبـغـ فـقـالـ :ـ إـنـ الـأـمـرـ أـمـرـ
أـنـ حـضـرـ فـيـ مـجـلـسـهـ الـفـقـهـاءـ وـأـهـلـ الـعـلـمـ لـاـ الشـعـرـاءـ وـلـاـ الـكـهـنةـ ٣) .ـ

ـ مـنـ هـذـاـ الـحـدـيـثـ نـسـطـطـيـعـ أـنـ نـدـرـكـ أـنـ اـبـنـ عـفـيـفـ عـرـفـ بـيـنـ مـعـاصـرـهـ
ـ وـهـجـاهـ خـصـومـهـ بـذـلـكـ .ـ

ـ اـتـصـلـ اـبـنـ عـفـيـفـ بـالـحـوـادـثـ الـتـىـ كـانـتـ فـيـ عـهـدـهـ ،ـ وـأـنـشـدـ الـشـعـرـ
ـ فـكـلـ الـاضـطـرـابـاتـ الـتـىـ كـانـتـ فـيـ مـصـرـ إـذـ ذـاكـ ،ـ لـاـسـيـماـ مـاـ كـانـ مـنـهـ

(١) فضائل مصر وأخبارها لابن زولاق (نسخة خطية بـمـكـتبـةـ الـأـزـهـرـ) .ـ رقم ٦٦٩ .ـ

(٢) حـسـنـ الـحـامـرـةـ جـ ١ـ صـ ١٦٨ـ (٣) القـضاـةـ الـنـكـنـيـ صـ ٤٣٤ـ .ـ

بین سنة ثمان و سنتين و مائة و سنتة تسعة و مائتين وقد ظهر في شعره روح العصبية العربية وقد ذكرنا صوراً من شعره في ذلك .

وكان ابن عفیر رجلاً كریم النفس لم يتملق رئيساً ، ولم يمدح أميراً بقصد العطاء ، فلم يتکسب بشعره كغيره من الشعراء ، بل بالعكس من ذلك ، نراه قد هجا الوالى المطلب الخزاعي ومدح معارضه هبيرة ابن هاشم ، ورثا أباً بشر الانصارى الذى قتله الوالى ^(١) .

لم يصلنا كل شعر هذا الرجل وإنما هي مقطوعات قصيرة صغيرة ، لا نستطيع أن نعرف منها شاعريته ، ولا أدرى كيف قال الأستاذ « جيست » أن رثاء ابن عفیر أرق ما وصل إليه الشعر العربي في كتاب الكندي وأجمله ^(٢) . ولكن الأستاذ « جيست » كغيره من المستشرقين لا يستطيعون أن يتذوقوا الشعر العربي مما بلغ عليهم وثقافتهم في العلوم العربية ، لأن ذوقهم الفنى متاثر بالبيئة التي هم فيها ، وخاضع لأنواع الحياة التي يحيونها ، وهى تختلف تمام الإختلاف عن البيئة والحياة العربية ، والذوق لا يأتي بالعلم والدرس فقط بل هو خاضع قبل كل شيء لما يحيط بالناقد من ضروب الحياة ، فالمستشرق يستطيع أن يحكم على شعر أنشد بلغته وقد يكون دقيقاً في حكمه ، حكيمياً في نقاده ، ولكن لا يستطيع أن يحكم على شعر عربي لبعده من بيته هذا الشعر ، ثم إن الأستاذ جيست قد حكم على الشاعر بهذه المقطوعات القصيرة الصغيرة ، وهى عندي لاتکفى لأن تربينا رقة الشعر وجماله ، فالناقد لا يحكم على شاعر بقصيدة قاطعاً ، وإلا كما كالمقدماء الذين كانوا يفضلون شاعر أعلى آخر لبيت قاله حتى سخر منهم مروان

(١) الكندي ص ١٥٦ . (٢) الكندي ص ٤٣ .

ابن أبي حفصة فقد قيل إنه كان يروى شعراً لزهير ، وقال زهير والله أشعر الناس ، ثم أنشد للأعشى ، وقال الأعشى ، أشعر الناس ثم أنشد لامرئ القيس وقال امرؤ القيس أشعر الناس ، ثم ضحك وقال : والناس والله أشعر الناس .

ومهما يكن من شيء فإن ابن عفیر لم يكن شاعرًا فحسب ، فقد كان عالماً محدثاً وفقيراً ، وأظن أن علم الرجل يفسد في كثير من الأحيان شعره إذا أخضع فنه لعلمه ، ويخرجه من الشعر الطبيعي إلى الشعر القريب من النظم ، لأن الشاعر العالم يخضع لعقله أكثر مما يخضع لعواطفه وشعوره . أما إذا استطاع أن يخضع علمه لفنه فإنه نستطيع أن نتذوق الشعر الفنى القوى الذى لا يدارنه شعر آخر .
وتوفي سعيد بن عفیر كما قال الذهبي سنة ست وعشرين ومائتين ^(١) .

٢ - المعلى الطافى

لا نعرف عن هذا الشاعر إلا شيئاً قليلاً ، ولم يتحدث عنه المؤرخون إلا بقدر لا يسمح لنا أن نعرف شخصيته ، وكل ما نعرفه أنه كان معاصرًا لابن عفیر ، ولكنه لم يبلغ من العلم ما بلغه صاحبه ، ويخيل إلى أنه انقطع إلى الشعر والتكمب به ، ذهنه قد مدح الولاية ، واتصل بهم جميعاً ، ودافع عن سياستهم ، وهجا عدامتهم ، فكان كغيره من الشعراء المادحين المتكتسين بشعريهم ، ماء وكان يمدح الوالي فإذا عزل الوالي يمدح من يأتي بعده ، وقد رأينا أنه مدح المطلب الخزاعي وابن السرى ، ويحدثنا ابن سعيد في كتابه

(١) تاريخ الاسلام للذهبي نسخة خطية بدار الكتب المصرية .

«المغرب في أخبار المغرب»، أن المعلى من عاصر أبو نواس^(١)، فمن الجائز أن يكون قد اتصل بأبي نواس لما وفد هذا على مصر، ولكن لا نعلم تماماً مدى هذا الاتصال إذ لم يصلنا شيء من أخبارهما ويرى ابن سعيد هذه الآيات الشهيرة للمعلى:

لولا بُنَيَّاتْ كَرْبَلَةِ
جَعْنَ مِنْ بَعْضِ إِلَى بَعْضِ
لَكَانَ لِي مَضْطَرْبٌ وَاسِعٌ
فِي الْأَرْضِ ذَاتِ الطُّولِ وَالْعُرْضِ
وَإِنَّا أَوْلَادَنَا يَنْتَسِي
أَكَادَنَا تَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ
إِنْ هَبَتِ الرِّيحُ عَلَى بَعْضِهِمْ أَشْفَقَتِ الْعَيْنِ مِنْ الغَمْضِ^(٢)

ولكن أبو تمام في حماسته ينسبها لحطان بن المعلى^(٣)، ورواهما ابن عبد ربه منسوبة إلى المعلى^(٤) ولا أستطيع أن أجزم ملن هذه الآيات وإن كنت أميل إلى الأخذ بقول أبي تمام لأنه كان معاصر المعلى.

ويخيل إلى أن المعلى الطافى كان صاحب له ومجون. ولعل هذه الآيات القليلة التي روتها أبو الفرج في الأغاني تؤيد أن المعلى كان يشرب الخمر كما كان يشربها كثير من الشعراء فهو يذكر الخمر بقوله:

باكر صبحك صبحة التلوز
واشرب بكأس متزع وبكوز

(١) المغرب ص ١٠١ (٢) شرحه

(٣) ديوان الحماسة ص ١٠١ مطبعة السعادة سنة ١٩١٣.

(٤) العقد الفريد ج ١ ص ٣٦٤.

ضحك الريح إليك عن نواره
آس ونسرين ومرماحوز^(١)

٣ - الجمل الأكبر :

اسمه الحسين بن عبد السلام ، ويعد في طليعة شعراء هذا العصر
فقد اكتسب شهرة فائقة في دولة الشعر ، واتصل بكثير من الأمراء
والقضاة ، ولد سنة سبعين ومائة ، وتلقى العلم بمصر حتى إذا وفد
الشافعى على مصر ، صحبه الجمل وأخذ عنه ولا نعلم شيئاً عن حياة
هذا الرجل أيضاً ، سوى أنه كان يتكسب بشعره ، فدح الولاة
وغيرهم ابتغاء الأموال والهبات ، فقد مدح المؤمن بمصر ، كما مدح
عبد الله بن طاهر ، وأكثر مدائحه التي وصلتانا أنشدها في مدح
القاضى محمد بن أبي الليث ، وظل الشاعر يعرض شعره على الأمراء
حتى كان ابن المدبر فاتصل به ، ثم اتصل بأحمد بن طولون ، وخصص
فأتخذه شاعره ونديمه ، وعرف عن الجمل شره في الطعام ، وقد ذكر
ثوب ودناءة النفس^(٢) ولست أدرى كيف نعته ابن يونس بهذه
صفات ، في حين أننا نجد الجمل يقول في إحدى قصائده :

إذا أظلمتك أكف اللثام كفتك القناعة شيئاً وريباً
فكن رجلاً رجله في الثرى وهامة همة في الثريا
أيا لسائل ذى ثروة تراه بما في يديه أيا
فان إراقة ماء الحياة دون إراقة ماء الحياة^(٣)

(١) الأغافى ج ١٧ ص ١٢٧ (٢) معجم الأدباء لياقوت ج ٤ ص ٧٦

(٣) شرحه

ومن الجائز أن الجمل كان من الشعراء الذين يقولون مالا يفعلون . وعرف الجمل بشيء من الظرف ، وشهد له بذلك ، فان ابن سعيد في حديثه عن الجمل الأصغر قال : لقبه كلب الأكبر وكذلك اسمه ، وكان ينحو في الظرافة والتطايب منحاه ،^(١)

وكما عرف الجمل بالمدح فقد عرف بالهجاء ، فقد روى أن الحسين بن عبد السلام بكر إلى سليمان بن وهب عامل الخراج بمصر ، فلم يمكنه الحاجب من الدخول ، وأدخل شاعرين آخرين هما ابن شعوة وحمدوه ؛ فلم يستطع الجمل صبراً ، وأرسل إلى سليمان أبياتا منها :

ولعمرى لئن حجبنا عن الشیـخ فلا عن وجه هناك وجـه
لا ولا عن طعامه التافـه النـز ر الذى حوله لـظام بنـيه
بل حـجبـناـ بهـ عنـ الخـسـفـ وـالـمـسـيـخـ وـذـاكـ التـبـرـيقـ وـالـتـورـيـهـ
جزـىـ اللهـ حاجـباـ فـظـاـ كلـ خـيرـ عـنـاـ إـذـاـ يـجـزـيـهـ^(٢)
وقد روينا له أبياتا كثيرة عن الحوادث التي كانت بمصر في ذلك العصر وتوفي هذا الشاعر سنة ثمان وخمسين وما ماتين من الهجرة

(١) المغرب ص ٩٠٢ (٢) المعد الفريد ج ١ ص ٤١

الفصل الثالث

الشعر في عهد الطولونيين والأخشيديين

نستطيع أى نقدر لهذا العصر قيمته الأدبية إذا عرفا أن الدولة العباسية اضمحل أمرها ، وفقدت سلطانها ، وانقسمت إلى دويلات صغيرة صار الأمر فيها إلى حكامها ، ولم يبق لل الخليفة العباسي إلا الدعاء في الخطبة ، بل كثيراً ما كان الولاية يقطعون خطبة الخليفة العباسي ، فصار أمير كل دويلة مستقلًا في شؤون دولته . وتنافس الأمراء فيما بينهم ، فكان بينهم حروب ، وأراد كل أمير أن يعرف فضله ، وتعلى كلامه ، فشجع الأمراء العلم ، وحب كل أمير إلى العلماء أن يفدوه عليه ، واتخذ الأمراء من الشعراء وسيلة لنشر سلطانهم وازدياد نفوذهم فأغروا الشعراء بالأموال والهبات ، وتنافس الشعراء في خدمة الأمراء ، فكانت في الأقطار الإسلامية نهضة شعرية كبيرة ، وابتدأ ظهور الشعر الإقليمي — إن صح أن نسميه كذلك — إذ ظهر في الشعر عناصر الأقاليم المختلفة ، وميزات الدول المتباينة ، وأصبح في كل إقليم شعراء ، وحفظ كل إقليم الشعر الذي أنشد فيه ، فبعد أن كانت بغداد هي مركز الحياة الأدبية وقلبا النابض ، صار الشعراء يقصدون الأقاليم المختلفة كما كانوا يقصدون بغداد من قبل ، وأصبحت النهضة الأدبية متفرقة

في الأقاليم ، وكثُرت الرحلات العلمية إلى مختلف الأمصار ، وأكثر الأمراء عطاء ونوايا هو أعظمهم حظاً من وفود الشعراء والعلماء .

وكان الطولونيون بمصر أهل كرم وبذخ ، يعطون الأموال الكثيرة ، ويهبون المهدايا . ويمدون السمع لكل طارق ، واستقدموا الشعراء والأدباء ، وقربوهم ووصلوهم ، فلكونوا حولهم بلاط أدبياً أشبه ما يكون بيلات خلفاء العباسين ، فأنتجت هذه الحياة في مصر أيام الطولونيين شعراً كثيراً ، واجتمع في مصر عدد من الشعراء قل أن يحود الدهر بمثلهم حتى بالغ القاضي أبو عمرو عثمان النابلسي في عددهم ، إذ نقل عنه المقريزى أنه قال في كتابه « حسن السيرة في اتخاذ الحصن بالجزيرة » رأيت كتاباً قدر اثنى عشرة كراسة مضمونة فهرست شعراء الميدان الذى لأحمد بن طولون قال : فإذا كان أسماء الشعراء في اثنى عشرة كراسة كم يكون شعرهم ؟^(١) ومع ما في هذا القول من مبالغة فإن بني طولون جعوا حولهم عدداً كبيراً من الشعراء فكثير بذلك الشعراء المتكتسبون ، فلم يأت الأمير أمراً إلا ظهر في شعر الشعراء ، فشلا في الخلاف الذى كان بين أحمد بن طولون والموفق العباسي سنة تسع وستين وما تئن نجد شعراء ابن طولون قد دافعوا عنه ، ومدحوه لأنهم خلوا المؤفق عن ولادة العهد ، وأمر بجهاده وحربه ، من ذلك ما قاله قعdan بن عمرو .

(١) خطاط المقريزى ج ٢ ص ١٢٤ .

طال الهدى بابن طولون الأمير كا
يزهو به الدين عن دين وإسلام
قاد الجيوش من الفسطاط يقدمها
منه على الهول ماض غير محاجم
في جحفل للبنيا في مقابنه
مكانن بين رايات وأعلام
يسمو به من بنى سام غطارة
يغض وسود أسود من بنى حام
لو أن روح بنى كنداج معلقة^(١)
بالمشتري لم يفته أو بهرام
حاط الخلقة والدنيا خليفتنا
بصارم من سيف الله صمصم
يا أيها الناس هبوا ناصرين له
مع الأمير بدهم الخيل في اللام
ليست صلاة مصلیکم بجازة
ولا الصيام بقبول لصيام
حتى يرى السيد الميمون ذبكم
عن الإمام بأطراف القنى الداعي^(٢)

(١) يقصد الشاعر هنا إسحاق بن كنداج الذي أسر الخليفة المعتمد أثناء فراره من المؤقت في طريقه إلى ابن طولون (٢) السكندي ص ٢٢٧

وَكَقُولُ الشاعِرِ مُنْصَفُ بْنُ خَلِيفَةِ الْهَذَلِيِّ :

يَا غَرَّةَ الدُّنْيَا الَّتِي أَفْعَالَهُ
غَرَّرْ بَهَا كُلُّ الْوَرَى تَعْلَقَ
أَنْتَ الْأَمْيَرُ عَلَى الشَّامِ وَنَفَرَهَا
وَالرَّفِيقَيْنِ وَمَا حَوَاهُ الْمَشْرُقُ
وَإِلَيْكَ مَصْرُ وَبَرْقَةُ وَحِجَازُهَا
كُلُّ إِلَيْكَ فَوَادِهِ مَتْشُوقٌ
هَتَّكَ الْخَلَافَةُ «صَاعِدٌ»^(١) وَخَلِيلُهُ
«اسْحَقُ» لَعْبًا وَالْحَسُودُ الْأَخْرَقُ
أَسِيفًا يَضْبَطُ الْمَنَوْنَ فَلِيَهَا
بَنْجِيعٍ مِنْ خَذْلِ الْإِيمَامِ تَخْلُقُ
تَمْسِي وَتَصْبِحُ ضَارِبًا مِنْ دُونِهِ
بِمَهْنَدِهِ الْحَتَوْفُ تَفْرُقُ
يَتْلُوكُ «سَعْدٌ» وَالْمَقْدِمُ «تَيْتَكُ»
وَالْلَّاذِقُ «وَذُو الْحَقِيقَةِ يَلْحِقُ»^(٢)

وَفِي أَيَّامِ خَمَارُوِيَّةِ بْنِ اَحْمَدِ بْنِ طَوْلُونِ خَرَجَ خَمَارُوِيَّةُ لِحَرْبِ اسْحَقَ
ابْنِ كَنْدَاجَ سَنَةً ثَلَاثَ وَسَبْعِينَ وَمَائَتَيْنِ فَهَزَمَ ابْنَ كَنْدَاجَ وَتَبَعَهُ خَمَارُوِيَّةُ
حَتَّى بَلَغَ «سَرَّ مِنْ رَأْيِ»، فَدَحَهُ الْقَاسِمُ بْنُ يَحْيَى الْمَرْيَنِيِّ

(١) هُوَ صَاعِدُ بْنُ مُخْلَدٍ الَّذِي سَاعَدَ ابْنَ كَنْدَاجَ فِي أَسْرِ الْمُعْتَدِلِ.

(٢) الْكَنْدَاجِيُّ مِنْ ٢٢٨ وَقَدْ وَرَدَتْ الْأَيَّاتُ الْثَلَاثَةُ الْأُولَى فِي النَّجُومِ الْمَاهِرَةِ جَ ٣ مِنْ ٢٠ غَيْرَ مَنْسُوبَةٍ لَا حَدَّ فِي رِثَاءِ ابْنِ طَوْلُونَ، وَهَذَا خَطَأً كَمَا يَقُولُونَ مِنْ الشِّعْرِ.

أثانا أبو الجيش الأمير يمنه
فشرد عنا الجور وافقر العسر
فإن يك أرض الرقين به اكتست
ضياء وإشراقا لقد أظلمت مصر
وسائل به إسحق إذ سار نحوه
بحييش كعرض النيل يقدمه النصر
فأبلس إذ قيل الأمير يالس
وأضحي ضعيف العقد إذ عقد الجسر
ولما رأى الجيش ابن كنداج مقبلا
أرته المنايا الحر أعلامه الحر
فولى شديداً ذا ارتياع كأنه
بكل بلاد طائر ما له وكر
لئن سر إسحق النجا بنفسه
لقد ساهم في جمعه القتل والأسر
فلا يغبطن بالعيش من بعد هذه

فقد كسرته كررة ما لها جبر^(١)

وقد خص القاسم بن يحيى بن معاوية المربي شعره في مدح خمارويه
وقال فيه كل مدائحة حتى سئل مرة أن يرحل عن مصر فقال :

وكيف رحيل عن بلاد غدا بها

أبو الجيش والنيل الذي ملا الأرضا^(٢)

(١) السكندي ص ص ٢٣٦ - ٢٣٧

(٢) الجزء الثالث من كتاب المغرب (نسخة خطية بدار الكتب المصرية)

وما كادت تدول دولة الطولونيين ، وتعود مصر مرة أخرى
إلى حكم العباسين سنة اثنين وتسعين ومائتين حتى رأينا الشعراه
يرثون الطولونيين ، ويأسفون على أيامهم الزاهرة ، بل نجد شاعراً
هو سعيد القاص ينظم تاريخهم في قصيدة أرى أن اثبها هنا لما فيها
من إشادة بأفعال الطولونيين ومنشاتهم

جري دمعه ما بين سحر إلى نحر
ولم يحشر حتى اسلته يد الصبر
وبات وقيداً للذى خامر الحشا
يئن كا أن الأسير من الأسر
وهل يستطيع الصبر من كان ذا أسى
يبيت على جمر ويضحي على جمر
تابع أحداث يُضيّع صبره
وغدر من الأيام والدهر ذو غدر
أصاب على رغم الأنوف وجدعها
ذوى الدين والدنيا بقاصمة الظهر
طوى زينة الدنيا ومصبح أهلها
بفقد بنى طولون والأنجم الزهر
فبادروا وأضحووا بعد عز ومنعه
أحاديث لا تخفي على كل ذى حجر
وكان أبو العباس أحمد ماجداً
جميل الحيات لا يبيت على وتر

كأن ليالي الدهر كانت لحسناها
وإشراقها في عصره ليلة القدر
يدل على فضل ابن طولون هيمة
حفلة بين السماءين والغفران
فإن كنت تبغى شاهداً ذا عدالة
يخبر عنه بالجلي من الأمر
فالجبل الغربي خطة يشكر
له مسجد يغنى عن المنطق المذر
يدل ذوى الآلاب أن بناءه
وبانيه لا بالضنين ولا الغمر
بنائه بأجر وساج وعرعر
وبالمرمر المستون والجص والصخر
بعيد مدى الأقطار سام بناؤه
وثيق المباني من عقود ومن جدر
فسيح الرحال يخسر الطرف دونه
رفيق النسم طيب العرف والنشر
وتنور فرعون الذى فوق قلة
على شاهق عال على جبل وعر
بني مسجداً فيه يروق بناؤه
ويهدى به في الليل إن ضل من يسرى
تخال سنا قنديله وضياءه
سهلاً إذا ما لاح في الليل للسفر

وعين معين الشرب عين زكية
وغير أحاج للرواة وللطهر
كأن وفود النيل في جنباتها
تروح وتندو بين مد إلى جزر
فأرة ^(١) مستنبطاً لمعيناها
من الأرض من بطن عميق إلى الظهر
بناء لو أن الجن جامت بهم
لقليل لقد جاء بمستفطع نكر
يمر على أرض المعافر كالماء
وشعبان والأحمر والحنى من بشر
قبائل لأنوء السحاب يمددها
ولا النيل يرويها ولا جدول يجري
ولا . تنس مارستاته واتساعه
وتتوسيعه الأرذاق للحول والشهر
وما فيه من قوامه وكماته
ورفقهم بالمعتفين ذوى الفقر
فللميت المقبور حسن جهازه
وللحي رفق في علاج وفي جبر
وإن جئت رأس الجسر فانظر تاماً
إلى الحصن أو فاعبر إليه على الجسر

^{١١}) في القاموس أرقاً : أصلح وفند من الأصداد .

ترى أثراً لم يبق من يستطيعه
من الناس في بدو البلاد ولا حضر
ما آثر لا تبلى وإن باد ربهما
ومجد يؤدي وارثيه إلى الفخر
لقد ضمن القبر المقدر ذرعه
أجل إذا ما قيس من قبئي حجر
وقام أبو الجيش ابنته بعد موته
كما قام ليث الغاب في الأسل السمر
أنته المنيايا وهو في أمن داره
فأصبح مسلوباً من النهي والأمر
كذاك الليلالي من أغارته بهجة
فيالك من ناب حديد ومن ظفر
ورث هرون ابنه تاج ماجد
كذاك أبو الأشبال ذو الناب والهصر
وقد كان جيش قبله في محله
ولكن جيشاً كان مستنقص العمر
فقام بأمر الملك هرون مدة
على كفاظ من ضيق باع ومن حصر
وما زال حتى زال والدهر كأشح
عقاربه من كل ناحية تسرى

تذكّرهم لما مضوا فتابعوا
كما رفض سلك من جهان ومن شذر
فمن ييك شيئا ضاع من بعد أهله
لفقدهم فليك حزنا على مصر
ليك بني طولون إذ بان عصرهم
فبورك من دهر وبورك من عصر^(١)

ولهذا الشاعر أيضا عدة قصائد في مدح الطولوينيin يصف فيها
ازدهار الحياة في مصر ، وقوة البلاد في عصرهم وما كانت ترتع
فيه من نعيم ورخام .

على أن هؤلاء الشعراء الذين أكثروا من مدح الطولوينيin
وخلعوا عليهم هذه الصفات والألقاب الشعرية التي نراها دائما في
مدح شعراء العرب ، لم يلبشو أن تحولوا إلى مدح الأمراء والولاة
العباسيين الذي أبادوا مملكة الطولوينيin ، وأخرجوها قوادهم ومواليهم
بنفخات منهم الديار المصرية وأحلوا بالطولوينيin التطريد والنشريد
فنرى شاعرا كاسماعيل بن أبي هاشم قد مدح الطولوينيin بعده
قصائد كقوله بعد أن دالت دولتهم :

قف وقفه بفمام باب الساج
والقصر ذى الشرفات والأبراج
وربوع قوم أزعجوا عن دارهم
بعد الإقامة أيام إزعاج

(١) خطط المقربى ج ٢ من ١١٩

كانوا مصابيح إذا ظلم الدجى
يسرى بها السارون في الإدلاج
وكان وجههم إذا أبصرتها
من فضة مصبوغة أو عاج
كانوا ليونا لا يرام حامم
في كل ملحمة وكل هياج
فانظر إلى آثارهم تلقى لهم
علياً بكل ثنية وغنج
وعليهم ما عشت لا أدع البكا
مع كل ذي نظر وطرف ساج^(١)

هذا القول يظهر فيه الوفاء للطولانيين والخلاص لهم وزاه
قد استمر على وفائه وإخلاصه ، يدلنا على ذلك شعره في ثورة محمد
ابن علي الخليجي^(٢) وكان أحد جند الطولانيين الذين أسرهم محمد
ابن سليمان القائد ، وسار بهم إلى الشام ، وفي دمشق حدثت نفس
ابن الخليجي أن يعود إلى مصر ، ويعيد الطولانيين إلى ملوكهم ،
وكاشف بذلك بعض أصفيانه فأجمعوا كلامهم على ذلك ، وساروا

(١) المخطوط ج ٢ ص ١١٩ والسكندي ص ١٣٢—٢٥٣.

(٢) سمي هذا الرجل في السكندي ص ٢٥٩ بابن الخليج وفي المقربي ج ٢٤ ص ١٢٤ ، ولكن صاحب النجوم الظاهرة ج ٣ ص ١٩٢ سماه الخليجي ، وفي
ترويج الذهب ج ٤ ص ٢٤٧ سمي بالخليجي وكذلك في تاريخ الطبرى ج ١١ ص ٣٩٣ والذى يصح عندي أنه ابن الخليج أو الخليجي لقول الشاعر في مدحه :
وكان أبوك خليج العفاف وبحر النفور الذى عالمها

معه حتى استولوا على الرملة باسم ابراهيم بن خمارويه ، واجتمع
إليه خلق كثير سار بهم إلى مصر وهزم جيوش عيسى التوشرى
الوالى حتى استطاع ابن الخليجى أن يستولى على الفسطاط فى ذى
القعدة سنة اثنين وسبعين ومائتين ، وأرسل الخليفة المكتفى بالله
جيشا لقتاله وعليهم أبو الأغر خليفة بن المبارك وغيره فقاتلهم ابن
الخليجى بعنية الأصبع وهزمهم سنة ثلاثة وتسعين ومائتين^(١) فدحه
الشعراء منهم اسماعيل بن هاشم بقوله :

أميرنا يابن البهاليل الغر شفيت من عدونا أبي الأغر
صدورنا وقيت من كل حذر إذ جاء في الشوك إلينا والشجر
يتبعه أهل البوادي والحضر في جحفل كوج حمر قد زخر
صبرت إذ لاقته وما صبر ثر في أسرع من لمح البصر
يقطر منه بوله قطر المطر أحدث فوق سرجه وما شعر
شفيتنا من تركهم مع الخزر ثم عفا أميرنا لما قدر^(٢)

فهو هنا قد حفظ وفاة الطولونيين ولكن من الجائز أن يكون
الشاعر قد مدحه خوفا منه ، ومع ذلك فقد مدح أحد صنائع
الطولونيين وهو بخلاف الشاعر سعيد القاص ، فقد رأينا قصيدة
التي تحدث فيها عن الطولونيين ، ومع ذلك فقد مدح القائد بدر الحمامى
الذى هزم ابن الخليجى سنة ثلاثة وتسعين ومائتين بقوله :

حالت معارفهم إلى إنكار وغدا الخinis لهم يوم بوار

(١) النجوم الراحلة ج ٣ ص ١٥١ وما بعدها .

(٢) السكندي ص ٢٥٩ .

وتقاطعوا وتدابروا وتنافروا وتلاعنوا فيها كأهل النار
وأنوك بين معذر في عذرها خجل وبين مصرح بالإقرار
وتزعزعت تلك الرماح فصورت

ركن المقطم في شفير هار

طلعت نجوم في الرماح يروحها فسقطن إذ طلعت نجوم قدار
لما انجلى ذاك الغبار رأيتم صرعى وقد لبسوا بريم غبار
فاسعد بنصر الله والفتح الذى

عظمت به النعمى على الأبرار^(١)

فهذا شاعر متقلب في مدحه يمدح ذا السلطان والإمرة دون نظر
إلى مبدأ أو عقيدة مثله في ذلك مثل الشاعر أحمد بن محمد الحبيشي الذي
مدح القائد محمد بن سليمان الكاتب لما دخل مصر وانتزعها من أيدي
الطلوليين — فقد أنشد هذا الشاعر قصيدة بانية تكاد تكون
نفس قصيدة أبي تمام التي مطلعها :

السيف أصدق أبناء من الكتب في حده الحدين الجد واللعب

فالشاعر المصرى في قصيده أخذ معانى قصيدة أبي تمام وأودعها
شعره بل أخذ ألفاظ أبي تمام وصنع منها قصيده وفيها يقول :
الحمد لله إقراراً بما وهبا قد لم بالأمن شعب الحق فانشعا
الله أصدق هذا الفتح لا كذب فسوء عاقبة المثوى لمن كذبا
فتح به فتح الدنيا محمدها وفرج الظلم والإظلم والسر با
لاريب رب هياج يقتضى دعة وفي القصاص حياة تذهب الريبا
رمي الإمام به عذرها بالسيف واقتضاها

محمد بن سليمان أعزهم
سرى بأسد الشرى لم يروا بشرا
حم القضاة على اليموم حين أتوا
إياها علوت على الأيام مرتبة
لما أطال بنو طولون خطبهم
هارت برون من ذكر إيك بقعته
وكم ترى لهم من جنة أنسف
فاصبحوا لا ترى إلا مساكنهم
كأنها من زمان غابر ذهبا^(١)
ولأتك مقارنة هذه القصيدة أني قام المعروفة
التي أنشدها في مدح المعتصم ويدرك فيها فتح عمورية إذ ليس هنا مجال
البحث عن ذلك وأكتفى بالإشارة إليها ، وأعود إلى الشاعر أحمد
ابن محمد الحبيشي فأقول إنه كغيره من الشعراء الذين يمدحون أصحاب
السلطان ويغيرون بغير الولاه والأمراء فهو في هذه القصيدة مدح
عدو الطولونيين فلما استولى ابن الخليجي على مصر وأراد أن يعيده ملك
الطولونيين نراه قد مدح الأمير لانتصاره على جيوش العباسين بقوله

غضبت مصر وما نالها وشردت بالحوف من غالها
تلافيتها بعد إدبارها وأقبلت تطلب إقبالها
وكادت تؤوه شوهة إليك وتظهر بالسوق بلبلها
وما شوقها كان من طبعها ولكن ربك أوحى لها
لقد فرج الله كرب النفوس وباتسغها فيك آمالها
ولما رأيناك في مصرنا منحنا الإمارة إجلالها

(١) خطط المقربى ج ٢ من ١١٨ والسكنى ص ٢٤٨

وَمَا زَلْتَ تَطْلُبِهَا هَمَةً
وَتَرْكِبُ بِالسِّيفِ أَهْوَاهَا
وَتَعْلَمُ نَفْسَكَ أَنَّ الْأَمْرَ
إِمَّا عَلَيْهَا وَإِمَّا هَذَا
تَمْنَوْا لِقَاءَكَ فَلَمَّا رَأَوكَ
رَأَوْا لِلْبَنِيةِ إِظْلَاهَا
وَمَرُوا يَطِيعُونَ فِي كُلِّ شَيْءٍ
وَكَانَ أَبُوكَ خَلِيجَ الْعَفَافَةَ
تَفَزَّعَ لِلذَّنْبِ أَطْفَالَهَا^(١)
بِهِ كَانَ الرُّومُ فِي أَمْنَهَا

نُسْطَطِيعُ مِنْ ذَلِكَ كَاهَ أَنْ نَدْرُكَ أَنْ عَدْدًا كَبِيرًا مِنَ الشُّعْرَاءِ
ظَهَرُوا فِي هَذَا الْعَصْرِ ، وَأَنْشَدُوا شِعْرًا فِي مَدْحِ الْأَمْرَاءِ وَأَنْ كَثِيرًا
مِنْهُمْ تَقْلِبُ فِي الْمَدْحِ بِتَقْلِبِ الْأَحْوَالِ السِّيَاسِيَّةِ فِي الْبَلَدِ ، إِذَا لَا هُمْ
لِأَمْثَالِ هُؤُلَاءِ الشُّعْرَاءِ إِلَّا إِرْضَادَ الْأَمْرِ مِمَّا كَانَ هَذَا الْأَمْرِ .

عَلَى أَنَّهُ وَجَدَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا لِأَنْفُسِهِمْ رَأِيًّا خَاصًا ،
وَمَذْهَبًا دَافَعُوا عَنْهُ غَيْرَ آبَهِينَ بِأَمْرِيْرِ أوْ سُلْطَانِ ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي
كَانَ فِيهِ أَحْمَدُ بْنُ طَولُونَ فِي مُنْتَهِي قُوَّتِهِ وَاتْسَاعِ سُلْطَانِهِ ، وَفِي الْوَقْتِ
الَّذِي تَقْرَبُ فِيهِ الشُّعْرَاءُ إِلَيْهِ وَحاوِلُونَ إِرْضَادَهُ وَطَمَعُوا فِي نُوَالِهِ
وَتَحْدِثُوا عَنْ نِعْمَهُ وَأَيَادِيهِ عَلَى الْبَلَادِ ، فِي هَذَا الْوَقْتِ نَجَدُ شَاعِرًا مِنْ
شُعُّرَاءِ الطَّوْلُوَنِيْنَ هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ دَاؤِدَ قَدْ أَكْثَرَ مِنْ هَجَاءِ ابْنِ طَولُونَ
فَلِمَ يَأْتُ الْأَمْرِ عِمَلاً إِلَّا هَجَاهُ هَذَا الشَّاعِرُ حَتَّى إِذَا أَقَامَ الْأَمْرِ الْمَنْشَئَاتِ
النَّافِعَةِ نَجَدُ الشَّاعِرَ قَدْ اتَّخَذَ هَذِهِ الْمَنْشَئَاتِ وَسِيلَةً لِهَجَاءِ الْأَمْرِ دُونَ
خُوفٍ ، فَثَلَاثَةُ بْنِ الْأَمْرِ الْمَارْسَتَانَ سَنَةُ تَسْعَ وَخَمْسِينَ وَمَائَتَيْنِ
فِي هَجَاهِ الشَّاعِرِ مُحَمَّدِ بْنِ دَاؤِدَ بِقَوْلِهِ :

(١) السَّكَنِيِّ مِنْ ١٦٠ .

ألا أيها الأغفال إيهما تأملوا
وهل يوقظ الأذهان غير التأمل
لم تعلموا أن ابن طولون نفحة
تسير من سفل إليكم ومن على
ولولا جنایات الذئب لما علت
عليكم يد العلوج السخيف المجهل
فياليت مارستانه نيط باسته
وما فيه من علوج عتل مقلل
فكم ضجة للناس من خلف ستره
تضج إلى قلب عن الله مغفل^(١)
ولما بني أحمد بن طولون المراكب الحريسة واتخذ الحصن في
الجزرية هجاه الشاعر بن داؤد بقوله .

لما ثوى ابن بغا بالرقتين ملا
ساقيه زرقا إلى السكعين والعقب
بني الجزرية حصنا يستجن به
بالعسف والضرب ، والصناع في تعب
وراقب الجيزة القصوى نخدقها
وكاد يصعق من خوف ومن رعب
له مراكب فوق النيل راكدة
فا سوى القار للنظر والخشب

(١) شرحه .

يرى عليها لباس الذل منذ بنيت
بالشط منوعة من عزة الطلب
فما بنها لغزو الروم محتسباً
لكن بنها غادة الروع للهرب^(١)

وظل هذا الشاعر يهجو أحمد بن طولون حتى توفى الأمير فلم يقلع عن هجائه بل رماه بأشد أنواع الهجاء ولم يتورع عن بسط لسانه في الأمير حتى بعد وفاته من ذلك قوله :

مضى غير مفقود وما كان عمره
سوى نفقة للخلق شنعاماً صيلم
لقد زيد في اليموم بالرجس لعنة
ولم يسوق بالمرجوس ترب المقطم
ولم تبك الأرضون لكن تبسمت
سروراً ولو لا مسوته لم تبسم
يبشره إبليس عند قدمه
عليه بأحلى بقعة في جهنم
لقد ظهرت الأرض من سوء فعله
ومن وجهه ذاك الكريه المورم
فلا سقيت أجدانه صوب مزنة
وأن وفيها شر أولاد آدم^(٢)

(١) خطاط المقرizi ج ٢ ص ٢٩٣ والسكندي ص ٢١٨ .

(٢) السكندي ص ٢٣٢ .

ولا أدرى سبب هذا الهجاء الذى لا أكاد أعرف مثيلا له في
الهجاء العربى فإن الشعراء كانوا أمام حرمة الموت يتورعون عن
هجاء الموت ولكن هذا الشاعر المصرى كان موتورا - كايختيل إلى -
فلم يكفله أن يظهر فرحة موت الأمير بل هجاء بهذه الأيات وبغيرها
ما يدل على أن المصريين في هذا العصر اتخذوا الشعر وسيلة لهجاء الموتى
وهو الأمر الذى لم نره في شعر المصريين قبل ذلك العصر .

وفي هذا العصر أيضا ظهر في الشعر المصرى فن لم نجد له مثيلا
في العصور السابقة ، بل لا نجد له مثيلا في الشعر العربي إلا في شعر
الأندلسيين ، فورخو الأدب العربي قالوا إن الأندلسيين امتازوا
برثاء الملك والبلدان كما اختلف عدوهم منها شيئا ، وأشاد مؤرخون
الأدب بقصيدة ابن عبدون الأندلسي التي رثا بها دولة بنى الأفطس
والتي مطلعها :

الدهر يفجع بعد العين بالأثر فـ الـ بـ كـاء عـلـى الـ أـشـبـاحـ وـ الصـورـ
ومن يقرأ الشعر المصرى في هذا العصر يجد أن هذا الفن كما
المعروف في مصر ، وأن شعرا مصر أكثروا في الحديث عنه ، فـ
أن دالت دولة الطولونيين ، وعاد الأمر إلى الخليفة العبامى ودمى
القطائع ، وخراب الميدان قام شعراء مصر يرثون أيام الطولونيين
وما بنوه ، ويعددون مفاحيرهم ، ويصفون دورهم ، ويأسفون
ما لحق هذه المنشآت الجليلة من التدمير والخراب ، والترحم
ال أيام الجليلة التي قضوها بين هذه المباني مثل قول الشاعر محمد

طشويه :

تبارك الله ما أعلاه وأقدره
لو أن عين الذي أنشأه تبصره
وأين عيون الورى تعشي هبته
إذا أضاف إليه الملك عسكته
وأين الملوك التي كانت تحمل به
من كل ليل يهاب الليث منظره
صاح الزمان بن فيه فرقهم
وأخلق الدهر منه حسن جدته
وأين من كان بالإتقان ذره
وأين من كان يحميه ويحرسه
وخط ريب البلى فيه فدعثره
دكت مناظره واجتث جوسمه
ممثل الكتاب محا العصر ان أسطره
أو هب إعصار نار في جوانبه
فعاد معروفة للعين منكره

كـم كان يأوى إليه في مقاصره

أحوى أغنى غضيض الطرف أحوره

كم كان فيه لهم من مشرب غدق
فعب طرف الردى فيه فكدره
أين ابن طولون بانيه وساكنه
أماته الملك الأعلى فأقبره
ما أوضح الأمر لو صحت لنا فكره
طوبى لمن خصر شد فذكره
(١)
وقال اسماعيل بن أبي هاشم:

يامنلا لبني طولون قد دـرا

سـقاـك صـوبـ الغـواـديـ القـطـرـ والمـطـراـ

يامنلا صرت أجهوه وأهجره
وكان يعدل عندي السمع والبصر
بـاللهـ عـندـكـ عـلـمـ منـ أـحـبـتـناـ
(٢)

(١) خطط المقريزي ج ٢٢ ص ١٢١ والسكندي ص ٢٦٣ .

(٢) شرحه ج ٢ ص ١٢٢ والسكندي ص ٢٦٦ .

وَكُوْصِيْدَة سَعِيد القَاصِ الَّتِي مِنْ ذَكْرِهَا ، فَمِنْ ذَلِكَ نُسْتَطِيْعُ أَنْ
نُدْرِكَ أَنَّ الشُّعُرَاءَ الْمُصْرِيْنَ أَخْذُوا بِنَصْبِ وَافِرٍ مِنْ هَذَا الْفَنِ الَّذِي
لَمْ يَكُنْ فِيهِ غَيْرُهُمْ مِنْ شُعُرَاءِ الشَّرْقِ ، كَمَا يَدْلِنَا ذَلِكَ أَيْضًا عَلَى تَطْوِيرِ
الشُّعُرِ فِي مِصْرَ ، فَبَعْدَ أَنْ كَانَ الشُّعُرُ الْمُصْرِيُّ فِي الْعَصُورِ السَّابِقَةِ يَكَادُ
يَكُونُ صُورَةً مِنَ الشُّعُرِ الْعَرَبِيِّ فِي الْأَقْطَارِ الْأُخْرَى مِنْ حِيثِ الْمَعْانِي
وَالْخَيْالِ مَعَ اخْتِلَافِ الْمَعْانِي وَالْخَيْالِ بِاخْتِلَافِ الْحَيَاةِ الْمُصْرِيَّةِ ،
وَبَعْدَ أَنْ كَانَ الشُّعُرُ شِعْرُ مَنَاسِبَاتٍ — إِنْ صَحَّ هَذَا التَّعْبِيرُ — أَصْبَحَ
الشُّعُرُ فِي عَصْرِ الطَّوْلُونِيِّينَ وَالْإِخْشِيدِيِّينَ يَأْخُذُ مَظْهَرًا آخَرَ لَمْ يَعْرَفْهُ
مِنْ قَبْلِهِ . وَقَدْ رَأَيْنَا الشُّعُرَاءَ فِي الْعَصْرِ السَّابِقِ يَأْخُذُونَ بِحَظٍّ وَافِرٍ مِنْ
الثَّقَافَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ ، وَبَعْضُهُمْ صَاحِبُو أُمَّةَ الْفَقِهِ وَأَخْذُوا عَنْهُمْ ، تَطْوِيرِ
الشُّعُرِ فِي عَصْرِ الطَّوْلُونِيِّينَ فَقَدْ تَرَكَ أَكْثَرُهُمُ الْعِلْمَ ، وَاهْتَمُوا بِالْفَنِ
الشُّعُرِيِّ وَالتَّكَسُّبِ بِهِ ، حَقِيقَةً وَجَدَ بَعْضُ الشُّعُرَاءَ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ
أَتَقْنَوْا كَثِيرًا مِنْ فَوْنِ الْعِلْمِ ، فَكَانَ مِنْهُمُ الْكِتَابُ أَمْثَالُ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ
ابْنِ جَدَارِ وَصَالِحِ بْنِ رَشْدَيْنَ وَغَيْرِهِمَا ، وَكَانَ مِنْهُمُ الْمُؤَلِّفُونُ أَمْثَالُ
ابْنِ الدَّاِيَةِ الَّذِي تَحْدَثَنَا عَنْهُ ، وَالْحَمْنَ بنِ عَلِيِّ الْأَسْدِي صَاحِبُ كِتَابِ
الْأَنْسِ الَّذِي وَصَفَهُ بِقَوْلِهِ :

فيه ما يشتهي الأديب من العـ

لم وفيه جلا. هم النفوس

فیه ماشت من بدور معان

ضاحکات إلی وجوه شموس^(۱)

(١) يقمة الدهر الشعالي ج ١ ص ٣٢٧

كما كان بين شعراً ذلك العصر بعض الفقهاء أمثال منصور الفقيه والحداد القاضي ، ومنهم المتكلمون كابن الجي الشهير بسيبوه المصري ، وبالغ بعضهم في إطالة القصائد كالذى يروى عن قصيدة محمد بن أحمد بن الريبع بن سليمان الاشوابى التي لا يعلم في الوجود أطول منها ، سئل قبل موته بستين كم بلغت قصيتك إلى الآن قال : ثلاثين و مائة ألف بيت وقد ضمن قصيده هذه كثيراً من الأخبار وقصص الأنبياء وبعض العلوم والأراء الفقهية وعلوم الطب (١) وبالرغم من وجود هؤلاء الشعراء العلامة كان أكثر شعراء ذلك العصر يتمون بالشعر دون غيره .

وفي الشعر المصري في هذا العصر كثير من الحكم والأيات التي جرت بجرى الأمثال ، وكثير من أشعار الزهد كالتى تراها في أشعار منصور الفقيه وابن طباطبا وغيرهما .

أثر اللهو في الشعر :

والظاهرة التي يجب أن نلاحظها على شعراً هذا العصر هي انفاس الشعراء في تيار اللهو والمجون ، فقد غررهم الترف ، فأخذوا بحظ وافر منه ، وكثير المجنون في هذا العصر ، وازداد بازدياد ثروة البلاد ، فرغب الشعب المصري في هذه الحياة الماجنة ، والمصري بطبيعته ميل إلى الفكاهة والدعابة ، وإذا ذكر في العراق جماعة أبي نواس في مصر جماعة محمد بن عاصم وسعيد بن فاخر قاضي البقر شاعر الأخشيد ، وأبي هريرة بن أبي العاص وغيرهم .

(١) فوات الوفيات للصفدى ج ١ ص ٤٤٤ نسخة خطية بالمسكتبة للتيمورية

وقد ساعد على وجود هذه الحياة بصر بذخ الأمراء وإسرافهم وأخذهم بحياة النعيم وشرب الخمر والإسراف في شربها وسماع الغناء واللهو بالجواري والقيان كما كان يفعل خلفاء بنى العباس .

فأحمد بن طولون مع تمسكه بأهداه الدين ، وكثرة عمله ، وما كان يؤثر عنه أنه كان يذكر كل يوم فيخرج لسماع قرامة الأئمة في المحراب ^(١) كان مع ذلك كله يشرب الخمر ويسمع الغناء ، ويقرب المغنين .

حدثنا ابن الداية قال : قال أحمد بن أيمان : كنا عند أحمد بن طولون فقال لكتنيز المغني أشتته صوتاً ما سمعته منذ خرجت من دار من رأى ، فقال : وما هو يا سيدي ؟ فقال هذا البيت :

ألا شفيت غليلًا لا أفارقه نفسي فدأوك من ذي غلة صادي فحملني النيد وما استهواني من تقريب أحمد بن طولون وإنما سمعته على أن قلت : أنا أحسنت ! ففرح ابن طولون ، واندفعت أغنية إيه — وكان أحمد بن أيمان ذاته عظيمة ، وعفيرة جهيره حسنة الإيقاع — فطرب طرباً شديداً ثم صفق بيده ، فسبقه إلى سخف الطرب ، وقت فرقضت على إيقاع اللحن فزاد سروره ^(٢) .

وعرف خمارويه بن أحمد بن طولون باللهو والجنون ، والبذخ في الحياة والإسراف في الشراب حتى حدثنا التتوخي أن خمارويه كان إذا قعد للشرب يشرب أربعين رطلاً من نيد مصر المعروف

(١) الأذكياء لابن الموزي ص ٤٩ (طبعة سنة ١٢٢٢ هـ) .

(٢) سبعة ابن طولون لابن الداية من ٤٩ .

بالشبروى ، ومن يشرب منه رطلاً يستطيع أن يشرب من غيره أرطاля^(١) ، وهذا لا شك إسراف من التنوخى أيضاً ، ولكنه يدلنا على أن خماروته كان كلفاً بالشراب . ووجد بعض البلدان عرفت بصنع الخمور كمدينة أبوان (بالقرب من دمياط) كان أهلها نصارى ويعمل فيها الشراب الفائق فينسب إليها فيقال بونى^(٢) .

ولا ننسى الأديرة الكثيرة التي كان ينزعج إليها الشعراء وغيرهم من أصحاب اللهو والمحجون ، فكما كان العراقيون يذهبون إلى دير عبدوس وغيره من الأديرة . كذلك ذهب المصريون إلى دير القصیر ودير نهيا ودير مارحنا وغيرها ، وكان خماروته يذهب إلى دير القصیر إذ بني لنفسه غرفة في أعلى الدير ذات أربع طاقات إلى أربع جهات ، وكان يذهب إلى هذا الدير مظبراً لإعجابه بصورة مريم العذراء التي كانت في هيكل الدير ، ويشرب على النظر إلى هذه الصورة^(٣) . وكان الشعراء يذهبون إلى هذا الدير ، ووصفوه في شعرهم ، وذكروا طبيه ونزعتهم به ، ثم هؤلئه ومجونهم وأيامهم التي قضوها فيه . من ذلك قول أبي هريرة بن أبي العاصم وكان من شعراء الأخشيديين وعاش حتى أوائل حكم الفاطميين .

كم لي بدير القصیر من قصف

مع كل ذى صبوة وذى ظرف

(١) نشور الحاضرة للتنوخى ص ٢٦١ .

(٢) معجم البلدان ج ١ ص ٩٣ .

(٣) ورقة رقم ١٢٤ من كتاب الديارات لأبي الحسن الشابنى نسخة خطية
بدار السكتب المصرية .

لحوت فيه بشادن غنج
يقصر عنه بدائع الوصف^(١)

ويحدثنا المقرizi أن الحاكم بأمر الله الفاطمي أمر بهدم هذا الدير في رمضان سنة أربعينه . أما دير مار حنا فقد كان على شاطئ بركة الحبش وبقربه يترعرع نبات نجاشي عليها جمينة يجتمع الناس إليها ويشربون عندها^(٢) ومن الشعراء الذين كانوا يذهبون إلى هذا الدير الشاعر العباس بن البصري ، قال عنه الشاباشي : وكان ابن البصري هذا من الخنوع الجنان ، وله شعر يجرى مجرى الم Hazel والطيب ، وخدم أبا القاسم أو نوجور بن الأخشيد فأحسن إليه وكفاه ، وصار يركب معه ، وكان يلبس طيلساناً أزرق يتشبه بالقضاء ، وكان أونوجور قد حمله على برذون أصفر غليظ بطىء السير ، فكان إذا سار مع أقوام من إخوانه قال لهم : صفوالي موضعكم حتى الحق بكم ! وكان مليح المجالسة كثير النادرة ، وكان يبيع الصيدلة في مسجد عبد الله بمصر^(٣) . وقد قال هذا الشاعر في دير مار حنا :

يا حامل الكأس أدرها واسقني
قد ذعر الشوق فوادي فاندعر
أما ترى البركة ما أحسنها
إذ تداعى الطير فيها فصفر
أما ترى نوارها أما ترى
حسن مسييل ماها إذا انحدر

(١) يتيمة الدهر لـ النعماي ج ١ ص ٣٢١ .

(٢) ورقة ١٢٦ من كتاب المديارات (٣) ورقة ١٣٠ من كتاب المديارات

كأنما صفر الدنانير بها
 مبذولة ليس بها من متجر
 كأنما الجوهر في ألوانه
 ثر في تلك السواحى فانتشر
 كأنما كف جواد ولعت
 في ذلك الروض بتبديد البدر
 وأيضاً الرجس في أجفانه
 دمع الندى لولا التشاجي لقطر
 ونظرة الورد إلى أترابه
 نظرة معشوق بالحظ منكسر
 دعنى فا أهلك إلا بالجوى
 ما عيشة العاشق إلا في كدر (١)

ولا بن البصرى شعر كثير في الأديرة التي كانت بمصر ولا سيما
 في دير نهيا بالقرب من الجيزة ، قال ابن فضل الله العمرى عن هذا
 الدير « وديرها (أى دير نهيا) هذا من أطيبها موضع ، وأجلها
 وقعا ، عامر بربانه وسكنه ، وله في النيل منظر عجبا ، لأن الماء
 يحيط به من جميع جهاته ، ويزيد في حسن متنزهاته ، فإذا تصرف
 الماء أظهرت أرضه غرائب النوار ، وبعجائب الزهور المشرقة الأنوار
 له خليج ينساب انساب أرقام ، وعليه شطوط كأنها بالديباج
 فم ، (٢) وفي هذا الدير قال ابن البصرى :

(١) ورقة ١٢٨ من كتاب الديارات .

(٢) مالك الأ بصار ج ١ ص ٣٦٢ .

يا من إذا سكر النديم بكلأسه
غريت لواحظه بسكر الفيق
طلع الصباح فأسقني تلك التي
ظلمت فشبه لونها بالزنبق
والق الصباح بنور وجهك إنه
لا يلتقي الفرحاـن حتى نلتقي
قلبي الذي لم يبق فيه هو اكم
إلا بقية نار شوق قد بقى
أو ما ترى وجه الريع وقد زهرت
أنواره بنهاـره المتألق
وتحاوبت أطيـاره وتبسمت
أشجاره من ثغر زهر مورق
لم يغدها طل الرذاذ ببرده
حتى تفتح كل جفن مطبق
والبدر في وسط السماء كأنه
وجه مليح من قناع أزرق
يا للديارات المـلاح وما بها
من طيب يوم مرلى بشوق
أيام كنت وكان لي شغل بها
وأسيـر شوق صبـابـي لم يطلق
يادـير ، نـهـيـا ، ما ذـكـرـتك ساعـة
ألا تـذـكـرـت الشـباب بمـفـرقـي

والدهر غض والزمار مساعد
ومقامنـا ومبينا بالجوسق
يادير «نها» إن ذكرت فإنتي
أسعى إليك على الخيل السبق
وإذ سلت عن الطيور وصيدها
وجنوتها فاصدق وإن لم تصدق
فالغر فالكروان فالقارور إذ
يشجيك في طيرانه المتعلق
أشدت حرب الطير في غيطانه
لما تحرق منه كل محرق؟
والزمج الغضبان في رهط له
ينحط بين مرعد ومبرق
ورأيت للبازى سطوة موسـر
ولغيره ذل الفقر المطلق
كم قد صبوت بغرقى في شرقى
وقطعت أوقاتى برمى البنـدق
وخلعت في طلب المحون حبـالى
حتى نسبت إلى فعال الآخرق
ومهاجر ومكـار ومنـافـر
قلق الفـؤاد به وإن لم يقلق
لو عاين التفـاح حمرة خـدـه
لصـبا إلى دـيـاج ذـاك الروـق

يا حامل السيف الغداة وطرفه
أمضى من السيف الحسام المطلق
ارفق بعدهك لا تطل أشجانه

وارفق به يا صاحب الثغر النقى^(١)

ولم يقتصر اللهو على أن يصف الشعراء هذه الأديرة بهذا الوصف
الجليل الرقيق ، وذكر الطرد والصيد كالذى رأيناه فى قصيدة ابن البصرى
السابقة ، بل يجد كثيراً من الشعراء يصفون مجالس الخمر ويدركون
جو نهم وخشمهم ويعرضون بالدين ، فشلا الشاعر سعيد بن فاخر
المعروف بقاضى البقر وكان شاعر الأخشيد وابنه^(٢) قال :

حي على الكأس فى الصباح مطرباً نصح كل لاح
واتهب العيش ما تأنى فأنت منه على جناح
وأجرى من عقول قوم عموا عن الشرب والملاح
يارب دعنى بلا صلاح يارب ذرق بلا فلاج
يدى مدى الدهر فوق رdorf وراحتى تحت كأس راج^(٣)

فهذا الشاعر المصرى الذى أنشد مثل هذا الشعر لا يقل فى الفجور
والعبث عن أشد شعراء العراق مجوناً وفسقاً ، فهو هنا قد تهكم بالدين
ودعا الله أن يديم عليه ذلك التهاون بالدين مما يدل على أن حياة اللهو
كان لها أثر كبير فى شعراء ذلك العصر .

لم يكن قاضى البقر وحده الذى أنشد مثل هذا المجنون والفحش
بل نجد الشاعر أبا هريرة أحمد بن أبي العاصم وهو من شعراء أواخر

(١) ورقة ١٢٩ و ١٣٠ من المديارات .

(٢) المغرب فى حل أخبار المغرب ص ١٠٣ (٣) المغرب ص ١٠٣ .

الدولة الأخشيدية ، وقبل إنه عمر حتى شاهد عصر الحاكم بأمر الله الفاطمي ، قد اتهماه في اللذات ، وأسرف في اللهو ، وأدمى على الشراب ، فوصف الحسر و مجالس اللهو ، وكان كزميله قاضي البقر مهاونا في دينه ، لم يخش صاحب زندقة ولا سلطان أمير ، وكان كزميله يتهكم بالدين ، بل هو أشد تهكما من زميله بفرائض الإسلام :

مجلس لا يرى الإله به غير مصل بلا وضوء و ظهر
سجد للكؤوس من دون تسبيح سوى نعمة لعود و زمر^(١)

إذن ظهر اللهو والمجون في الشعر المصري في هذا العصر ، ولم يبال الشاعر المصري بالشعور الديني الذي كان يسود البلاد . ونعيجب إذا عرفنا أن مثل هذا الشعر صدر عن شعراء على اتصال وثيق بالأمراء فهل نفهم من ذلك أن أمراء مصر في هذا العصر تهاونوا بالدين إلى حد أنهم سمحوا للشعراء المتصلين بهم أن يعيشوا وينشدوا مثل هذه الأشعار !!

الواقع أن أمراء مصر في ذلك العصر قد أكثروا من الترف والنعيم وأرادوا أن يتمثلوا بخلفاء العباسيين في هولهم ومجونهم ، وشاركتهم الشعراء والكتاب في اللهو ، وإن كان الشعور الديني ، والتمسك بأهداب الدين يعم البلاد ، يحدثنا المقريزى أن احمد بن طولون كان قد اتخذ حجرة بقربه فيها رجال سمام المسكرين ، يبيت منهم في كل ليلة أربعة يتعاقبون الليل ، ويكتبون ويسبحون ، ويقرأون القرآن تطريباً بالحان ، ويتوسلون بقصائد زهدية ، فلما ول خمارويه أقرهم على حالمهم ، وأجرأهم على رسمهم ، وكان مجلس للشرب مع

حظاً ياه في الليل وقيانه تغنين ، فإذا سمع أصوات هؤلام يذكرون الله
والقدح في يده ، وضنه بالأرض وأسكت مغنياته ، وذكر الله معهم
حتى يسكت القوم ، لا يضجره ذلك ولا يغrieve أن قطع عليه ما كان
فيه من لذة بالسماع^(١) مما يدل على أن الشعور الديني كان متغللاً في نفس
الأمير ولكنه كان يأخذ بحظه من الله . وشارك الشعراً أمراء هم في
هذا الله وأخذ الشعراً يدعون بعضهم بعضًا على مجالس الله كأن
ي فعل شعراً العراق ، فالشاعر المصري عبد الله بن محمد بن أبي
الجوع — وكان من شعراً الأخشيديين وعاش إلى أوائل الدولة
الفاطمية ، وصادق أبو الطيب المتنبي في مصر وروى عنه ، وكان من
أكبر علماء اللغة في عصره — دعا بعض إخوانه بقوله :

شعبان قد صار نضوا	ولم نفد فيه لهوا
وليس ذلك منا	جهلاً ولا كان سهوا
بكرت للقصف عدوا	فبما—— ودة إلا
ما خرق الدهر رفوا	حتى نقوم فترفوا
مممن ظل يشوى	من بعد تقديم جدى
يحبوا إلى الضرع حبوا	له ثلاثون يوماً
عوضته البقل حشوا	لما انتزعت حشاء
ملأته لك حلوى	وقد عنيد بجام
صفت من الدم صفووا	وقه—— ودة بنت كرم
سطت على لهم سطوا	ما شعشت قط إلا

وهكذا أصبح الشعر المصري أداة للراسلة بين الأصدقاء .
وبالشعر وصف الداعون ما أعدوا للزائرين من ألوان الأكل
والشرب وما يتبع ذلك من ألوان اللهو والطرب . وهذا كله يدلنا
على تطور الحياة المصرية ، وتطور الشعر بتطور الحياة نفسها .

الطبعه في الشعر المصري :

ويظهر تطور الشعر المصرى في هذا الفن الذى أجاده كثير من شعراء مصر في ذلك العصر ، وهو فن الوصف ، فالطبيعة وما فيها من حال بعثت على إغراء الشاعراء على وصفها ، وشعراء مصر الذين لم يكن لهم نصيب في وصف حال الطبيعة قبل عصر الطولونيين أو قل إنه لم يصلنا عنهم شيء في الوصف قبل عصر الطولونيين ،

((١)) بِيَتِيقْنَةِ الْمَدْهُورِ ج ١ ص ٣١٤

أصبح عندهم وصف الطبيعة فنا يقصد لذاته ، بعد أن صقلت الحياة الجديدة من اتج الشعراء وصفت قريحتهم ، ولعل الشاعر ابن طباطبا العلوى كان أقدر شعراء مصر في هذا العصر على الوصف ، وكان له من فنه بل من حياته ما جعله في طبيعة شعراء الوصف ، فهو شاعر قال الشعر حبا في الفن الشعري ، وعن طبيعة رجل فنان ، ولم يقصد لغرض آخر سوى اللذة الفنية ، فاستطاع أن يمتع نظره وحواسه بما حوله من الطبيعة ، وما فيها من جمال وباهة فتأثر بما رآه ، وأنشد الشعر تحت تأثير جمال الطبيعة الذي فتن به . وأخذ في تشبيه الموصوف وسبع عليه من الخيال ، وألبسه ثوبا يتفق مع من اتجه الشعرى الفنى ، في وصفه للبلال قال :

وَكَانَ الْمُلَالُ لَا تَبْدِي

شطر طوق المرأة للتذهيب

أو كقوس قد انحنى أو كنؤى^(١)

أو كنون في مهرق مكتوب^(٢)

ووصف البركة بقوله :

كم ليلة ساهرت أنجحها التي

عرصات (۲) أرض ماوها كسمائتها

قد سيرت فيها النجوم كما

فلك السماء يدور في أرجائها

(١) المؤي : الخفيف حول الخبراء أو الخديعة لمنع السبيل (٢) المغرب من ٥٠ .

(٣) عروضات وعروض وأعراض جمجمة كل بقعة بين الدور واسعة ليس

فَيْلَقُ

أحسن بها بحراً إذ التبس الدجى
كانت نجوم الليل من حسابها
ترنو إلى الحوزاء وهي غريبة
تبغى النجاة ولات حين نجاتها
تطفو وترسب في اصطفاق مياها
لا مستعان لها سوى إغاثها
والبدر يحقق وسطها فكانه
قلب لها قد ربع في أحشائها^(١)

وقد ذكرنا كيف كان شعراء مصر يذهبون إلى الأديرة وغيرها من أماكن المهو ، وكيف كانوا يصفون هذه البقاع ، ويتحدثون بطيئها وجهاها ، ويترنمون بجمال طبيعتها ، مما يدلنا على أن شعراء هذا العصر قد دقت شعورهم ، ورق فنهم ، فوصفو الطبيعة وجهاها ولا أشك أن شعراً كثيراً قد أنشد في الوصف ، ولكن هذا الشعر فقد ، ولم يبق منه إلا أبيات قليلة ، وهي إن دلت على شيء فهى تدل على أن الشاعر المصرى نظر حوله فرأى مالم يره غيره ، فأوجى إليه الشعر ، ووصف ما رأاه وما جال في خاطره ، وصفها قربه إلى الطبيعة فأدركها ، وفي هذا اللون من الفن يتجلى فن الشاعر المرهف الحس ، الدقيق الشعور ، الطبيعي الشعر . وهذا اللون نجدده يغلب على شعراء هذا العصر مما يميزهم عن شعراء العصور السابقة فإنما لم نعد شاعراً من شعراء العصور السابقة قال مثل الذى أنشده الشاعر صالح بن موسى في وصف البركة .

(١) حلبة السكريت س ٣٣٩ (مطبعة الوطن من ١٢٩٩ هـ).

من ذلك كله نستطيع أن ندرك إلى أي حد تطور الشعر في مصر في هذا العصر ، كما نلاحظ أن الشعراء عنوا بالمعانٍ كما أنهم عنوا بالألفاظ وتنسيقها وأكثروا من التشبيهات الرائعة التي أضافت إلى شعرهم جمالاً ، كما نجد بعض الشعراء قد كفوا بالزينة المفظية وتعتمد هم كما كان يتكلفهم أصحاب مسلم وأبي تمام ، وفي حديثنا عن الشاعر ابن جدار سنجد كيف تلاعب هذا الشاعر باللغة تلقاء غريباً لم يجد له مثيلاً عند شعراء البديع .

^{١١}) الديارات للشابتى ورقة ١٢٨ وما بعدها .

أغراض أخرى للشعر :

أما فنون الشعر التي طرقها شعراء مصر في هذا العصر فقد تحدثنا عن أكثرها كما أتنا بخش شعراً كثيراً في رثاء كقصيدة محمد بن الحسن ابن زكريا في رثاء الأخشيد التي أو لها :

في الرزايا روانع الأوجال والبرايا دريشة الآجال
وكذا الليل والنهر اعتبار للورى في تفكير الأحوال
كل شيء وإن تمادي مدها قصره للفناه أو للزوال^(١)
وكل قول مهلل بن يموت في رثاء الأخشيد أيضاً :

أى عز مضى من الإسلام ! أى ركن أضحي حديث انهدام
ذاق موتاً محمد بن طفع هو ليث الشرى وغيث الغام
فقد الناس مولى الإنعام فهم سائرون كالأنعام
مات رب العلا وراعي الرعايا وكافل الأيتام^(٢)

أما الهجاء فقد ذكرنا هجاً، ابن أبي داؤد في ابن طولون —
وظهر في هذا العصر الهجاء بين الشعراء ، كالذى كان بين صالح بن
مؤنس ، وعبد الله بن أبي الجوع^(٣) ، وفي هجاءهما نرى شيئاً من
الفحش كالذى كان في هجاء جرير والفرزدق ، وهناك لون
آخر من الهجاء لم يكن بين الشعراء ، إنما كان هجاء بين العلماء
كالذى رأينا في العصور السابقة ، وبخاصة هجاء القضاة ، فابن

(١) هذه القصيدة بأكملها في نهاية الأرب لتويرى ج ٥ ص ١٨٤ .

(٢) هذه القصيدة بأكملها في نهاية الأرب لتويرى ج ٥ ص ١٨٦ .

(٣) يتيمة الدهر ج ١ ص ٩٠٣ وما يليها .

سکرة الشاعر هجا الحسين بن أبي الشوارب القاضى المتوفى سنة
٣٤٩ هـ بقوله :

ولقد جنى قاضى القضاة حسين نجح أبي الشوارب
هذا الذى هتك الشرائع بالبدائع والمثالب
هذا المضمّن للفروع وللدمامه بغیر راکب^(١)
وبالرغم من أن القاضى محمد بن أحمد بن الحداد - الذى ولى
قضاء مصر سنة أربع وعشرين وثلاثمائة من الهجرة - كان عالماً
فقىها حتى قال عنه ابن زولاق : كان فقيهاً متبعداً يحسن علوماً
كثيرة منها علم القرآن وعلم الحديث والأسماء والكتنى والرواية
والنحو واللغة واختلاف العلماء وسير المحاهلة وأيام الناس والأنساب
ويحفظ شعراً كثيراً . غير مطعون عليه في قول ولا فعل بمحوعاً
على صيانة وطهارة وكان من محاسن مصر حاذقاً بعلم القضاة حسن
التوقعات ..^(٢) بالرغم من ذلك كله فلم يتركه خصوصه من الهجاء
فقد رميت في ولايته رقة في الجامع فيها أبيات شعر منها :
قولوا لحدادنا الفقيه العالم الماهر الوجيه
وليت حكماً بغیر عهد وغير عقد نظرت فيه
ووقدت فيها على البديه
وزرك مع وزر من يليه
وهل ترى ذاولست فيه
بحائز من مخالفيه
ما أنت فيه ومرتضيه
أنكرت حال من ابن عمرو
والعجب لمن يرتديه^(٣)

(١) السكنى ص ٥٤٦ (٢) شرحه ص ٥٥١ .

(٣) شرحه ص ٥٥٦ .

ولما بلغت هذه الآيات محمد بن موسى المعروف بسيبويه
المصري مدح ابن الحداد بقصيدة جاء فيها :
ما يضر البحر أمى زاخرا إن رمى فيه صبي بحجر
والقاضى محمد بن بدر الذى ول قضاه مصر ثلاث مرات
آخرها سنة تسع وعشرين وثلاثمائة ، هجا زميله القاضى ابن
الوليد — الذى عزل عن القضاة سنة ستة وثلاثين وثلاثمائة —
قصيدة طويلة منها :

لو كنت تخشى قضيات المعاد لما
أقيمت في كل أمر فاضح علما
أعمى عن الرشد في كل الأمور فقد
أصبحت في الدين بين الناس متهمًا
يا ابن الوليد تدبر ما أتيت به
ولا تكن للهوى مستكملًا عهـا
لو كنت تعلم قول الحق معتقدًـا
أو كنت تخشى عذاب الله معتصـا
لما استعنـت بمحـاد اللعـين وما
رأيت أنت له في صالح قدـما
جعلـته كتابـا يمضـي الأمـور ولمـ
يمـسـ في العلمـ قـرطـاسـا ولا قـلـياـ^(١)

فهذا الهجاء يكاد يكون صورة هجاء العلامة الذى رأيناه في العصر السابق للعصر الطولوني .

من هذا كله نستطيع أن ندرك تطور الحياة العامة في مصر ، وتطور الحياة العقلية والأدبية فيها ، وأن نقول إن مصر كانت عظيمة الحظ من العلوم الإسلامية والأدب العربية ، وساهمت في هذه الألوان المختلفة من الثقافات ، ظهر الأدب المصري مصطفغاً بالصبغة المصرية الخالصة فاختلف الأدب المصري عن الأدب في الأقطار الإسلامية الأخرى .

الشعراء الواقدون :

وكان الحياة في مصر أيام الطولونيين والأخشيديين تحذب إليها شعراء وعلماء الأقطار الأخرى ، وتحبب إليهم المقام في مصر أو الرحلة إليها ، وسأحاول أن ألم ببعض هؤلاء الشعراء الذين وفدوا على مصر في ذلك العصر .

المتنبي في مصر :

إذا تحدثت عن المتنبي في مصر فلن أتحدث عن وفوده على كافور الأخشيدى ومدحه لهذا الأمير ثم هجائه له ، هذا كله معروف متداول ، حدث عنه كثير من الأدباء والمؤرخين ، وألموا بجميع تفاصيه ، ولكنني سأحاول الحديث عمّا تركه الأدباء والمؤرخون فلا أشك أن المتنبي كانت له صلة ببعض المصريين وأنه أنشد شعرًا في بعض الشخصيات المصرية غير كافور الأخشيدى وفاته ، كما تحدثنا بعض الروايات أن من شعراء مصر من نقد المتنبي

وعاب شعره . وإن إخياة المتنبي في مصر تكاد تكون حلقة من سلسلة حياته في حلب ، وأن العلماء والشعراء الذين كانوا في خدمة سيف الدولة الذين هاجروه وأضطروه إلى الرحيل عنهم ، وجد أمثالهم في خدمة أمير مصر فهاجروه وأضطروه إلى الرحيل أيضاً .

ووجد المتنبي في مصر خصماً قوياً في شخص الوزير جعفر بن الفضل بن الفرات المعروف بابن حنزاية ، الذي وزر لأنوجور بن الأخشيد ثم لأخيه أبي الحسن على ثم لكافور إلى أن انقضت دولة الأخشيديين . وكان عالماً محدثاً كأكمل مكرماً لأهل العلم والحديث وقد رحل إليه أبو الحسن الدارقطني وصنف له مسنداً ، وكتب الدارقطني عنه مجالسه^(١) ، كان يطبع ابن حنزاية في أن يمدحه المتنبي كغيره من الشعراء ، وروى ابن خلkan أن المتنبي نظم قصيدة التي أطلقها :

ناد هواك صبرت أم لم تصبرا
وبكاك إن لم يجر دمعك أو جرى
في مدح الوزير ابن حنزاية ، فلما لم يرضه صرفها عنه ولم
ينشده إليها فلما توجه إلى عضد الدولة حول القصيدة إلى
مدح ابن العميد^(٢) ، فمعنى هذا أن الوزير كان حاقداً على المتنبي
لأن الشاعر لم يمدحه ، وكان الشاعر حاقداً على الوزير لأن
الوزير لم يرض نكانت نتيجة ذلك أن أخذ الوزير يغري

(١) راجع ترجمته في ياقوت ج ٧ ص ١٦٣ (طبعة فريد رفاعي بك) وابن خلkan ج ١ ص ١١٠ .

(٢) ابن خلkan ج ١ ص ١١١ .

الشعراء والعلماء بمعارضة المتنبي ، وكانت فرصة للشعراء المصريين الذين كانوا يعتقدون على المتنبي ما بلغه من قوة الشعر وذيوع الصيت فكثر حсад المتنبي في مصر ، منهم أبو القاسم ابن أبي العفير الأنصارى الشاعر ، الذى قيل إنه كان فى حضرة كافور الأختشيدى والوزير ابن حنزا به وأبى بكر بن صالح وكان المتنبي حاضراً ذلك المجلس ، فعارض المتنبي قول الأنصارى :

« نظر الحب إلى الحبيب غرام »

فقال المتنبي : إن العرب لا تقول إليه غرام ، وإنما تقول له .

فقال الأنصارى : تقول إليه ولديه وله وحروف الخفف ينبوب بعضها عن بعض !!^(١) ويحيل إلى أن أبا بكر بن صالح وابن حنزا به انتصر الشاعر المصرى لأنـه مدحـمـاـ وعـرـضـ بـالـمـتـنـبـىـ قوله :

أـمـاـ الثـانـ فـصـادـرـ بـكـ وـارـدـ

بـادـ بـماـ تـسـدـىـ إـلـىـ وـعـاـنـدـ
لـكـ يـاـ أـبـاـ بـكـ إـلـىـ صـنـائـعـ

أـيـقـظـنـ أـحـوـالـ وـجـدـىـ رـاقـدـ
أـوـلـيـتـىـ نـعـاـ مـتـ أـنـكـرـتـهـ

شـهـدـتـ عـلـىـ مـوـاهـبـ وـفـوـائدـ
وـقـصــائـدـ لـىـ فـيـكـ لـوـلـاـ أـنـهـ

كـامـ شـهـدـتـ بـأـنـهـ مـشــاهـدـ
وـلـهـنـ فـيـ عـيـنـ الـوـلـىـ شـواـهـدـ

تـرـىـ وـفـيـ عـيـنـ الـعـدـوـ جـلـامـدـ

(١) بـيـتـيـةـ الـدـهـرـ جـ ١ـ مـ ٣٣٣ـ .

لما تعرض لي بمحنة حاسد
أبدى الملام وكيف يرضي الحاسد
ما زال ينشد قائمًا حتى إذا
أنشدت عارضني لأنق قاعد
في مجلس أما الوزير فنكب
فيه يؤيده وأنت الساعد
ولي ولا أنا شاكر لسؤاله
فيه ولا هو الاجابة حامد^(١)

وورد في كتاب الصبح المنبي وكتاب أخبار سيبويه المصري لابن
زولاق أن محمد بن موسى الملقب بسيبوه كان يقول : مدح الناس
المتبني على قوله :

ومن نكـد الدـنيـا عـلـى الـحرـ أـن يـرـى
عدواً له ما من صـدـاقـه بـدـ
ولـو قالـ : ما من مـدارـاته أو مـداـجائـته بـدـ لـكـانـ أـحـسـنـ وـأـجـودـ
وـاجـتـازـ المـتـبـنيـ بـهـ ، فـوقـفـ عـلـيـهـ وـقـالـ : أـيـهاـ الشـيـخـ أـحـبـ أـنـ أـرـاكـ .
فـقـالـ لـهـ : رـعـاكـ اللهـ وـحـيـاكـ . فـقـالـ لـهـ : بـلـغـنـيـ أـنـكـ أـنـكـرتـ
عـلـىـ قـوـلـيـ :

« عـدـواـهـ مـاـمـنـ صـدـاقـهـ بـدـ » فـاـ كـانـ الصـوـابـ عـنـدـكـ ؟ فـقـالـ
لـهـ : الصـدـاقـةـ مـشـتـقةـ مـنـ الصـدـقـ فـيـ الـمـوـدـةـ ، وـلـاـ يـسـمـيـ الصـدـيقـ
صـدـيقـاـ وـهـ كـاذـبـ فـيـ مـوـدـتـهـ ، فـالـصـدـاقـةـ إـذـنـ ضـنـ العـدـاوـةـ ، وـلـاـ

(١) شرحه .

موقع لها في هذا الموضع ، ولو قلت ما من مدارته أو مدارجاته
لأصبت ، هذا رجل منا (يريد نفسه) قال :

أُتَانَى فِي قِصْرِ الْلَّازِ يَسْعَى

عدو لي يلقب بالحبيب

فقال المتنى : ألمع هذا غيره ؟ قال : نعم

وقد عبث الشراب بوجنبيه
فقلت له متى استعملت هذا
فالشمس أهدت لي قيضاً
فتوى والمدام ولون خدي

فتبسم المتنبي وانصرف ، وسيبوه يصبح عليه : أبكم الرجل
وجلائل الله . (٢) وهذا الشاعر الذى عرض المتنبي هو أبو بكر
محمد بن موسى بن عبد العزيز السكندي ولد بمصر سنة أربع وثلاثين
ومائتين وتوفي في صفر سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة . كان عالما
بعلوم القرآن والحديث أخذ عن النسائي وإسحق بن إبراهيم المنجنيق
والطحاوى وغيرهم وكان يعرف من النحو والغريب ما لقب بسيبه
بسبيه ، وتفقه على مذهب الشافعى وتلمذ لأبى بكر بن الحداد ،

(١) يفهم من كتاب الصباع المني أن هذه الآيات أسيبوية المصري ، ولكن هذه الآيات وردت في بقية الدهر ج ١ ص ٣٣٨ منسوبة إلى محمد بن عباس المصري .

(٢) الصبح المنى س ٦٣ وأخبار سيفويه المصري لابن زولاق نسخة خطية
بدار السكتب المصرية رقم ١٢٠ مع تاریخ .

وأخذ علم الاعزال عن الواسطى وجه المتكلمين بمصر إذ ذاك ،
وكان يظهر الكلام في الاعزال في الطرق والأسواق فيحتمل لما
هو عليه ، وكان شاعرا من خول الشعراء جالس أنوجور بن
الأخشيد أمير مصر ، والحسين بن محمد المادرانى وزير مصر ،
ونادهما ، كما كان محبوباً عند جميع المصريين ^(١) .

وبجانب هؤلاء الشعراء الذين عارضوا المتنبي ، وجد آخرون
صحبوا المتنبي وأخذوا عنه وحدثنا الثعالبى عن كثير منهم أمثال
عبد الله بن محمد بن أبي الجوع ^(٢) وصالح بن رشدين الكاتب وكان
أحد أئمة الكتاب المهرة في سائر الآداب صحب المتنبي وروى
شعره ^(٣) .

إذن انقسم الشعراء في مصر بين حاسد للمتنبي وبين صديق له
يروى عنه ، كما انقسم أمراء مصر في أمره ، فكان ابن حزابة الوزير
ساخطا عليه لأن الشاعر لم يمدحه ، ولذلك هجاه المتنبي مع هجائه
لكافور فقد قيل إن المتنبي قصد الوزير بقوله :

وكم ذا بصر من المضحكات ولكن ضحك كالبكا
بها نبطى من أهل السواد يدرس أنساب أهل الفلا ^(٤)
أراد بالنبطى الوزير ابن حزابة ، بينما مدح المتنبي رجلا من

(١) راجع أخبار سيبويه المصرى في معجم الأدباء . وبنيمة الدهر وكتاب
أخبار سيبويه المصرى .

(٢) بنيمة الدهر ج ١ ص ٣١٤ (٣) شرحه من ٣١٧ .

(٤) مالك الأنصار الممرى نسخة خطية بدار الكتب المصرية . وابن
خلikan ج ١ ص ١١٢ .

قيس هو عبد العزيز الخزاعي زعيم أهل الحوف ، وهو الذى هب
للسنبى وسائل الهروب من مصر ، ولذلك قال فيه المتنى :

لئن مر بالفسطاط عيشى فقد حلا
بعد العزيز الماجد الطرفين
تناول ودى من بعيد فـ——
جري سابقًا في المجد ليس برين

إذن اتصل المتنى بالمصريين ، كما ألقى عليهم بعض العلوم في
مصر ويحدثنا الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام أن المتنى قد
كتاب «المقصور والمددود» لابن ولادو أنه أخذ على مؤلفه غلطات
وأن المتنى أملأ على المصريين ما أخذه على ابن ولاد من أخطاء .

فإن صح هذا الخبر فإنه يدل على أن المتنى لم ينقطع عن المصريين كما
زعم القدماء بل كان يشارك في الحياة العلمية والأدبية في مصر (١).
وتحدى الأستاذ الدكتور طه حسين بك طويلاً عن أثر مصر في شعره
المتنى (٢) فذهب إلى أن مصر اضطرت المتنى إلى أن يعرف شيئاً من
الهدوء وإلى أن يكتب التفكير وإمعان النظر في الحياة وإلى أن يحاول أن
يستقصي أسرار الحياة ، فظهر في شعره في مصر رنة حزن وشكوى الدهر
ثم ينتهي به الأمر إلى لون من السخرية بالدهر وحوادثه وإلى الاستهزاء
بكل ما يمر به في الحياة ، وأن يهزأ بالناس والمجتمع وبأمير مصر

(١) راجع ذكرى أبي الطيب للأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام س ٣٠٧
وما بعدها .

(٢) مع المتنى للأستاذ الدكتور طه حسين بك من س ٥١١ إلى ٦٤٦ .

الذى كان رفعه فى شعره وقد أسبب أستاذنا الجليل الدكتور طه بك
فى ذلك كله فليرجع إلى كتابه الممتع فيه كل غناه

الناشئان الأكبر والأصغر

أما الناشئ الأكبر ، فهو أبو العباس عبد الله بن محمدالمعروف
بابن شرشير أو الناشئ الأكبر ولد بالأنبار ، وأقام زمانا طويلا
بي بغداد ، وبها أنشد جل شعره ، وتلقى علومه التي عرف بها ،
وتكتب بهذه العلوم ، فذاع فضله ، وانقاد له الشعر وفنونه ، حتى
استطاع أن يعارض أشعار القدماء ، وباتساع علمه في الكلام استطاع
أن ينقض علل النحاة ، فرمأه أعداؤه بالوسوسة ، ووشوا به ، نفاف
قوة أعدائه ، نفرج إلى مصر يتجر بعلومه ^(١) . لم نعلم أن الناشئ
الأكبر اتصل بأمير من أمراء مصر ، إذ أخذ من عليه وقوه فطنته
مكتسباً يعنيه عن سؤال الأمراء ، فشكث في مصر يعلم ما حزقه حتى
سنة ثلاثة وتسعين ومائتين .

كان هذا الشاعر قليل الحظ بعد مماته كما كان يائساً في حياته ،
فلم يعن بشعره أحد حتى صاع ديوانه ، ولم يصلنا من شعره إلا الفزر
اليسير ، مع أن الرواة أجمعوا على أن الناشئ الأكبر يعد في طبقة
ابن الرومي والبحترى وأنظارهما ^(٢) ثم هو يمتاز عن غيره من الشعراء
بسعة اطلاعه في العلوم ، وكان أستاذ أبي الحسن الأشعري المعزلى
صاحب المذهب المعروف ، وقد وصلنا شيئاً من نظمه في الكلام
يدلنا على مقدراته واطلاعه ، فمن ذلك قوله :

(١) ابن خلkan ج ١ من ٢٦٣ (٢) نمرجه .

ونحن أنساً يعرف الناس فضلنا
بأنسنا زينت صدور المحافل
تثير وجوه الحق عند جوابنا
إذا أطلبت يوماً وجوه المسائل
صحتنا فلم تترك مجالاً لصامت
وقلنا فلم تترك مقالاً لسائل^(١)

ويروى البغدادي في تاريخه أن للناشئ قصيدة واحدة في فنون
من العلم على روى واحد تبلغ أربعة آلاف بيت ، وروى ابن كثير
في «البداية والنهاية» قصيدة للناشئ في نسب الرسول صلى الله عليه
 وسلم وهي طويلة تبلغ نحو ألف بيت ، ووصفها ابن كثير بقوله
 «وهذه القصيدة تدل على فضيلته وبراعته وفصاحته وبلاعته ، وعلمه
 وفهمه ، وحفظه وحسن لفظه ، واطلاعه واضطلاعه ، واقتداره على
 نظم هذا النسب الشريف في سلك شعره ، وغوصه على هذه المعانى
 التي هي جواهر نفيسة من قاموس بحره»^(٢) ، وأورد الحصري في
 كتابه «زهر الآداب» مقالاً من كتاب للناشئ في الشعر ، أوضح
 فيه معنى الشعر وأغراضه^(٣) .

ولست أدرى أى شعر الناشئ قيل في مصر ، وأى كتبه التي
 ذكرها المؤرخون ألقت بها ولا شك أن الحياة العقلية والحياة الأدبية
 في مصر كان لها أثر كبير في هذا الشاعر ، وربما أنشد الناشئ بمصر

(١) زهر الآداب ج ٤ من ٣

(٢) البداية والنهاية نسخة فتوغرافية بدار الكتب المصرية .

(٣) زهر الآداب ج ٣ من ٤٩ .

بعض أشعاره في الصيد . فقد رأينا شعراً مصرياً في هذا العصر كانوا يذهبون إلى الصحراء وتلال المقاطع للطاردة والصيد ، وقالوا أشعاراً في ذلك ، فربما قلدهم الناشئ وتحدى في جوارح الصيد وآلاته ، وما يتعلّق به ، وربما أخذ كشاجم شيئاً من أشعار الناشئ مستشهدًا بها عندما وضع كتابه في المصايد والمطارد .

أما الناشئ الأصغر فهو علي بن عبد الله بن وصيف وكان متكلماً بارعاً كسميه ^(١) أخذ علم الكلام عن أبي سهل بن نوبخت المتكلم ، كما كان من كبار الشيعة ، وفُد على السکوفة سنة خمس وعشرين وثلاثمائة وأملى شعره بجامعتها ، وكان المتني وهو صبي يحضر مجلسه ^(٢) ، ووفد على سيف الدولة بحلب ومدحه ، ويحدثنا ياقوت أن الناشئ الأصغر قد كافوراً بمصر وامتدحه ، وامتدح ابن حنزاً و كان ينادمه ^(٣) ولكن لم يصلنا شيء من شعره في مصر ، وتوفي سنة ست وستين وثلاثمائة ببغداد .

كشاجم

وفد على مصر في ذلك العصر الشاعر الأديب أبو الفتح محمود ابن الحسين المعروف بكشاجم . وهو من أهل إقليم الرملة الذي كان تابعاً لمصر في ذلك العصر ، وفهم من ديوانه أنه جاء مصر عدة مرات . وكان كلاماً بعد عنها حن إليها . وإلى ما بها من رياض وحوائط ، وإلى حياة الله ومحبونها مما تصبو إليه نفس كشاجم الماجنة :

(١) ابن خالكـان ج ١ ص ٣٥٤ .

(٢) شرحـه .

(٣) معجم الأدباء ج ٥ ص ٢٢٥ (طبعة مرجوـيلـت) .

قد كان شوقى إلى مصر يؤرقنى
فاللهم عدت وعادت مصر لى دارا
أغدو إلى الجيزة الفيحاء مصطحبنا
طوراً وطوراً أرجى السير أطوارا
يننا أسامى رئيسا في رياسته
إذ راحت أحسب في الحانات خمارا
أما الشباب فقد صاحبت شرم
وقد قضيت ليلات وأوطارا
من شادن من بنى الأقباط يعقد ما
يبين الكثيب وبين الخصر زنارا^(١)
أخذ كشاجم بحظ وافر من حياة اللهو التي كانت بمصر، وذهب
كما ذهب شعراء مصر إلى الأديرة ، ففي دير القصیر كان كشاجم
يتصيد الظباء اطعامه ، أو ليتتخذ من لحمها ما يأكله مع شرابه ، بين
عرف القيان وغنائمها .

سلام على دير القصیر وسجنه
بنفات حلوات إلى النخلات
منازل كانت لى بهن هارب
وكانت مواخيرى ومنتزهات
هناك تصفو لى مشارب لدنى
وتصحب أيام السرور جانى^(٢)

(١) ديوان كشاجم طبع بيروت سنة ١٣١٣ هـ .

(٢) ديوان كشاجم

فهذا يدلنا على أن الشاعر اخترط بالمصريين ، وهذا كما هوا ،
والتمس من مجونهم ما يتحدث به في هذا الشعر ، وتأثر بالبيئة المصرية
الخالصة فوصفها في شعره .

تدلنا حياة كشاجم على أن الشاعر كان متكتساً بشعره ، ولا
ندرى من اتصل من المصريين ، وإن كنت أرجح أنه مدح كافوراً
ثم عاد فهجاه ، وعرض به في أشعاره ، فقد قيل إن الشاعر كان له
غلام اسمه كافور فكان يهجو غلامه ويعرض بالأمير :

حيث سمي في بردہ وأخطاك اللون والراحة
كذلك هجا القاضي عبد الله بن محمد بن الخصيب المتوفى سنة
سبعين وأربعين وثلاثمائة ، وكان القاضي قد اشتري داراً كبيرة ،
وعمرها ، وأقام فيها دعوة عظيمة فقال كشاجم :

اشترى الدار الكبيرة ودعا فيها الوكيره
صغر الباب وفي تصغيره أشأم طيره
قبره لا شك فيها بعد أيام يسيره^(١)
وقال فيه أيضاً :

قبح الله الخسي فما أقبح أمره
اشترى الدار التي كا نت قد يمال ابن شعره
وهي الدار التي يبترز فيها الله عمره
لا يتم الحول حتى يجعل المجلس قبره^(٢)
ومهما يكن من شيء فإن كشاجما كان فقيراً ، متكتساً بشعره ،
ولكنه لم يستطع أن يفوز بالمال الذي كان يريد ، ولعل غروره

(١) الكندي م ٥٧٨

(٢) شرحه *

واعتقاده بأنه نابغة عبقرى ، وأنه أشعر خلق الله وأكثرهم تأديبا .
لعل هذا كله كان سبباً في شقائه ، فقد زعم أنه نبي الشعر :

على أني نبي الشعر قد جئت على فتره

ويخيل إلى أن كشاجما اتخد مصر مقرأ له ، فقد ترك بها أولاده
وأسرته ، فقد روى تعالى أن الشاعر المصرى الهجاء صالح بن
مؤنس هجا ابنى كشاجم أبا النصر وأبا الفرج بقوله :

يا ابني كشاجم أنتها مستعملات مجربان
مات المشوم أبوها خلفتها على المكان
وقرفنا في عصرنا فعلتنا فعلم القران
لغلام أسعار الطعا موئية الملك الهجان^(١)

* * *

ووفد على مصر في ذلك العصر أبو الفيض سوار بن شراعة الشاعر
الذى اتصل ببعض أدباء مصر وشعرائها ، وقد ذكرنا أنه كان صديقاً
وفياً لابن الداية ، وكان سبب انتشار شعر ابن الداية في العراق .

كما وفد على مصر عدد كبير غير الذين تحدثنا عنهم ، وقد
يطول بنا الأمر لو تحدثنا عنهم جميعاً . كارحل عدد كبير من شعراء
المصريين إلى الأقطار الأخرى ، فالشاعر المغم المصرى أبو الحسن
محمد بن سليم الشيباني كان من شعراء سيف الدولة^(٢) ، ورحل كثير
من العلماء في طلب العلم كغيرهم من علماء وشعراء الأقطار الأخرى .
فكان الرحلة في طلب العلم من أكبر المؤثرات التي ساعدت
على انتشار الثقافات المختلفة ، وألوان المذاهب الأدبية والعلمية .

(١) يتنية الدهر ج ١ ص ٤١٢

(٢) الفهرست ص ٢٤٠

لحة عن أشهر شعراء ذلك العصر

ابن جدار :

هو أبو القاسم جعفر بن محمد بن أحمد بن جدار ، ذكره الصوالي في كتاب «أخبار شعراء مصر» وقال : لم يكن بمصر مثله ، كثير الشعر حسن البلاغة ، عالم له ديوان شعر ، ومكاتبات كثيرة حسنة .^(١) كان كاتباً من كتاب الطولونيين ، وشاعراً من شعرائهم ، واحتضن بالعباس بن أحمد بن طولون ، فكان ينهى إليه كل ما كان يسمعه من الأخبار ، وينقل إليه ما يدور بقصر ابن طولون ، ويروى الحصري : أن أبا حفص عمر بن أيوب كاتب أحمد بن طولون قال لا ابن جدار : يا أبا جعفر ، إنما مجلس المدام مجلس حرمة ، وداعية أتس ، ومسرح لبانة ، وندامهم ، ومرتع لهم ومعهد سرور ، وإنما توسطته عند من لا يتهم غيه . ولا يخشى عتبه وقد اتصل بي ما تنهيه إلى أميرنا أبي الفضل ، أعز الله أمره ، من أخبار مجالستي ، فلا تفعل ! .. فاعتذر ابن جدار وحلف ما فعل ، وقام من مجلسه .^(٢)

وكان لشعر ابن جدار أثر كبير في عصيان العباس بن أحمد بن طولون ، فقد قيل إن العباس لما هم بالانخلال عن طاعة أبيه ، كان مرتبك الرأي ، ولكن ابن جدار أنشده قصيدة يحرضه فيها علىعصيان وجاه في هذه القصيدة .

(١) معجم الأدباء ج ٥ ص ٤١٥

(٢) زهرة الآداب ج ٢ ص ١٤٣

إذا هممت فلا ترجع وقم وثب
فأنت أرفع من يسمو إلى الرب^(١)

ولما استبد العباس بالسلطان استوزر ابن جدار ، وخرج معه
إلى برقة ، ولكن ظفر به أحمد بن طولون حين سيق له ولده الثائر
وأصحابه الذين أيدوه في حركته ، بل الذين دفعوه إليها ، فبنيت
دكة عظيمة رفيعة السمك ، وأحضر ابن جدار من خاصمه العباس ،
فضرب ثلثمائة سوط ، وقطعت يداه ورجلاه ، وألقى من الدكة سنة
ثمان وستين ومائتين^(٢) .

كان ابن جدار صاحب لهو ، يميل إلى المجون ، مع أن غزله
الذى وصلنا يدلنا على أنه عفيف ، مع رقة وعاطفة ، من ذلك قوله
في قينة أعجب بها وفتن بمحالها ، وطرب لصوتها

جاءت بوجهه كأنه قمر
على قوام كأنه غصن
ترنو بعينين من ليانهما
من وسن في جفونها وسن
عند فلم يبق في جمارحة
إلا تمنت لو أنها أذن^(٣)
ومع ميله إلى اللهو نراه قد أظهر شدة تدينه في بعض أشعاره ،

(١) المغرب من ٨٦ .

(٢) المقرئي ج ٢ من ١١٥ والسكندي من ٢٢٤ .

(٣) معجم الأدباء ج ٥ من ٤١٥ .

فكان يطلب العفو ، ويستغفر ربه ، حتى نكاد نشك أن هذه الأشعار
في الرهد هي من قول ابن جدار

يارب لي ألف ذنب إن تعف يارب فاعف جما
فابرد بعفو غليل قلب كأن فيه رسليس حي^(١)
ويمتاز شعر ابن جدار بكثرة تلابعه بالألفاظ وتشبيهاته ، ولكن
لم يصلنا من ديوانه الذي حدثنا عنه ياقوت عن الصولى إلا عددة
أبيات قليلة مبعثرة في الكتب ، ومن شعره الذي أظهر فيه صنعته
البيانية ، وتتكلفه في قول الشعر حتى أنا بن عبد ربه قال عندماروى
هذا الشعر : وقد يأتى من الشعر ما هو خارج عن طبقة الشعر منفرد
في غرائبه وبديع صنعته ، ولطيف تشبيهه كقول جعفر بن جدار
كاتب ابن طولون^(٢) .

وطفلة رخصة المرانى ليست تجلى ولا تسمى
ألا وسلك من اللآلئ تعجز من يخرج المعنى
من طفلة بضنة لعوب تلقاءك بالحسن مستينا
منهن ريا وكيف ريا ريا إذا لاقت المشمى
تسحب ذيلين من خلوق قد أفنينا زعفرانقا
كأنما أحنيا عليها من ظيب ما بشرا وشما
فالفيما زعفران قم فانغماسا فيه واستحاما
فهل تظن اسمها المريا يفوح لا مرطها المذما
هييات يا أخت أهل بما غلطت في الاسم والسمى

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ٤٢٨ .

(٢) العقد الفريد ج ٣ ص ٤٢٦ .

لو كان هذا وقيل سما
مات إذا من يقول سما
قد قلت إذ أقبلت تهادى
كطعة البدر أو أنتا
لكتنى قد سكرت سما
عاتبني الدهر في عذارى
بأحرف فارعوبت لما
قوس ما كان مستقيما
وأيضاً ما كان مدقعاً
وكيف تصبو الدوى إلى من
كان أخاه ثم صار عما
لى عنك يا أخت أهل يم
فلست من قدك المحمى
أذهلني عنك خوف يوم
ما سكريته يدى رهيناً
تحشر فيه الجنار زفاً
تقول هذى لطالبيها
هيـت ، وهذى لهم هليـا
نفسى أولى بأنـ آذـا منـ أمرـها كلـ ماـ استـدـماـ
ففي هذه القصيدة ظهر تلاعب ابن جدار باللفظ مما أضعف
المعنى وشوهد ، كما تظهر لنا وحدة القصيدة في الشعر المصري ،
وعدم استقلال المعنى في كل بيت كاظن القدماء في الشعر العربي .

منصور الفقيه

هو منصور بن إسماعيل بن عمر أبو الحسن التميمي المصري
الضرير ، كان إماماً في الفقه ، وفقه الشافعى على الأخص^(١) ، ووضع

(١) هذه القصيدة بأكملها في العقد الفريد ج ٣ ص ٤٢٦ .

(٢) طبقات الشافية الكبرى ج ٢ ص ٣١٧ .

مؤلفات في المذهب الشافعى منها « الواجب والمستعمل » ، والمسافر والهدایة وغير ذلك^(١) . اتفق ابن خلikan وياقوت^(٢) على أن الشاعر ولد في رأس العين بالجزيرة وأنه قدم مصر صغيراً ، وأخذ فيها جميع علومه كأنه أشد بها جل أشعاره ، وصار له منزلة رفيعة عند القاضى أبي عبيد ، بل صار من خواصه الذين كان يخلو بهم للذاكرة والحادنة ، ولكن حل البعض محل هذا الود ، وانقطع الإخاء بسبب المناقشات الفقهية ، فقد قيل إن أبيا عبيد كان له كل عشية مجلس يذاكر فيه رجالاً من أهل العلم ، وفي عشية منصور حدث بينهما مجادلات ، انتهت بخضام العالمين ، فتعصب الأمير ذكا ، وجماعة من الجند لمنصور ، وتعصب جماعة من العلماء على رأسهم ابن الريبع الجيزى للقاضى ، ثم حدث أن شهد ابن الريبع الجيزى على منصور بكلام زعم أنه سمعه منه ، فقال القاضى إن شهد عليه آخر بمثل ما شهد به ابن الريبع ضربت عنقه ، بخاف منصو خوفاً شديداً حتى اقتل ومات سنة ست وتلائمة^(٣) وقيل إنه كان حول نعشة آلاف من الجند ، أظهروا مسب القاضى ، وقدفوه ، وندم القاضى نفسه على ما كان منه وتأسف على ما فاته من منصور .

رحل منصور إلى العراق حيث اتصل بال الخليفة المعز العباسي
ومدحه بقوله :

(١) ابن خالكان ج ٧ ص ١٢٥ (٢) مجمع الأدباء ج ٧ ص ١٨٥ .

(٢) ابن خلkan ج ٢ ص ١٢٦ (٤) المغرب س ٩٤ .

وكل الرواية بمحمدون على جزالة شعره وجودته ، وأنه لم ينشد
قصائد مطولة ، بل كل شعره مقطوعات ، روى الحصري عن شعره
ـ وهو على المقطوعات ، لا تزال تندر له الآيات مما يستطرف معناه
ويستحلي معزاه ، ويبيهى سناه ^(١) . وأورد له الثعالبي كثيراً من
الآيات التي جرت مجرى الأمثال لدقه معانها كقوله :

شاهد ما في مضمونى من صدق ودى مضمونك
فأريد وصفه قلبك عن يخبرك ^(٢)
وكقوله :

من قال لا في حاجة مطلوبة فما ظلم
وإنما الظالم من يقول لا بعد نعم ^(٣)
وعاب عليه بعض المصريين التفقة فأجابهم :
عاب التفقة قوم لا عقول لهم
وما عليه إذا عابوه من ضرر
ما ضر شمس الصحرى والشمس طالعة
أن لا يرى صورها من ليس ذا بصر ^(٤)
ويخيل إلى أن الشاعر كان يكذب التجيم الذى كان منتشرًا بين
طبقات الناس وظهر ذلك في شعره .
من كان يخنثي زحلا أو كان يرجو المشتوى

(١) زهر الأدب ج ٣ ص ٣٢١ .

(٢) لطائف المعارف لسنة خطبة عكتب الأزهر رقم ٥٦٢ .

(٣) شرحه (٤) طبقات الشافية ج ٢ ص ٣١٧ .

فإذا من — وإن كان أبي منه بري^(١)

وكهوله :

إذا كتبت زعم أن النجوم تضر وتنفع من تحتها
فلا تذكرن على من يقول بأنك بالله أشركتها^(٢)

من ذلك يظهر شدة حرمه على دينه ، وعلومه الإسلامية الحالصة
التي تنكر مثل هذه الأقوال التي انتشرت بين الناس ، ولا شك أن
مثل هذا الرجل كان بعيدا كل البعد عن حياة فهو التي جرفت
أكثـر شعراـء مصر ، فكان هذا الشاعـر يـمـثل طبقةـ الشـعـراـءـ العـلـماءـ
الـذـيـنـ لمـ يـأـخـذـواـ بـنـصـيـبـ مـنـ تـطـوـرـ الـحـيـاةـ فـيـ عـصـرـهـ .

ابن طباطبا :

كان بمصر بعض سلالة على بن أبي طالب . وأقاموا بها مكرمين
معززين ، وكانوا على اتصال حسن بالولاة والأمراء ، لا يعنيهم من
أمر البلد السياسي شيء ، فرکنوا إلى الآداب والعلوم ، وأخذوا من
هذه وتلك ، وأنشدوا الشعر ورووه ، فمن أعظمهم شأنـاـ فيـ ذـلـكـ
أبو القاسم أحمد بن محمد بن اسماعيل بن ابراهيم طباطبا بن اسماعيل
بن ابراهيم بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب^(٣) كان عـلـاماـ
فاضلاـ ، وإليـهـ كانت نقابة الطائـيـيـنـ بمـصـرـ^(٤) ، كـانـ شـاعـرـاـ ، وـكانـ
ابـنـاهـ أبوـ محمدـ القـاسـمـ بنـ أـحـمدـ وـأـبـوـ اسمـاعـيلـ اـبـرـاهـيمـ بنـ أـحـمدـ

(١) معجم الأدباء ج ٧ ص ١٨٥ (٢) شرحه .

(٣) ابن خـلـكـانـ جـ ١ـ صـ ٣٩ـ (٤) المـنـرـبـ صـ ٤٩ـ

شاعرين^(١) وكان ابن ابي الحسين بن ابراهيم شاعراً ، وقد روی
لهم صاحب ينیمة الدهر بعض أشعارهم ، وإذن نستطيع أن نعد أسرة
بني طباطبا في مصر من أسرات الشعر ، ولكن أكثر شعراء هذه
الأسرة لم يكونوا في عصرنا هذا الذي تورّخه ، — وسنعرض
لل الحديث عنهم في بحثنا عن الأدب المصري في عهد الفاطميين —
ويكفي أن تتحدث عن أبي القاسم أحمد بن محمد . درس هذا الشاعر
الأدب وأكثر من إنشاد الشعر ، وظهر أثر دراساته في شعره ،
فكان يميل إلى الأخذ بمذهب مسلم وأبي تمام في الإكثار من
الزينة البدعية ، والتشبيهات وما إلى ذلك من ألوان الصنعة البليانية ،
وأكثر شعره الذي وصلنا في الغزل ، والغزل المبني على القصص
حتى يخيل إلينا أن الشاعر كان متاثراً بمذهب عمر بن أبي ربيعة ،
ولكنه يختلف عن عمر ، فقد كان عفيفاً في شعره ، وهذا أمر
طبيعي لمن كان في مثل مكانته الأدبية والدينية ، فعزله يقوم على
الوصف والخوار دائماً كقوله :

عيرتني بالنسوم جوراً وظلت لما قلت : زدت الفؤاد هما وغا
لم أنم لذة ، ولا نمت إلا طمعاً في خيالكم أن يلما^(٢)
وك قوله أيضاً :

قالت : أراك خضبت الشيب . قلت لها :

ستره عنك يا سمعي وبصرى

فاستضحكـت ثم قالت من تعجبها

تكاثر العش حتى صار في الشعر^(٣)

(١) ينیمة الدهر ج ١ ص ٣٣٠ (٢) شرحه ج ١ ص ٣٣٩

(٣) شرحه

ويخل إلى أن ابن طباطبا أصيب بفقد حبيب عزيز لديه ، إذ
ظل يذكره حينا بعد حين ، ويكثر من الحديث عنه في شعره ،
فقال مرة :

خليل إني للثريا لحاسد
وإني على صرف الزمان لو اجد
أبيق جميرا شملها وهي سبعة
وأ فقد من أحبتها وهو واحد
كذلك من لم تخترمه منهية
يرى عجبا فيما يرى ويشاهد ^(١)
وقال مرة أخرى :

لَا والّتى تركتني يوم فرقتها
كأنما الرمل في عيني منتشر ^(٢)
وقال مرة ثالثة :

ما اخترت تبديل المودة ساعة
بعد الذى هجر الحمى وجفاف ^(٣)
ومن يدرى لعل هذه الأشعار قيلت في زوجه الذى تكون قد
توفيت وتركته ينشد مثل هذه الأشعار فيها .

ولابن طباطبا بعض المقطوعات في الخز كقوله فيها :
يا بدر بادر إلى بالكأنس فرب خير أني على يأس
ولا تقبل يدي فإن فى أولى بها من يدى ومن رأى
لاعاش فى الناس من يلوم على حبي وعشقي لاحسن الناس ^(٤)
وكقوله :

قل للذى حسنت منه خلاائقه
باكى صبو حبك واسبق من تسابقه
أما ترى الغيم بجموعا ومفترقا
كعاشق زار معشوقة يودعه قبل الفراق فآل لا يفارقه ^(٥)

(١) المغرب ص ٤٩ (٢) المغرب من ٤٩

(٣) شرحه من ٥١ (٤) بذمة الدهر ج ١ ص ٣٢٩ (٥) شرحه

وقد ذكرنا أن ابن طباطبا يعد من أقدر شعراء مصر في هذا العصر في وصف الطبيعة ومحاكاتها ، ولعل ما قاساه من فراق من أحب جعله يهيم إلى أحضان الطبيعة ينادي من غاب عنه ، ليأخذ من الطبيعة سلوة ، أنظر إلى قوله :

رب ليل صحبة كاسف البا
ل كثيراً حليف هم شتت
تحت سقف من الزمر د قد رصع بالدر والياقوت
اختلف المؤرخون في وفاة ابن طباطبا فذكر ابن سعيد عن القرطى
أنه توفي سنة اثنين وخمسين ثلاثةمائة^(١) ونقل ابن خلكان عن المسبحي
أنه توفي سنة خمس وأربعين وثلاثمائة^(٢) وقال صاحب « مطالع
البدور في منازل السرور » أنه توفي سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة^(٣).

خاتمة

لعلك أدركت الآن كيف تطورت مصر في هذا العصر منذ دخولها العرب فاتحين ، ثم استقروا بها ، حتى دخلها جوهر الصقل قائد المعز لدين الله الفاطمي سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة من الهجرة ، وانتزع مصر من الأشخidiين ، فقد كان أثر العرب في مصر كبيراً جداً ، تدركه في تحول المصريين عن لغتهم اليونانية والقبطية والاتخاذهم اللغة العربية لغة للتحاطب ولغة لآدابهم ، ثم تدركه في هذه الدراسات الإسلامية والعربية وازدهار هذه الدراسات في مصر ، حتى صارت

(١) المغرب من ٥١

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٤٠ (٣) ج ١ ص ٣٦

مركزآ من مراكز الحياة العقلية في الأقطار الإسلامية .
ومع ذلك كله فقد استطاعت مصر أن تحفظ بشخصيتها ، فقد
اضطرت العرب إلى أن يندموا في المصريين ، وأن يكون الجميع
شعباً واحداً هو الشعب المصري الإسلامي .

وقد تلقت مصر جل المدنities القديمة ، وأخذت منها بحظوظ
تختلف قوة وضعفاً ، ولكن مصر استطاعت أن تمصر هذه المدنies
جميعاً ، فلما أن جاءها العرب والمسلمون يحملون الثقافة الإسلامية
العربية ، التقت هذه الثقافة بالثقافات التي كانت في مصر قديماً ،
وامرتئت هذه الثقافات جميعاً ، فكان ثمرة هذا المزج هي الثقافة
المصرية الإسلامية التي ظهرت بعد ذلك العصر الذي أرخته في
هذا الكتاب .

ولعلك أدركت أيضاً أثر مصر في الشعر الذي أوردنا لك صوراً
منه ، فإنك لم تر المعانى البدوية القديمة ، ولا تشبيهات الجاهلين
أو شعراء الأمويين ، وظهر في شعر المصريين الآراء المصرية
والحوادث المصرية ، التي لا تصدر إلا عن قوم عاشوا في مصر .
وإذن فقد كان أثر مصر في الشعر كبيراً كما كان أثراًها في العلم كبيراً .
(وبعد) فهذا البحث الذي تحدث فيه عن مصر في القرون
الثلاثة الأولى لل مجره ، ما هو إلا مقدمة لبحث آخر ، أرجو أن أقدمه
للطبع قريباً وهو بحث - الأدب في مصر الفاطمية - وهو تاريخ
الأدب في العصر الذي أصبحت فيه مصر زعيمة الأقطار الإسلامية
في الآداب والعلوم .

ثبت بالمراجع والمصادر

- آثار البلاد للقرزوني طبع جوتنجن ١٨٤٨ م
- اتماض الحنفيا بأخبار الأئمة الخلفاء للقرزوني « ليسك ١٩٠٩ م
- أحسن ما سمعت للشاعري مطبعة الجمهور مصر ١٣٢٤ هـ
- أخبار سيفوه المصري لابن زوالق نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ١٢٠ ع تاريخ
- أخبار قبط مصر للقرزوني طبع جوتنجن ١٨٤٥ م
- أخبار مصر عبد اللطيف البغدادي أكسفورد ١٨٠٠ م
- أدب النديم لكتشاجم بولاق ١٢٩٨ هـ
- الأغانى للأصفهانى مطبعة الجمهور ١٣٢٣ هـ
- أنباء الرواية على أنباء النحاة للقفظى نسخة فتوغرافية بدار الكتب المصرية رقم ٢٥٧٩ تاريخ
- الاتصال لواسطة عقد الأمصار لابن دقاق ج ٤ و ٥ طبع بولاق ١٣٠٩ هـ
- الأنساب للسمعاني طبع ليدن ١٩١٢ م
- بدائع البداية لابن ظافر المصري بولاق ١٢٧٨ هـ
- بدائع الزهور لابن إياس ١٣١١ هـ
- بغية الوعاء للسيوطى مطبعة السعادة بالقاهرة ١٣٢٦ هـ
- بيان والإعراب عن زل مصر من الإعراب مطبعة المعارف ١٣٣٤ هـ
- للقرزوني تاريخ ابن الأثير طبع بولاق ١٢٩٠ هـ
- ابن خلدون ١٢٨٤ هـ
- ابن الراهب بيروت ١٩٠٣ م
- أبي صالح الأرمنى أكسفورد ١٨٩٤ م

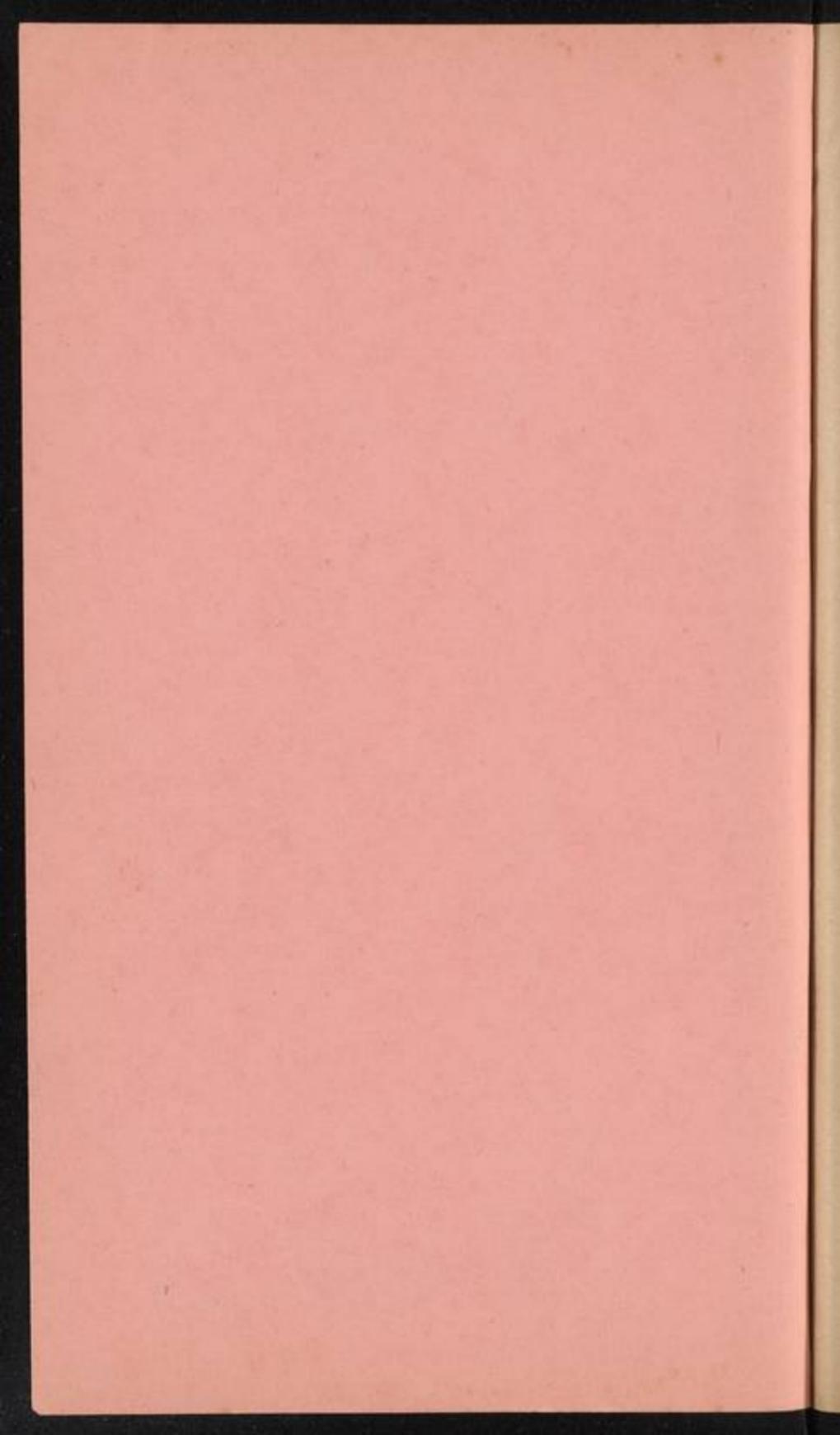
- تاریخ الطبری
الاسلام للذهبی
- طبع المطبعة الحسينية مصر
نسخة خطية بدار الكتب المصرية
- رقم ٤٢ تاریخ
طبع مطبعة التوفيق ١٩٢١ م
دار الحلال
- د بیروت ١٩٠٥ م
د لیدن ١٨٨٣ م
- د ووصف الجامع الطولونی للإسٹاذ دار الكتب ١٩٢٧ م
عکوش
- تراجم رجال صحيح البخاری
نسخة خطية بدار الكتب المصرية
- رقم ٣١٤ (حدیث)
طبع دار السعادۃ ١٣٢٦ هـ
القاهرة ١٣٤٥ هـ
- نثرات الأزرق لابن حجه
الجامع في الحديث لعبد الله بن وهب نسخة فتوغرافية بمكتبة جامعة
فؤاد الأول
- الجوهر النفيس في أشعار الإمام ابن ادریس طبع مطبعة النيل ١٣٢١ هـ
حدیث الأربعاء للإسٹاذ الدكتور طه الطبعة الأولى ١٣٤٤ هـ
حسین بك
- حسن الجع فیما قيل في قصر الشمع نسخة فتوغرافية بالمکتبة الامیرية
رقم ٢٥٤٤
- حسن المعاشرة للسيوطی
حلبة المکتب للنواجی
- طبع دار الوطن ١٢٩٩ هـ
١٢٩٩ هـ
- الجريدة التفسیة في تاریخ الکنیسة الطبعة الثالثة ١٩٢٣
- در السحابة فیمن نزل مصر من الصحابة نسخة خطية بدار الكتب المصرية
للسیوطی
رقم ٣٩ م

- الدر المنظوم فيها ورد في مصر من نسخة خطية بدار الكتب المصرية
موجود ومعدوم للجوهرى رقم ٨٦٣ دمية للقصر للباخرزى
طبع حلب ١٩٣٠ نسخة خطية بدار الكتب المصرية الديارات للشاشة
رقم ١٧٥٦ طبعة محي الدين الخطاط ديوان أبي تمام
طبع فينا ١٩٠٢ د ابن قيس الرقيات
د بيروت ١٣١٣ د كشاجم
د مصطفى محمد د المتنى
د مصر ١٢٧٧ د أبي نواس
ذكر دخول قبط مصر في دين الفصرانية د ١٨٢٨ م ذكر ديار مصر
الرحمة العينية بالترجمة المذهبية لابن حجر د بولاق ١٣٠١ م
رفع الإصر عن قضاة مصر لابن حجر نسخة خطية بدار الكتب المصرية
رقم ١٠٥ زهر الآداب للحضرى
المطبعة الرحمنية ١٣٤٥ م سيرة الآباء البطاركة لابن المفعى
طبع بيروت ١٩٠٧ م سيرة ابن طولون لابن الداية
د برلين ١٨٩٤ د صبح الأعشى للقاشندي
دار الكتب المصرية طبقات الشافعية الكبرى
المطبعة الحسينية ١٣٢٤ م الطبقات الكبرى لابن سعد
طبع ليدن ١٣٢٢ م العقد الفريد لابن عبد ربه
د مصر ١٩٢٨ د العمدة لابن رشيق
١٩٢٥ د فتوح مصر للواقدى
ليدن ١٨٢٥ د فتوح مصر لابن اسحق الاموى
مصر ١٢٧٥

- فتح مصر لابن عبد الحكم
الفخرى لابن الطقطق
المرست لابن النديم
فضائل مصر للكندي
- طبع نبوهافن ١٩٢١
٥ مصر ١٣١٧
طبع مصطفى محمد
نسخة خطية بدار الكتب المصرية
رقم ٤٢٢
نسخة خطية بمكتبة الأزهر رقم ٦٦٩
بولادق ١٢٨٣
طبع ليسك ١٩٢٥
نسخة خطية بدار الكتب المصرية
رقم ٧٧ ش
طبع مصر ٥ ١٢٨٧
اكسفورد ١٦٦٣
بولادق ١٢٨٣
طبع دار الكتب ١٩٢٤ والباقي
مسالك الأ بصار لابن فضل الله العمرى ٢١
نسخ خطية بدار الكتب
المصرية رقم ٢٣٦
- محاضرات الأدباء
محضر تاريخ الدول لابن العبرى
مروج الذهب للسعودى
مسالك الأ بصار لابن فضل الله العمرى ٢١ طبع دار الكتب ١٩٢٤ والباقي
- معجم الأدباء لياقوت
معجم البلدان
المغرب في حل المغارب لابن سعيد
- نسخة خطية بدار الكتب المصرية
رقم ١٠٣ م الجزء الرابع
طبع ليدن ١٨٩٨ م
طبع مصر ١٩٢٤ م
دار الكتب المصرية
دار الكتب المصرية
نسخة خطية بالمكتبة التيمورية
٥ مصر ١٣١٠
طبع بيروت
- المكافأة لابن الديانية
التلقوم الراحلة لابن تغري بردي
نهاية الأربع للنويرى
الواقي بالوفيات للفضى
وفيات الأعيان لابن خلkan
يتيمة الدهر للثعالي

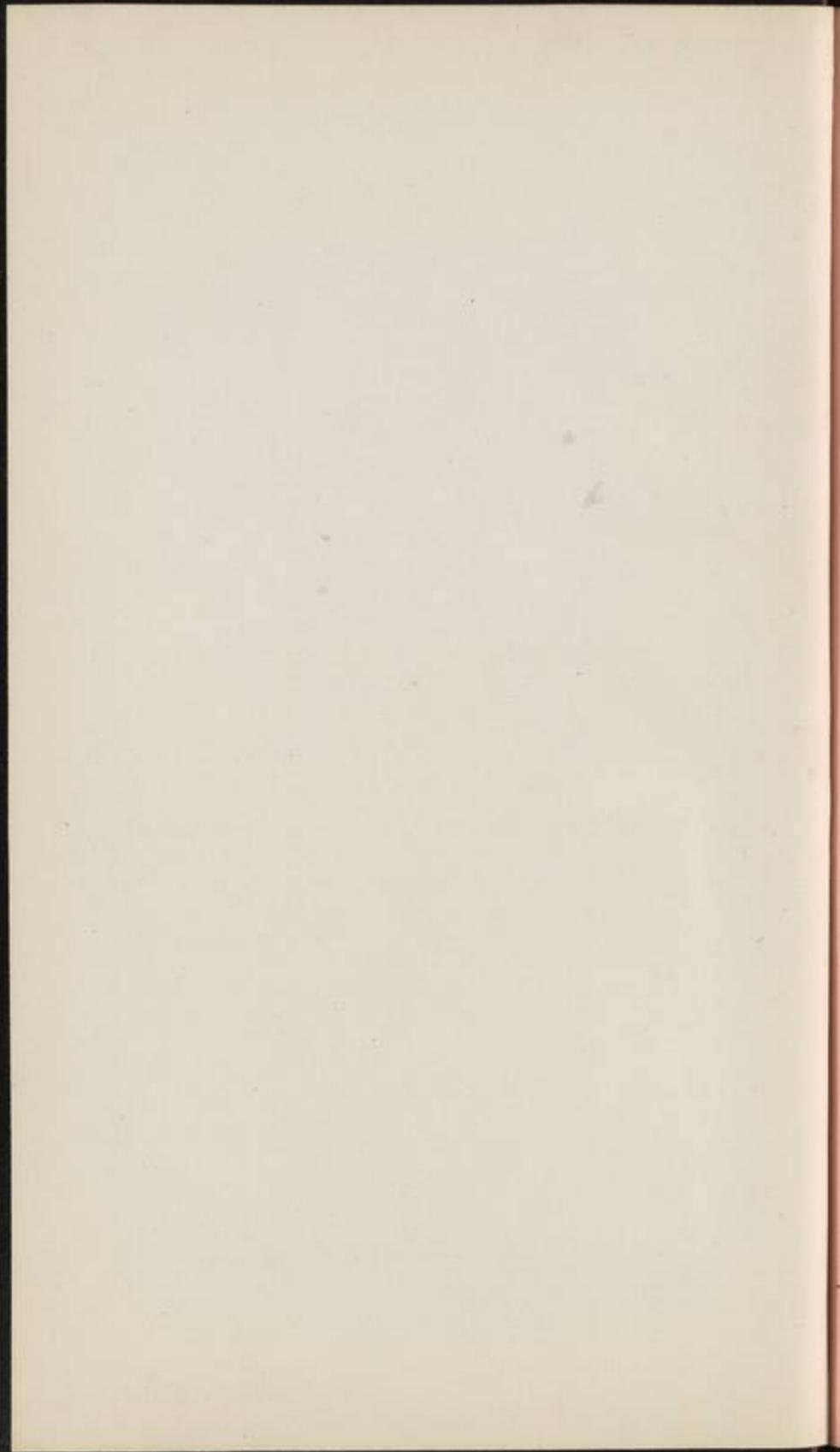
مراجع افرنجية

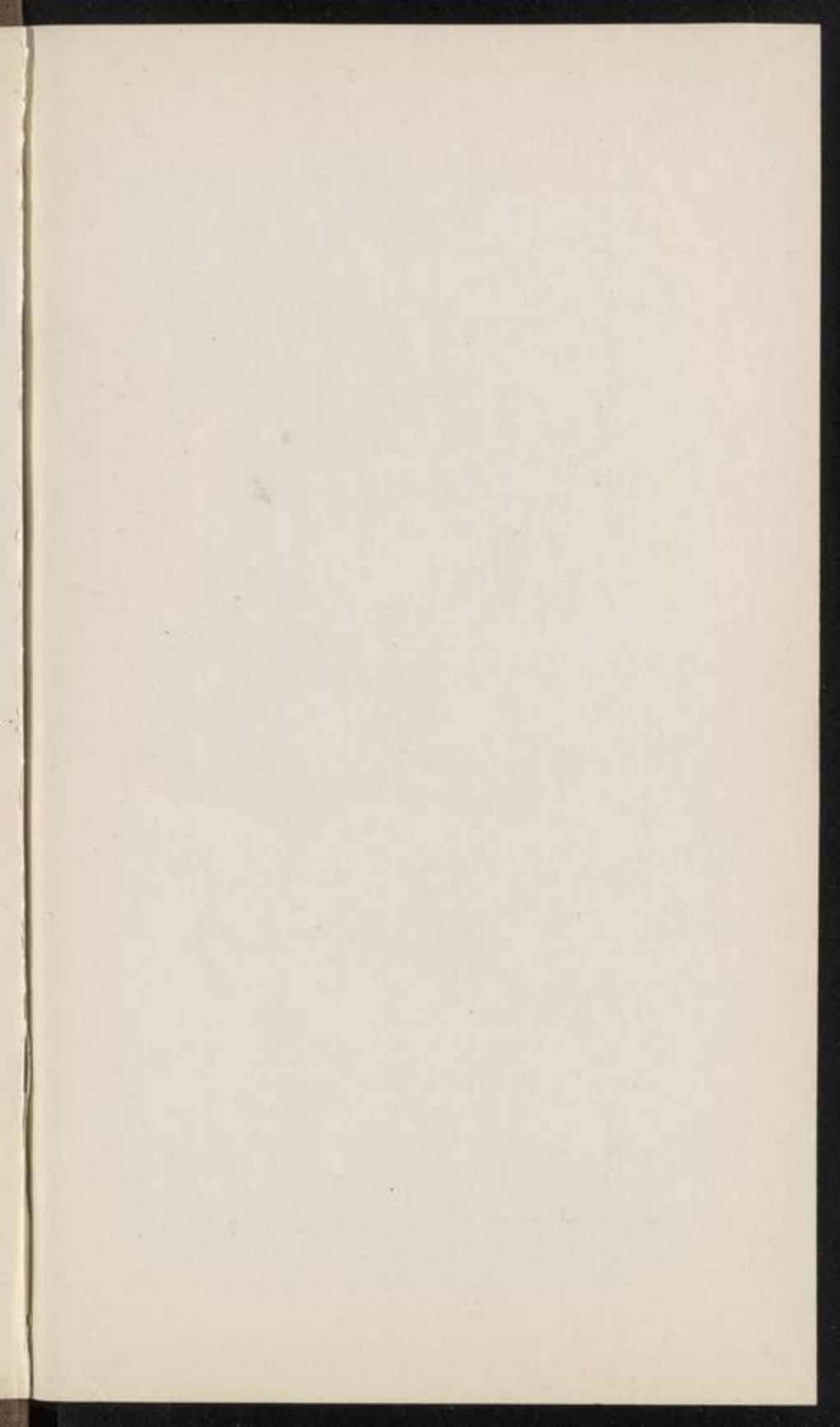
- Butcher : The Story of the Church of Egypt (London 1897).
Butler : The Arab Conquest of Egypt (Oxford 1902).
: The Ancient Coptic churches of Egypt (Oxford 1884).
Corbett : The Life & Works of Ahmed Ibn Tulun (J R A. S. 1891).
Encycloepedia Britannica.
Encycloepedia of Islam.
Galtier : Contribution à l'Etude de la Litterature Arabe, Copte (Cairo, 1905).
Grohman : Arabic Papyri in the Egyptian Library.
Hugh : The Monasteries of the Wadi'n Natrûn (V. I. New York.)
Lane-Poole : Mohammedan Dynasties London 1849).
: History of Egypt in the Middle ages (London 1925).
The Arts of the Saracens in Egypt (Londod 1868)
Marcel : L'histoire d'Egypte (Paris 1848).
Milne : A History of Egypt under Roman Rule.
Nicholson : A Literary history of the Arabs.
Quatremère : Mémoires Geographiques et Historiques sur l'Egypte et sur quelques contrées voisines (Paris 1811).
Recherches sur la langue et la litterature de l'Egypte (Paris 1808).



العنوان

مطبعة الأئمة، بناءً على حسن الأكابر، بدمشق، الصاحب، محمد بن الحسن





893.79
H956

BOUND

OCT 9 1957

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU58869921

893.79 H956

Adab Misr al-Islamiy